سلسلة
كراسات البحث

مبايعة الأمير عبد القادر

ندوة علمية من تنظيم فرقة البحث:

آثار السياسة الاستيطانية في المجتمع الجزائري

(1962-1830)

المركز الوطني للدراسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

فرقة البحث برئاسة:

الدكتور عميراوي احميده

وبعضوية كل من:

الدكتور زغداوي محمد

الأستاذ زاوية سليم

تم الطبع بشركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع – عين مليلة
الهاتف 67 27 33 030/47 95 44 032/00 92 44 032 الفاكس 18 94 44 032
www.elhouda.com

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام
على أشرف المرسلين

إنه لجميل لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية أن تنظم ندوات علمية متخصصة ومتميزة، مثل هذه الندوة المباركة حول مبايعة الأمير عبد القادر الجزائري.

وهذا بفضل جهود أبناء الجزائر من الباحثين. ومنهم الدكتور عميراوي احميده الذي سهر على أن يجمعنا نحن الأساتذة الباحثين متعددي التخصصات حول قضية هامة وهي **المبايعة**. وأن أملي كبير أن تدرس هذه القضية من جوانب متعددة ؛ تاريخية وسياسية شرعية وفقهية وجغرافية واجتماعية ولغوية.

تأتي هذه الندوة ضمن عشرات الندوات والملتقيات التي قامت بها جامعة الأمير عبد القادر؛ هذه الجامعة الفتية التي جمعت بين أحضانها مدة عشرين سنة نخبة طيبة من الأساتذة والباحثين والطلبة. مثلما كانت وتكون جسرا للتواصل المعرفي وسرحا للبناء الحضاري العربي الإسلامي والعالمي.

وأتمنى أن تكون هذه الندوة الثمرة الطيبة. وأختم كلمتي هذه بتقديم شكري وتقديري لجميع الذين ساهموا في إثراء البحث العلمي خدمة للعلم والمعرفة، من دون أن أنسى المركز الوطني للدراسات في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954 الذي لحضوره الطيب الدائم في التظاهرات العلمية خدمة للجزائر.

أ.د عبد الله بوخلخال

رئيس لجامعة

افتتاحية...

تأكدت حقيقة وهي أن عقد الندوات العلمية المتخصصة حول موضوع معين ومحدد يفيد أكثر مما يفيد عقد ملتقيات علمية مهرجانية، التي غالبا ما رأيناها مكلفة من الناحية المالية والجهد وضياع الوقت بتقديم مداخلات فضفاضة وقلة إقبال المتلقي، مع عدم التمكن من طبع الأعمال في النهاية.

على خلاف الندوات التي تكون مفيدة حين تدرس بمختلف التخصصات؛ مثلما حدث لندوة مبايعة الأمير عبد القادر التي تناولها الدارسون برؤى تاريخية وشرعية دينية: فقهية، وتأصيلية، وسياسية، ولغوية أدبية، وجغرافية، وأرشيفية، مع عقد مقارنة بين ما عرفه التاريخ الإسلامي من مبايعات.

وفي تقديري إن طبع ونشر هذه الأعمال سيعمم الفائدة، ويعمق المعرفة، لاسيما حين تكرم المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954 تحت وصاية ورعاية وزارة المجاهدين بتقديم المساعدة لإنجاح هذه الندوة بالتنسيق مع جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة، وحين تفضل بتحمّل تكاليف طبع هذا العمل.

فإلى كل من ساهم في إعداد هذا العمل تحية ودّ وإخلاص ونضال.

والله الموفق للصواب

الدكتور عمير اوي احميده

إشكالية الندوة

أثر الاحتلال "الفرنسي" في المجتمع السياسي الجزائري

(مبايعة الأمير عبد القادر)

الغاية من الندوة ومحتواها:

بسم الله الرحمن الرحيم

من المتعارف عليه أن تاريخ الجزائر ثري بأحداثه، وبمواقف رجاله الشرفاء من المجاهدين؛ الشهداء منهم والأحياء الأوفياء، وبعلمائه الأكفاء، وبرغم هذا الثراء فقد تعرض إلى الدس والتشويه والنسيان إلى درجة أن صار المجتمع الجزائري بين تهمتين: الأولى من الغرب، بما تفاضل به منظروه من مزايا على الجزائر بادعاء نشر المدنية وتأسيس الأنظمة السياسية الراقية فيها. والثانية من المشرق، بما تفاخر به باحثوها بالسبق إلى تأسيس أنظمة حكم راقية، وبعث ثقافة عربية إسلامية في أرجاء الجزائر.

إن تينك التهمتين قد تكونا انطلتا على ثلة من أبناء الأمة الإسلامية، وعلى شلة من أبناء الجزائر فأضعفتا فيهم الاعتزاز الذاتي، وقتلتا فيهم الشغف إلى معرفة تاريخهم، الذي يعد مخزونا حضاريا، له موقعه في الساحة العربية الإسلامية والعالمية، بما ساهم به أبناء هذا البلد أمثال الأمير عبد القادر، الذي يعد أحد أقطاب الفكر العربي الإسلامي، بتأسيسه لنظام حكم، تميز به عن الأنظمة السياسية في البلاد العربية آنذاك. والسؤال الذي يمكن طرحه هو ما نوع هذا النظام السياسي الذي أحدثه الأمير عبد القادر؟ وما هي مرجعيته؟ وموقع البيعة فيه؟ وما هي مواقف الأطراف الأخرى؛ جزائرية وفرنسية

وجوارية منه؟ وما هي آثاره؟ وما هي القيمة التاريخية واللغوية والتراثية لهذه المبايعة؟

إن الندوة التي تنعقد يوم 29 نوفمبر 2003 بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة تهدف إلى الإجابة على هذه الأسئلة وأمثالها. مثلما تهدف إلى تخليد ذكرى المبايعة التي بوركت من خاصة الجزائريين يوم 1832/11/27 ومن عامتهم يوم 1833/2/4.

ونأمل، من تنظيم هذه الندوة الوصول إلى تأليف مادة خبرية وتفسيرية واضحة، على أساس البحث العلمي النزيه، خاصة لما تكون المشاركة العلمية من باحثين أكْفاء: في التاريخ، والفقه، والشريعة، والقانون، والجغرافيا والسياسة واللغة، والتصوف.

وذلك بناء على المحاور الآتية:

1- وضع الجزائر السياسي والاجتماعي والثقافي عشية الاحتلال الأوروبي.

2- التوسع الأوروبي في الجزائر وأثره على المجتمع الجزائري.

3- موقف الجزائريين من هذا التوسع الأوروبي.

4- مبايعة الأمير عبد القادر.

5- موقف الجزائريين ورحال الاحتلال الأوروبي ودول الجوار من هذه المبايعة.

6- القيمة التاريخية والتراثية لهذه المبايعة.

ملاحظات:

نرجو من الباحثين المشاركين الكرام مراعاة ما هو آت:

– لا تقبل البحوث المنشورة أو التي سلمت قصد النشر إلى جهة أخرى.

- يعرض ملخص المداخلة في مدة 10 دقائق لفتح مجال المناقشة.

مسؤول الندوة: الدكتور عميراوي احميده

أمانة الندوة فرادي الدوادي. وصالحي ليندة

في 25 شعبان 21/1424 أكتوبر 2003

سير الندوة

بدأت أشغال الندوة على الساعة 8 ^{30}د (حضور مكثف من لأساتذة والطلبة)

افتتح الندوة .**د احميدة عميراوي** نائب مدير الجامعة ورحب بالضيوف ثم أحال الكلمة لمدير الجامعة.

رئيس الجامعة **أ.د عبد الله بوخلخال** رحب بالحضور ثم شكر القائمين على إنجاح هذه الندوة بالخصوص أ.د/ عميراوي احميده كما رحب ترحيبا خاصا بالأستاذ الدكتور: يحي بوعزيز، ونوه بمثل هذه الندوات العلمية المتخصصة والنوعية، وذكر بأن الجامعات تقاس بالعطاء العلمي وليس بالحجم والمساحة. ثم افتتح الندوة وتمنى للحضور المزيد من العطاء والتوفيق.

ترأس الجلسة الأولى **د/ احميدة عميراوي** وأحيلت الكلمة بعدها مباشرة لكل من **أ.د/ يحي بوعزيز والأستاذ عزيز حداد والدكتور سامعي.** بعده فتح المجال للمناقشة حيث تدخلت **أ/ فريدة قاسي** معقبة على محاضرة أ.د/ يحي بوعزيز وبينت أن الأمير عبد القادر بويع مبايعة عامة وأنه لا يمكن له التنازل عن منصبه.

ثم تدخل **أ./ بوبكر كافي** وبين أن الدراسة الفقهية قد بينت أنه يمكن للمجتمع الإسلامي أن يبايع لأكثر من واحد في القطر الواحد.

أما بالنسبة لمبايعة المهدي بن تومرت والأمير عبد القادر أن الأول قد أنطلق من نظرية المهدية التي جرت على الأمة كثيرا من القلاقل السياسية والآثار السلبية على المجتمع الإسلامي. أما بالنسبة للأمير عبد القادر فقد بويع بيعة شرعية وأن أهل العقد والحل قد بايعوه أولا ثم جاءت البيعة العامة.

ثم تدخل أ/ **مصطفى وينتن** وأطال في تدخله مسهبا في الموازنة بين بيعة عبد الرحمن ابن رستم والمهدي بن تومرت والأمير عبد القادر.

تدخلت بعد ذلك أ/**حليمة أمقران** وقارنت بين بيعة وبيئة الأمير عبد القادر والحاج باي.

ثم تدخل أ/ **محمد جعيجع** وطرح بعض الأسئلة حول بيعة الأمير عبد القادر. تدخل بعد ذلك أ.د / **عبد الله بوخلخال** وذكر بأنه حضر كثيرا من المحاضرات والندوات حول الأمير وأكد كلام أ.د/ **يحي بوعزيز** حول ضياع الجزائر وأن التاريخ يلوم كلا من الأمير والحاج باي.

وانتهت الجلسة الأولى بطرح مجموعة من الأسئلة.

ردود الأساتذة المحاضرين:

أ.د/ **يحي بوعزيز**: لولا الأتراك لأصبحت الجزائر نصرانية، فقد رد الأتراك الحملات الصليبية لمدة ثلاثة قرون، لذلك فأحمد باي لما حاول وراثة السلطان بعد خروج الأتراك فلا ظلم في ذلك.

أما قضية أحمد باي فإنه ورث السلطة على عكس الأمير الذي زكى زكاة طيبة واتسعت رقعة دولته حتى إلى بايلك الشرق. وكانت مبايعة الأمير سياسية لمكافحة العدو ودام له ذلك لمدة 17 سنة.

أما الحاج أحمد باي تمركز فقط في قسنطينة والظرف الذي ظهر فيه الحاج أحمد باي لم يكن مواتيا لأن المساعدة الشرقية التي جاءته أوقفت في تونس وردت جميع المساعدات.

أ/عزيز حداد:

تركت طريقة اختيار المبايعة للأمة ولها الحق في الاجتهاد لما تراه صالحا ويصلح بها نموذج الرستميين اجتهاد أولي نجح ثم لم ذلك ورجع.

د/ إسماعيل سامعي: قضية المهدوية التي أشير إليها في مداخلة بعض الأساتذة هي قراءة خاطئة للتاريخ، فالمهدي حركته فكرية قد كان سابقا لزمانه كما قال ابن خلدون. واجب النظر إلى الحركة المهدية على أنها حركة تجديدية

عقب **أ/ حسان موهوبي:** حول تحديد كلمة البيعة والمبايعة وهل البيعة أصل شرعي أم هو أمر اجتهادي؟

رد **أ.د/ عميراوي** على طرح الأستاذ حسان موهوبي بأن الندوة في بدايتها وأن هذه التساؤلات ستجد إن شاء الله توضيحا فيما سيأتي من محاضرات ومداخلات.

الجلسة الثانية:

ترأس الجلسة أ.د/ أحمد صاري، وبعد الترحيب والتهنئة بالعيد السعيد أعطى الكلمة للمحاضرة الأولى. وكانت لكل من الأستاذ **بوبكر كافي،** والدكتور **كمال لدرع، أ/ دوادي فرادي. وأ/ناصر لوحيشي. ود/ اسعيد عليوان.** وأعطيت الكلمة للقاعة فتدخل **أ.د/رابح دوب** الذي شكر الحاضرين والمحاضرين وكل من شارك في هذه الندوة وخصص تدخله حول محاضرة **أ/ناصر لوحيشي** والتي أثنى عليها ووجهه إلى بعض الملاحظات. وتدخل كذلك **أ/عبد القادر جدي** وعقب عن المحاضرات التي أخذت الجانب

الشرعي والتأصيلي ووضح أن بيعة الأمير عبد القادر لم تكن مبايعة الخلافة والحكم المستقل فالأمير كان أميرا ومنصب الخلافة لم يشغر.

أ/حسان موهوبي قال بأن المبايعة كانت مبهمة وأن التعريف بالبيعة لا يزال لم يحدد بعد، لذا نطلب من المحاضرين توضيح ذلك والتفريق بينها وبين البيعة العظمى(أو بيعة الخلافة العامة).

أ/يحي بوعزيز استفسر عن المصدر الذي رجع إليه **د/عليوان** لتوضيح موقف كلوزيل مع حاكم تونس والمغرب.

د/إسماعيل سامعي طرح بعض الأسئلة حول البيعة الشرعية.

رد **د/كمال لدرع** البيعة جاءت ناتجة عن الحكم الشرعي الذي يمثل التصور الصحيح وليس الحكم التقديسي الديني.

أ.د/ يحي بوعزيز: مبايعة الأمير كانت للجهاد و لم تكن للتقديس.

وتبقى بالنسبة للدولة العثمانية فقد راسلها الأمير ولكنها لم تجبه لأنها لم تكن قادرة وغارقة في المشرق.

د/حميدة عميراوي: لم يكن الحكام الذين وجدوا في الجزائر على اتفاق واحد. وعلى ما يبدو أن النظام العثماني كان ينظر إلى أنه من غير الممكن أن يتولى عربي مثل الأمير عبد القادر نظام الحكم في الجزائر.

د/ اسعيد عليوان: اعترف الأمير اعترافا صريحا بالخليفة العثماني وكذا نظام الحكم العثماني، وأن الأمير لم يكن كارها للأتراك ولو كان كذلك لما طلب وجهة نفيه إلى اسطنبول، ومدحه ولولا الزلزال الذي أصاب اسطنبول لما غادرها إلى سوريا.

أ/بوبكر كافي: لقد جاءت النصوص الشرعية مجيزة بتنصيب إمامين في قطرين مختلفين وخاصة مع الحاجة الملحة والتي عرفتها الأمة

الجلسة الثالثة:

ترأس الجلسة **د/إسماعيل سامعي**، بدأ المحاضرة الأولى

أ/محمد السعيد قاصري: بدأ محاضرته بالتعريف بالعنوان الذي كان:"العلاقات بين الأمير عبد القادر وملك المغرب".

أ/فريدة قاسي: التي أكدت على فكرة مفادها، أن الإمارة في غرب الجزائر(منطقة الأمير) كانت شاغرة، وعليه فالبيعة وإقامة هذه الفريضة أصبحت واجبة في حق أهل غريس (منطقة الأمير وإقليمه).

أ/حليمة أمقران: ركزت على السلطة وقبائل: الزمالة والدوابر والحشم والغرابة.

أ/ سليم زاوية: بدأ مداخلته بالإشادة بالأمير عبد القادر ونوه به وبخصاله ثم بدأ في التفصيل والتوضيح بالخرائط.

الجلسة الرابعة:

ترأس الجلسة الرابعة الدكتور **اسعيد عليوان** بدعوة المحاضرين وكان أولهم:

أ/خليفة حماش: الذي نوه في المحاضر بالأرشيف وكيف هو ذاكرة.

د/عميراوي احميدة: كان عنوان المحاضرة:" خطاب السلطة في مبايعة الأمير عبد القادر فرق بين: السلطة، الحكم والدولة.

الجلسة الأولى

الدكتور يحي بوعزيز:

مقارنة بين مبايعة الأمير عبد القادر وولاية الحاج أحمد باي

الأستاذ عزيز حداد:

البيعة في التاريخ الإسلامي (الرستميون نموذجا)

الدكتور إسماعيل سامعي:

بيعة الأمير عبد القادر في مسار تاريخ المغرب الأوسط

***

مناقشة

مقارنة بين مبايعة الأمير عبد القادر في الغرب وولاية الحاج محمد أحمد باي في الشرق

الدكتور يحيى بوعزيز[1]

بعد حملة الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر عام 1830م، وترحيل الداي حسين وحكومته إلى إيطاليا حدث فراغ وشغور سياسي في البلاد.

ووجد الشعب الجزائر نفسه وحيدا، وقد ترك لمصيره، فانفتحت الشهية لعدد من الزعماء ليجربوا حظهم، ويسعوا ويعملوا لملئ ذلك الفراغ والشغور، واختلفت الأوضاع بين وسط البلاد، وغربها،وشرقها.

ففي الوسط تمكن جيش الاحتلال الغازي والمعتدي، من التمركز والسيطرة، وأخذ يتوسع شيئا فشيئا وببطئ شديد، بسبب شدة المقاومة وعنفها، وانتهى الأمر بتصفية بقايا مظاهر السلطة التركية العثمانية في العاصمة، وسهل متيجة، وإقليم التيطري.

وفي الشرق القسنطيني، برز الحاج أحمد باي حاكم بايليك الشرق، وقائده، في مدينة قسنطينة منذ عام 1826م. وأعتبر نفسه الوريث الشرعي لحكومة الداي حسين الراحلة.

وكان قد حضر جزءا من الحملة الفرنسية على العاصمة، واختلف مع الباي ورحل بسرعة إلى قسنطينة، وسعى بكل إمكانياته وجهوده،

1- أستاذ وباحث من جامعة وهران.

لتوثيق صلاته وإحكامها مع الدولة العثمانية في الأستانة، واتحل بها وراسلها فوعدته بالدعم، وكررت وعودها، ولكنها لم تقدم ما ينفعه وينفع البلاد، ومصيرها، لأنها كانت تعاني ضغطا عسكريا مكثفا من أوربا المسيحية النصرانية الحاقدة كلها، وتفطن جيش الاحتلال لذلك، فأقدح على احتلال مينائي: عنابة وسكيكدة ليمنع وصول الإمدادات والمساعدات العسكرية إليه عن طريق البحر، وأغرى بايات تونس على إرسال أميرتين تونسيتين لحكم كل من بايليك الشرق، وبايليك الغرب، تحت حمايته فاستجابوا للإغراء ونفذوا العملية فعلا، ولكن على بايليك الغرب وهران، حيث تم تعيين الأمير خير الدين بايا علي وبقي بوهران ستة أشهر ثم رحل بعد أن رفض السكان التعامل معه والاعتراف به سلطانا، وكان من أكبر مشاكل الحاج أحمد باي في قسنطينة وبايليك الشرق:

أولا: عداء أصهاره من عائلة بن قانة وكبار زعماء العائلات المخزنية في البايليك، التي لم ترتح له، ولم تقبل بولايته، ونازعته وتصارعت معه.

ثانيا: عداء أتراك البايليك الذين ثاروا ضده عام 1830، ولم يدخل مدينة قسنطينة إلا بعد أن توسط زعماء المدينة مع المتمردين الذين تمركزوا بالحامة في أحواز عاصمة البايليك، وكانوا يريدون أن يستولوا على السلطة .

ثالثا: عداء بايات تونس له الذين لهم أطماع قديمة في البايليك، وتفتحت شهواتهم عندما اقترح عليهم الضابط كلوزيل، إرسال أميرتين تركيين واحد لحكم بايليك قسنطينة، والثاني لحكم بايليك الغرب وهران.

رابعا: عدم استطاعته التفاهم، والتعاون مع أمير الغرب الجديد عبد القادر بن محي الدين.

-وفي الغرب الوهراني تمكن جيش الاحتلال من احتلال مدينة وهران بسهولة، ودون حرب، حيث سلمها لهم الباي حسن يوم 4 جانفي 1831م فرحلوه إلى الإسكندرية، كما تمكن من احتلال مينائي ارزيو، ومستغانم، لإحكام الحصار البحري على بايليك الغرب، أسوة بما فعله في بايليك الشرق غير انه برز في أوساط العائلات الكبيرة المتنفذة دينيا واجتماعيا، الشيخ محي الدين بن مصطفى بن المختار الغريسي، في مدينة معسكر، وتزعم المقاومة ضد جيش الاحتلال على رأس جماهير السكان وخاض المعارك الأولى في وهران مثل: معركة حنق النطاح، ومعركتي رأس العين الأولى، والثانية.

واتجه رأيه ورأى زعماء الغرب الوهراني، للاستنجاد بسلطان المغرب الأقصى للدفاع عن البلاد والعباد، مقابل مبايعة السكان له سلطانا عليهم. فانفتحت شهيته، وسال لعابه،وقبل العرض دون تردد، وأرسل ابن عمه: علي بن سلمان أميرا لتلك المنطقة فاستقر بمدينة تلمسان كقاعدة له، وبدل أن يتفرغ لمحاربة جيش الاحتلال، عمل على

قهر السكان وزجرهم، وإذلال زعمائهم، وأظهر عجرفة كبيرة، نفرت منه السكان، فتخلوا عنه، وهاجروه، وطلبوا من الشيخ محي الدين أن يبايعوه أميرا عليهم للجهاد والمقاومة، باعتباره ابن البلد، ولكونهم جربوا نجاحه وبطولته في المعارك الأولى ضد جيش الاحتلال بوهران، فاعتذر لهم بكبر سنه، ولكنهم ألحوا عليه في الطلب فعرض عليهم مبايعة ابنه عبد القادر، الذي شارك معه في معارك وهران، وأظهر بطولة وشجاعة فيها، وراجت إشاعة آنذاك رواها ابن التهامي، بأن أحد الأولياء رأى في المنام كيف تمت مبايعة عبد القادر بن محي الدين أميرا للبلاد فقبل ذوو الحل والعقد، العرض والاقتراح دون تردد، وبايعوا عبد القادر بن محي أميرا عليهم مرتين. البيعة الأولى تحت شجرة الدردارة بسهل غريس في شهر رجب الفرد عام 1248هـ الموافق ليوم 27 نوفمبر 1832م والبيعة الثانية يوم 13 رمضان 1248هـ الموافق 4 فيفري 1832م بمدينة معسكر في المسجد الذي أصبح منذ ذلك اليوم يدعى بمسجد المبايعة.

بعض الفقرات من خطابه، ومن نص البيعة:

وهنا لابد من إيراد بعض الفقرات من خطابه على المبايعين بسهل غريس، ومن نص البيعة الذي حرره أعيان القبائل والأعراش للتدليل على أهمية البيعة الشعبية، والفرق بينهما، وبين من يفرض نفسه على الناس بالوراثة، أو القهر والقوة.

ففي خطابه على الناس بشجرة الدردارة في سهل غريس، قال بعد أن قبل البيعة منهم مع عدم ميله إليها: " مؤملا أن تكون واسطة لجمع

كلمة المسلمين، ورفع الخصام والنزاع من بينهم، وتأمين السبل، ومنع العمال المنافية للشريعة المطهرة، وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق والعدل، نحو القوي والضعيف"

وفي نص البيعة جاء في المقدمة: " وبعد فقد قال صلى الله عليه وسلم إن الله يحمي بالسلطان مالا يحمي بالقرآن هذا في الزمان الذي فاض فيه العدل، ونضب فيه الجهل، فما بالك بزماننا الذي كثر فيه الباطل وانتشر، وخفي فيه الحق، ولم يظهر له أثر"

وجاء فيها أيضا: " فاجتمع أهل الحل والعقد، وبايعوه من غير طلب منه بالإمارة ولا متابعة للنفس الأمارة بل بايعوه رغما عنه، وطلبوا والده بالله تعالى، وتوسلوا إليه برسول الله (ص) مدة تزيد على سنتين على بيعة ولده تطييبا لخواطرهم ورعاية لرفع الظلم على الضعيف، ودفعا للفساد والعنف"

هكذا يتضح أن الأمير عبد القادر سعت إليه الإمارة سعيا، ولم يهرول إليها ولا طلبها، وانتخبه ممثلو الشعب، ولم يفرض نفسه عليهم بالقوة أو بالحيل الدبلوماسية، أو الوراثة المقيتة.

وقد قبلها ليحمي وحدة المسلمين، ويؤمن السبل، ويحمي البلاد من الأعداء، ويمنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة، ويحقق العدل بين الناس جميعا، الأقوياء، والضعفاء.

وهن يبرز الفرق بين مبايعته هو هنا بالغرب الوهراني، وولاية الحاج أحمد باي في بايليك الشرق القسنطيني، كما تبرز الأسباب التي حالت دون تعاونهما على محاربة جيش الاحتلال عدو الجميع فالأمير عبد القادر تسلم السلطة بواسطة انتخاب شرعي شورى من ممثلي الشعب والأمة، ليحافظ على وحدتها، ويحارب جيش الاحتلال الغازي المعتدى، فانكب على الجهاد والمقاومة وبناء الدولة الجزائرية الحديثة وبعثها من جديد، ومن الصفر، وأرغم الأعداء على التفاوض معه والاعتراف به وبسلطته وتوسع حتى وصل إلى السهول العليا الشرقية السطيفية، وواحات الزيان الصحراوية الشرقية على أمل تحرير البلاد كلها، والعباد، وطرد جيش الاحتلال.

والحاج أحمد باي ورث السلطة من الحكومة المركزية التركية، المطرودة وأعتبر نفسه الحاكم الشرعي للبلاد، ولا مجال لظهور أي حاكم آخر غيره. ورأى في ظهور الأمير عبد القادر، ومبايعته، خطرا عليه، فلم يرتح له ورفض حتى مجرد التفكير في التعاون معه. وحاول السيطرة على بايليك التيطري فلم ينجح وظهر معارضون كثيرون ضده في بايليك الشرق حاولوا دون نجاحه بينما نجح الأمير عبد القادر في التوسع وتكوين ثلاث ولايات في بايليك الشرق نفسه إلى جانب الولايات الخمسة في الغرب والوسط، وهكذا يتضح الفرق بين الشورى، والولاية القسرية وبين المبايعة الطوعية، والسلطة الوراثية. وتتضح الأزمة الخانقة بين أمير

الغرب المنتخب والمبايع وبين باي بايليك الشرق بالوراثة الذي حاول أن يفرض نفسه فرضا وكانت النتيجة خسارة الطرفين.

ومن الزاوية التاريخية، فإن كلا من الحاج أحمد باي، والأمير عبد القادر، يلومهما التاريخ ويحاسبهما ويعتبران مسؤولين على ضياع الجزائر، لأنهما لو تغلب على عواطفهما، وتعاونا لما أمكن الجيش الاحتلال أن يبقى في الجزائر، وتم طرده بسرعة وذلك قضاء الله وقدره.

وهران- حي جمال الدين

الثلاثاء 25رمضان 1424هـ 19 نوفمبر 2003م

البيعة في التاريخ الإسلامي

(الرستميون نموذجا)

الأستاذ عزيز حداد[1]

مقدمة.

بمناسبة الذكرى الواحدة والسبعين بعد المائة لمبايعة الأمير عبد القادر الجزائري الموافقة ليوم 27 نوفمبر 1832، رجب 1248هـ والبيعة الثانية العامة 4 فيفري 1833 13 رمضان 1248 فيها بمبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم نقدم هذا العمل المتواضع الذي له صلة بالبيعة وقد عنونت مداخلتي بعنوان البيعة في التاريخ الإسلامي (الرستميون نموذجا).

كلمة عن الخلافة :

الخلافة: مصدر خلف، يقال: خلفه في قومه يخلفه خلافة فهو خليفة، ومنه قوله تعالى: "وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي"[2] أي أناب عنه عند غيابه عن قومه وقال الله تعالى: ".. وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة"[3] وقوله: "يا داود إنا جعلناك في الأرض خليفة فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى"[4] فالله ليس بغائب وإنما يحمل الإنسان مسؤولية الرسالة المكلف بها، فالأنبياء هم خلفاء الله في أرضه بما

1- أستاذ ورئيس الجذع المشترك بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

2-لأعراف: 142

3-البقرة: 30

4- سورة ص: 36

أوحى إليهم وأمروا بتبليغه لقومهم أو للناس كافة كما هو التكليف للرسول صلى الله عليه وسلم.

والخلافة ذكرت على شكل خليفة كما في قوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة"[5]. وتجميع خلفاء كما في قوله تعالى: "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد نوح" ، وخلائف كما في قوله أيضا: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات". كما ذكرت فإن جمهور الفقهاء امتنعوا القول أن تكون الخلافة عن الله (خليفة الله) محتجين بأنه إنما يستخلف من يغيب أو يموت، والله باق ولا يغيب، ومما يؤكد ذلك ما روي أنه قيل لأبي بكر الصديق: يا خليفة الله، فقال: لست خليفة الله لكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: "يا خليفة الله، فقال: ويلك لقد تناولت متناول بعيدا، إن أمي سمتني عمر، فلو دعوتني بهذا الاسم قبلت، فكبرت فكنت أبا حفص، فلو دعوتني به قبلت، وليتموني أموركم فسميتموني أمير المؤمنين، فلو دعوتني بذلك كفاك. وقد تطلق تشريفا لله وناقة الله وأمة الله.

الخلافة شرعا واصطلاحا:

عرفها ابن خلدون: "الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فه يفي الحقيقة خلافة عن

5- البقرة: 30.

صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"[6]. وعرفها الماوردي: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعندها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وأن شد عنهم الأصح"[7].

ألقاب الخلافة :

هناك مصطلحات أطلقت على هذا النظام السياسي في الحكم الإسلامي فاللقب الأول: هو الخليفة كما ورد في قول أبي بكر في رده على من قال له يا خليفة الله وأكد لهم أنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلق هذا المصطلح عبر التاريخ الإسلامي في الخلافة الراشدة والخلافة الأموية والعباسية والفاطمية وحتى العثمانية إلى سقوط الخلافة الإسلامية عام 1924. لكن ألقاب الخليفة تغيرت من مرحلة إلى أخرى حسب طبيعة نظام الحكم والأسر والفرق المذاهب المسيطرة والمتحكمة في زمام الأمور. ومن الألقاب الأخرى التي وجدت وانتشرت:

أمير المؤمنين: إن معناها أوسع من الإمارة الخاصة المكلفة بعمل ما كأمير الجيش وأمير الحج وأمير على إقليم ما، وأطلق هذا اللقب أول مرة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء خلافته، فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل: إن أصل ذلك أن عمر خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عامله بالعراق أن يبعث إليه برجلين عارفين بأمور العراق يسألهما عما يريد، فأوفد إليه لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم،

6- ابن خلدون: المقدم دار القلم. بيروت.ط1. 1984. 191.

7- الماوردي: الأحكام السلطانية و الولايات الدينية. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1983ص. 5.

فلما وصلا المدينة دخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص، فقالا له: استأذن لنا على أمير المؤمنين فقال لهما عمرو: أنتما والله أصبتما اسمه، ثم دخل على عمر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: ما بدا لك يا ابن العاص؟ من هذا الذي يقول فقص عليه القصة فأقره على ذلك، فكان ذلك أول تلقيبه بأمير المؤمنين"[8].

وهذا اللقب أصبح يطلق على كل من ولي أمر المسلمين عبر التاريخ الإسلامي إلا من غير ذلك بلقب آخر مثل الأمويين في الأندلس أمير المسلمين أو لقب آخر مثل إمام وقد فضل عبد القادر بن محي الدين الجزائري هذا اللقب.

الإمامة: ليست إمام الصلاة وإنما الإمامة الكبرى والعظمى وهي الخلافة وهي التي فصلها الماوردي في تعريفه[9]، وذكر الله تعالى ذلك: "وجعلناك للناس إماما" وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الأئمة من قريش".

و ذكر ابن خلدون الوجهين كما في قوله: إذ قد بينا حقيقة هذا المنصب، وإنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة والقائم بها خليفة وإماما، فأما تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة في إتباعه والإقتداء به ولهذا يقال الإمامة الكبرى وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله [10].

8- القلقشندي: المصدر السابق.ج1. 27

9- الماوردي: المصدر السابق. 5.

10- ابن خلدون: المصدر السابق. 191.

إن لقب الإمام مستجد استعمل أكثر عند العباسيين والفاطميين والشيعة عموما باعتقادهم أن الإمامة مقتصرة في آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداء من علي كرم الله وجه إلى المهدي المنتظر. كما استعمل هذا اللفظ الرستوميون في حكمهم انطلاقا من مذهبهم الإباضي. وهناك لفظ آخر هو **عبد الله** كان يلقب ويكتب به عمر بن الخطاب: من عبد الله عمر أمير المؤمنين وأضاف الفاطميون وليه. ولقب آخر استحدث مقابل كلمة الخليفة في الخلافة العثمانية وهو السلطان. والسلطان الأعظم وعموما فإنه لا مشاحة في المصطلحات إذ لم يرد نص يؤكد على ضرورة إطلاق هذا المصطلح على من يتولى أمر المسلمين وإنما هو لاجتهاد المسلمين والعبرة في الأعمال وإتباع الشرع وخدمة الأمة[11].

شروط الخليفة :

هناك شروط أساسية أولية (الإسلام، العقل، البلوغ، الحرية، الذكورة)

أما الشروط التي أجمع عليها جل العلماء هي :

- العدالة على شروطها الجامعة.
- العلم المفضي إلى الاجتهاد في التوازن والأحكام.
- الكفاية والشجاعة والرأي
- سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان لمباشرة ما يدرك بها.
- سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استفاء الحركة وسرعة النهوض.

11- شوقي أبو خليل:الحضارة العربية الإسلامية. دار الفكر المعاصر. بيوت.دار الفكر. دمشق.ط2. 1996. 206

-النسب القرشي لورود النص في ذلك. إلا أن هذا الشرط مختلف فيه.

أركان الخلافة :

1-أهل الحل والعقد (أهل الاختيار) والبيعة الخاصة. 2-الخليفة أو الإمام أو الأمير ،والسلطان. 3- الشورى. 4- البيعة العامة

شروط أهل الحل والعقد :

ثلاثة ذكرها الماوردي :

1-العدالة الجامعة لشروطها. 2-المعلم السري تتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيه. 3-الرأي والحكم المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصح وبتدبير المصالح أقوم وأعرف وليس لمن كان في بلد الإمام على غيره من أهل البلاد فضل مزية تقدم بها عليه[12]

اختيار الخليفة :

ترك الأمر للمسلمين و لم يرد نص صريح يبين شكل ترشح أو انتخاب أو تعيين الخليفة فيما عدا بعض التوجيهات العامة مثل قوله تعالى: "ولا تنازعوا فتفشلوا فتذهب ريحكم" وقوله:"وأمرهم شورى بينهم" "واعتصموا بحبل الله جميع ولا تفرقوا"[13] والرسول صلى الله عليه وسلم لم يوص لأحد بالخلافة وما ذكر بشأن أبي بكر الصديق أو علي وغير ذلك هو من باب التفضيل. وقد ذكر ذلك عمر بشأن أبي بكر في اختياره: أنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

12- الماوردي: المصدر السابق. 6

على الصلاة والصلاة أفضل دين للمسلمين، فمن ذا يسعى أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ابسط يدك نبايعك*. إلا أن إجماع المسلمين إلى نظام الخلافة كنظام يحكمهم أمر ضروري. والاختيار يتم عن طريق البيعة وهي كعهد بين الحاكم والمحكوم فيما تتم المصافحة والإشارة باليد، إذا كانوا كثيرا وقد عرف المسلمون هذا النظام من قبل فكان الرجل إذا دخل في الإسلام بايع الرسول على نفسه أو عن قومه بايع الأنصار البيعة الأولى والثانية كما بايع المسلمون الرسول صلى الله عليه وسلم على القتال قبل صلح الحديبية سنة 6هـ وما ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم هو قوله: "الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا واسترحموا فرحموا" وقوله: "قدموا قريش ولا تقدموها "الملك في قريش، الخلافة في قريش، الأمراء في قريش"والآية التي تقول :"**إن أكرمكم عند الله اتقاكم**".

وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم:* اسمعوا وأطيعوا وان ولي علمكم عبد حبشي ذو زبيبة* وقد ذكر المؤرخون أن هذه الأحاديث تشير إلى أولوية قريش وأفضليتها. ولكنها لا تنفي الخلافة من غيرهم، فإذا تساووا في الصفات المذكورة في الحديث من عدل ووفاء ورحمة كانوا أولى من غيرهم وإذا زاد عنهم غيرهم في هذه الصفات كان أولى منهم. ولقد كانت تقتضي المصلحة في صدر الإسلام أن يتولى الخلافة من قريش لأن العرب لن يقبلوا الخضوع إلا لها لوجود عصبية لقول أبي بكر في السقيفة: *إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش*.

يرى ابن خلدون إن ذلك إنما هو من الكفاية إليها وطردتا المهلة المحتملة على المقصود من االقرشية وهي وجود العصبية، كشرط في القائم بأمور المسلمين

أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها[14]. والرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمر الخلافة عمدا ليقر مبدأ هاما وهو تفويض الأمر للأمة لتكون صاحبة الحق في اختيار حاكم مكتفي بما ورد في الكتاب والسنة من مبادئ العدل والشورى وأسلوب الاختيار للأمة بما يلائم عصرها وظروفها المتغيرة[15] وقول عمر: *فوالله لا تعرض العرب أن تؤمركم ونيتها من غيركم ولا تتمتع العرب أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم ولنا بذلك الحجة الظاهرة على من تنازعنا سلطان محمد نحن أولياؤه وعشيرته[16]

أشكال التنصيب :

1-**انتخاب استشاري:** كما حدث في خلافة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة أثناء الحوار والخلاف بين الأنصار والمهاجرين ولا داعي لسرد ذلك.

2- استشارة لأجل عهد الخلافة لعمر :

أي اختيار ثم استشارة أهل الحل والعقد ثم بيعة عامة.

3- اختيار مجلس شوري يضم ستة من الصحابة وهم :علي وعثمان وسعد، وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عيد الله والزبير بن العوام، وابنه شاهدا ويستشار عند الحاجة .

---

14 ابن خلدون: المصدر السابق،196

15 عبد الحميد الرفاعي: عصر الخلافة الراشدة، دار الثقافة العربية القاهرة 1995ص. 19.

16 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج2 .دار الكتاب العربي .بيروت. ط4 2/1983

4- **المبايعة الجماهيرية والشعبية لعلي** وهذا رغم الفتنة التي ظهرت أثناء اغتيال عثمان رضي الله عنه. وبذلك لم تغب الشورى عن الخلافة؛ فرضا الخليفة وقبول الأمة به ابعد فكرة الوراثة والقرابة[17] ونذكر نماذج من الأقوال والخطب تبين ذلك :

- خطبة الخليفة أبوبكر ضي الله عنه :

"أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فاتبعوني ،وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف عندكم قوي عندي حتى أخذ له حقه والقوي ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع أحدكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل أطيعوا الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم".

-وقوله في توليته لعمر:

هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب إنما استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيرا، فإن عدل فذلك ظني وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب من الإثم والخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته*[18]

17- د. عبد الحميد الرفاهب:عصر الخلافة الراشدة. دار الثقافة العربية. القاهرة. 1995. 19.

18-السيوطي: تاريخ الخلفاء.82

-رواية في تولية عثمان

لما طلب المسلمون من عمر رضي الله عنه أن يستخلف عليهم بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، فقال لهم عمر :"إن أفعل ذلك فقد فعله من هو خير من يصلى الله عليه وسلم.

ولما ألح الناس على عمر وقالوا له :"أوصي يا أمير المؤمنين، استخلف، قال ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء الرهط (النفر) الذين توفي رسول الله صلى الله غليه وسلم وهو عنهم راض، وذكر عليا وعثمان وطلحة والزبير وسعدا وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شئ"[19].

والروايات في هذا عديدة ذكرها الطبري وابن الأثير في كتابيهما على التوالي: تاريخ الأمم والملوك. والكامل في التاريخ.

5- المبايعة بالرضى والإكراه والاعتماد على النفوذ الأسري كما في بني أمية والعثمانيين، والأسري المذهبي عند العباسيين والفاطميين.

6- المبايعة لولاية العهد الوراثي (ملك وراثي) اتبع هذا النمط في كل مراحل التاريخ الإسلامي بعد الخلافة الراشدة ، وان وجد خلاف ذلك فشاذ

مفهوم البيعة :

هي عقد وعهد على الطاعة وقد عرفها ابن خلدون بقوله[20]: "اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر

19--ابن الجوزي: مناقب أكبر المؤمنين.56.

20-ابن خلدون: المصدر السابق.209.

في نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فيسمى بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصالحة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند الشجرة وحيثما ورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفاء ومنه إيمان البيعة كان الخلفاء يحلفون على العهد ويستوجبون الأيمان فكلها كذلك يسمى هذا الاستحلاف أيمان البيعة وكان الإكراه فيها أكثر وأغلب ولهذا لما أفتى مالك رضي الله عنه بسقوط يمين الإكراه أنكرها الولاة عليه واعتبروها قادحة في أيمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الإمام رضي الله عنه، وذم ابن خلدون البيعة الكسروية التي فيها تقبل اليدين والرجلين والأرض وهي مذلة رغم أنها أصبحت عرفا .

تطور البيعة :

ظهرت البيعة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الأولى والثانية قبل الهجرة ثم توالت البيعة للرسول صلى الله عليه وسلم في حروبه مع قريش إلا أن البيعة ارتبطت كثيرا بالخلافة والإمامة، وذلك أنه منذ اختيار الخليفة الأول من قبل أهل الحل والعقد ومبايعته البيعة الخاصة في سقيفة بني ساعدة ثم البيعة العامة في المسجد النبوي، في اليوم الموالي يوم الثلاثاء عندما خطب أبو بكر الصديق في الناس. كذا تم الأمر لعمر بعد استشارة من أبي بكر الصديق للصحابة أثناء مرضه واختياره له - أشرت إلى ذلك سابقا- وقرأ عثمان الوثيقة أو العهد على المسلمين في المسجد فأجابوا

جميعا بالسمع والطاعة. وظهر في اختيار عثمان رضي الله عنه تطور آخر في شكل البيعة وأسلوبها لا في جوهرها وأسسها، وطلب منه المسلمون أن يستخلف عليهم بعدما طعنه أبو لؤلؤة فخشي أن يولي شخصا ويتحمل مسؤليته حيا وميتا وفي نفس الوقت لا يريد أن يترك الأمة عرضة للخلاف والفرقة فاختار الستة الذين زكاهم الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي عهد الأمويين والعباسيين فقد اتسمت البيعة بطابع الإكراه وولاية العهد والحكم الوراثي. إن إشارتنا إلى الخلافة وما يتعلق بالبيعة قبل الرستميين يعطينا صورة عن تطور نظام الحكم والبيعة في التاريخ الإسلامي عامة، ويمهد لنا الكلام في التعرض للبيعة عند الرستميين في المغرب الأوسط.

البيعة في الدولة الرستمية (نموذجا) 160 - 297 هـ

نشأة الدولة الرستمية

تنسب الدولة الرستمية إلى مؤسسها عبد الرحمن بن رستم الذي أسسها في تيهرت سنة 160 هـ بالمغرب الأوسط وهي أول دولة إباضية المذهب (نسبة إلى عبد الله بن إباض) من الخوارج الذين تراجعوا عن فكرة الخروج عن الحكام خلافا للأزارقة والنجدية. مع التذكير إن عقائد الإباضية هي:

- الصفات الإلهية: هي عين ذات الله، نفيا لتعدد القدماء.
- رؤية الله لا تتحقق للناس أبدا، في الآخرة فضلا عن الدنيا - الخلود في الجنة والنار ابدي - الإنسان حر في اختياره- الإيمان قول وتصديق - ولاية المطيع والبراءة من العاصي — النفاق منزلة بين الشرك والإيمان- إذا أطلقت كلمة الكفر على الموحد فالمقصود بها كفر النعمة لا كفر الشرك.— مصادر التشريع هي القرآن والسنة والرأي -الصحابة كلهم عدول إلا روايتهم

المتعلقة بالفتن-الإمامة فرض، ولا تنحصر في عنصر خاص. وإنما شرطها الكفاءة الشرعية -الإمامة أربعة أنواع، وتعرف بمسالك الدين: إمامة الظهور ، وإمامة الدفاع ، وإمامة الشراء ، وإمامة الكتمان.

وعموما فإن الشيخ أطفيش يذكر أن الإباضية تقول: إن الحق ما نحن عليه والباطل ما عليه خصومنا ،لأن الحق عند الله واحد ومذهبنا في الفروع صواب يحتمل الخطأ ومذهب مخالفنا خطأ يحتمل الصدق*[21]

شروط الإمام

1 - الفضل يراد بها العدالة وسلامة الاعتقاد وصحة الجوارح ونزاهة النفس 2 - المعلم: الذي يوصل إلى مصلحة الجماعة في الدنيا والآخرة.

3- الوصية: هو أن يوصي الإمام ممن يخلفه ليس على سبيل الإلزام وإنما الإقتداء بأبي بكر وعمر (اختيار عبد الرحمن بن رستم بما في ذلك ابنه عبد الوهاب)

4- ألا يكون الإمام من عصبة تؤيده وبذلك يكون الاختيار على أساس الشورى وحرية الرأي لأنه في رأيهم تفرض سلطانها على الناس وهي تجرب جديدة في بلاد المغرب [22]

1- إبراهيم بحاز : الدولة دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، مطبعة لافوميك الجزائر،ط1 ،1985 ، 77-80. الرستمية 163-296هـ /777-909 م

2- عبد الميد الرفاعي.. زد.عبد الراضي محمد عيسى: تاريخ المغرب والأندلس.دار الثقافة العربية ا. القاهرة. 1996. 126، 127.

بيعة الأئمة الرستميين

بعد انتقال المذهب الإباضي من المشرق إلى طرابلس وخاصة جبال نفوسة والمغرب الأدنى والأوسط وانتشاره تدريجيا على يد دعاة المذهب الذين تتلمذوا على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة خليفة الإمام جابر بن زيد، وهم: سلمة بن سعيد ، وحملة العلم الأربعة (عبد الرحمن بن رستم عاصمة السدراتي وإسماعيل بن درار الغدامسي وأبو داود القبلي النفراوي)، واختار ابن رستم إقليم تيهرت الذي أنشأ به مدينة ابتداء من سنة 156هـ عاصمة للدولة الرستمية منذ ان بويع بالإمامة سنة 160هـ/777م[23]، من قبل المسلمين الإباضيين لاعتبارات منها: إنه من حملة العلم الأربعة والدعاة البارزين للمذهب الإباضي والذين شهد له بالعلم والتقوى والورع، كما أن بلاءه وشجاعته في نشر المذهب ودحر خصومه وجمع القوى وتوحيد القبائل ، زيادة على كونه فارسي الأصل و لم تكن له عصبة عربية او بربرية لأن ذلك يثر الفتن حسب رأي الإباضيين، والكفاية والقدرة وما يتصف به الرجل من مناقب أهله للمبايعة، وبذلك تأسست أول دولة على المذهب الإباضي في التاريخ الإسلامي ترفض الظلم الذي ارتكبه الأمويون والعباسيون وتقتدي بالخلافة الراشدة. إلا أن الرستميين لم ينفذوا شروط لإمامة والبيعة التي آمنوا بها، كما أنهم لم يستطيعوا تجنب ما عابوه على الخلافة الأموية والخلافة العباسية في ولاية العهد والحكم الوراثي، ويتضح ذلك من خلال تولية أئمة (أمراء) الدولة الرستمية .

23- د. إبرهيم بحاز: المرجع السابق. 96.

إن عبد الرحمن بن رستم قد اختار سبعة من يكون فيهم اختيار الإمام وكان الأمر في الأخير لابنه وانسحاب مسعود الأندلسي لأنه من زناتة أيدت عبد الوهاب باعتبار أن أمه من قبيلة الزناتية لكن ما يلاحظ عن الأئمة ومبايعتهم تحولت إلى ملك وراثي وهذا ما دفع بالإباضيين في البصرة إلى الإنكار على ظلم ولكن لم يتوهم على أمرهم أدى ذلك إلى تكون صرا عات وفرق داخل الإباضية وكادت أن تعصف بها إلا أنها أضعفتها الدعوة الفاطمية (الدولة العبيدية سنة 297هـ) (909م)

ويذكر ابن الصغير الذي عاصر فترة من عمر الدولة الرستمية روايات وأخبارا عن تولية ومبايعة الأئمة الرستميين الذين استمر حكمهم في الدولة 134سنة ، فيقول:* أخبرني غير واحد من الإباضية عن من تقدم من أبائهم قالوا لما نزلت الإباضية مدينة تاهرت وأرادوا عمارتها اجتمع رؤساؤهم فقالوا قد علمتم إنه لايقيم أمرنا إلا إمام نرجع إليه في أحكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ويقيم لنا صلاتنا ونؤدي إليه زكاتنا ويقسم فينا فقلبوا أمرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيلة منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدبر أمر القبيلة ويستحق أمر الإمامة فقال بعضهم لبعض أنتم رؤساء ولا نأمن أن يتقدم واحد على صاحبه فتفسد نيته ... ولكن هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه وقد كان الإمام أبو الخطاب رضي لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا فقلدوه أموركم فإن عدل فذلك الذي أردتم وإن سار فيكم بغير عدل عزلتموه و لم تكن له قبيلة تنفعه ولا عشيرة تدفع عنه. فأجمعوا رأيهم على ذلك ثم مضوا إليه بأجمعهم وقالوا يا عبد الرحمن رضيك الإمام في ابتدائنا نحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا وعلمت أنه لا

يصلح أمرنا إلا إمام نلجأ إليه في أمورنا ونحكم عنده فيما ينوب من أسبابنا. فقال لهم إن أعطيتموني عهد الله وميثاقه لتستطيب إلي ولتطيعوني فيما راغب الحق وطابقه قبلت ذلك منكم فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك وشرطوا عليه مثلما شرط عليهم وقدموه على أنفسهم وألقوا إليه بأيديهم[24].

كما أن ابن الصغير يقول في تولية ابنه: وكان قد نشأ له في أيامه ولد يعرف بعبد الوهاب، وكان محمود الأفعال، وكان قادرا للقيام بعده فلما انقضت أيامه صيرت الإباضية الأمر إليه بعده[25]. وقد أشرت قبل ذلك فيما عهد به عبد الرحمن بن رستم للسبعة للتشاور في اختيار خليفته في الحكم ومعهم ابنه عبد الوهاب. وأجمعت كل الكتابات المذهبية وغيرها القديمة منها والحديثة على أن المبايعة للأئمة في الدولة الرستمية بعد ابن رستم كانت بالعهد وبالوراثة. وأذكر حكام دولتهم على التوالي:

عبد الرحمن بن رستم: (160 ــ 171هـ). عبد الوهاب بن عبد الرحمن: (171ــ 190هـ). أفلح بن عبد الوهاب: (190ــ 140هـ).

أبو بكر بن أفلح: (240 ــ241 عـ).أبو اليقظان محمد بن أفلح: (241 ــ 280 هـ).أبو حاتم يوسف بن أبي اليقظان: (281 ــ 294هـ).

اليقظان بن أبي اليقظان: (294 ــ 296هـ).[26]

---

24 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين. تحقيق وتعليق د. محمد ناصر،د. إبراهيم بحاز.دار الغرب الإسلامي. بيروت.1986. 28-31.

25- ابن الصغير: المصدر نفسه. 42.

26- بكير بن سعيد أعوشت: ميزاب يتكلم تاريخيا-عقائديا-اجتماعيا.المطبعة العربية . غرداية.1993. - 39.

خاتمة

إن الدولة الرستمية التي تأسست بالمغرب الأوسط في القرن الثاني هجري/ الثامن ميلادي، والتي خرجت عن الخلافة العباسية استطاعت ان تكون قوة فكرية مذهبية اقتصادية وعسكرية لمدة قرن وربع قرن، إلا أنها لم تنجح في الإقتداء بالخلافة الراشدة في مباديء وشروط الخلافة ، ووقعت في نفس الأخطاء التي أنكرتها على الخلافتين (الأموية والعباسي) وخاصة في الظلم والعصبية وولاية العهد والحكم الوراثي، إذ أنه بعد أن حكم ابن رستم مؤسس الدولة تولى حكام السلطة عن طريق ولاية العهد وصار الملك وراثيا وبالتال لم يكتب لها النجاح طويلا وواجهتها فتن داخلية أثرت على استمرارها، زيادة على الهجوم الخارجي والمذهب الشيعي العبيدي .

بيعة الأمير عبد القادر في مسار تاريخ المغرب الإسلامي

(قراءة ومقاربة)

الدكتور إسماعيل سامعي[1]

يقتضي سياق هذا الموضوع التعرض في البداية إلى مفهوم البيعة بشيء من الإيجاز غير المخل . فمتى تعين الإمام بالعهد[2] أو بالشورى[3] أو

---

1 - أستاذ محاضر ونائب رئيس جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة.

2- العهد : طريقة في اختيار الخليفة، وهو أن يعهد رجل قبل موته بالخلافة إلى واحد بعينه، وأول من فعل ذلك أبوبكر الصديق رضي الله عنه، فقد اختار عمر بن الخطاب، وكتب بذلك كتابا الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية(الجزائر: د.م.ج، 1983)، 5، 6، منير العجلاني، عبقرية الإسلام في أصول الحكم ،(بيروت : دار الثقافة ، 1985) ، 94.

3 - الشورى : في **اللغة** اسم من المشاورة أي استخراج ما عنده من رأي ، انظر معجم ألفاظ القرآن ، مجمع اللغة العربية، (القاهرة : الهيئة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، 1970) ، 40/2؛ وفي **الاصطلاح** وردت في شأنها عدة تعريفات نذكر منها تعريف أبو الثناء الألوسي الذي قال فيه :" بأنها استخراج الرأي لمراجعة البعض للبعض" ؛ انظر: روح المعاني في تفسير القرآن الكريم (ط، 3. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1967) 42/25 ، وتعريف ابن عربي: " الاجتماع على الأمر ليستشير كل واحد صاحبه ، ويستخرج ما عنده" أنظر: أحكام القرآن، (دار أحياء الكتب العربية)، 1/ ، و297 ، كما عرفها أحد المعاصرين بقوله :" استصلاح الرأي من ذوي الخبرة فيه للتوصل إلى أقرب الأمور للحق " أنظر : عبد الرحمن الخالون، الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي، ،(الكويت: الدار السلفية ، 1975)، 14 ؛ وأيضا: زكرياء عبد

بالاختيار[1] دعيت الأمة إلى البيعة، فهي إذن إظهار الناس الرضا بالخليفة/ الأمير والخضوع له، وهي ليست انتخابا، ولا تعويضا أو توكيلا بالخلافة، وإنما الموافقة والتسليم به، وإذا كان لها معنى من معاني الانتخاب فإنه لا يظهر إلا في الحالة السلبية وذلك في الحالتين:

الأولى: عندما ترفض الأمة البيعة على الطاعة، فيكون ذلك بمنزلة حجب الثقة في عصرنا .

الثانية : في حالة تنافس بين مرشحين فأكثر على الخلافة، أو مدعين لها[2]

انطلاقا من هذا التعرف وفي سياقه، ومن الطريقة التي اختير بها الأمير عبد القادر، والظروف التي بيوع فيها في 3 رجب 28/1248 نوفمبر1832 نطرح الأسئلة الآتية التي ستكون محاولة الإجابة عنها إشكالية لدراسة موضوع بيعة الأمير عبد القادر في مسار تاريخ المغرب لإسلامي.

المنعم إبراهيم الخطيب، نظام الشورى في الإسلام ، ونظم الديمقراطية المعاصرة ،(القاهرة: مطبعة السعادة، 1985/1405)، 16 وما بعدها .

1 – الاختيار : هو أن يجتمع عدد من أصحاب الرأي (أهل الاختيار أو الحل والعقد)، ويدرسون أحوال الرجال ويختار واحد منهم يكون أصلحهم ، ويعرضون عليه الإمارة فإن قبلها بايعوه ودعوا الناس إلى مبايعته انظر : الماوردي : الأحكام : 6؛ منير العجالني : المرجع السابق، 89..

2 – منير العجلاني : المرجع نفسه، 107.

1-هل طبق ركن البيعة – وهو من أركان وقواعد نظام الخلافة الإسلامي- وكيف طبق في بلاد المغرب الإسلامي التي شهدت تقلبات في الأنظمة السياسية منذ الفتح الإسلامي، وحتى تاريخ بيعة الأمير عبد القادر؟

2-كيف كان تصور أهل بلاد العرب الإسلامي للبيعة في ظل الأنظمة المختلفة،والعصبية القبلية؟

3-هل تدخل بيعة الأمير عبد القادر في هذا التصور العام، أم هي تجديد وإحياء لبيعة الرضوان[1]

4-هل إشارة والده محي الدين، أو اختياره للأمير يمكن إحلالها محل أهل الحل والعقد ؟

5- كيف يمكن النظر إلى رأي العامة فيما يخص البيعة في تلك الظروف الصعبة والخطيرة ؟

6- عندما أخذ الأمير البيعة من الخاصة والعامة، وتلقب بالأمير هل كان في ذهنه، وتصوره أنه يعدل الخليفة دينيا وسياسيا، ولاسيما أن

---

1 - بيعة الرضوان (الحديبية): تمت هذه البيعة لرسول الله ρ تحت شجرة سمراء في الحديبية ، وشارك فيها تقريبا 1400 مبايع ، وذلك في السنة 6 هـ ، وقال فيها تعالى :" لقد رضي اللهُ عن المومنين إذْ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ،اثابهم فتحا قريبا " الفتح، 18. انظر: ابن هشام ، السيرة، تحقيق مجموعة من الأساتذة، (بيروت : دار إحياء التراث العربي)، 330/3 ؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ، 274/16 .

الخلافة العثمانية الإسلامية الواحدة مازالت قائمة رغم أنها لم تعد قادرة على الدفاع عن المسلمين، أم أن الأمير عبد القادر كان يدور في خلده كل هذا، وأنه أيقن بأن تطبيق أسلوب جديد في الحكم بات حقيقة أملتها ظروف تطور العصر، وخطر الغزو المباشر، والفراغ السياسي، فتبنى مفهوم الإمارة (الخلافة) دون أن يلغي المفهوم العام والأعلى و الأشمل لها ؟

إن الباحث في تاريخ المغرب الإسلامي عموما، وفي تاريخ أنظمة الحكم، وتطبيق قواعد الخلافة خصوصا لا يجد ما يستعين به لتوضيح هذا الموضوع من مادة وثائقية صحيحة ودقيقة، ويصبح مضطرا إلى التعويل على منهج المقارنة، والاستنتاج وهذا المنهج ومهما بلغت دقة التحري فيه، فإن النقص، والغموض يبقى يعتريه.

ومن قواعد الحكم في نظام الحكم الإسلامي (الخلافة)، نظام البيعة، والذي لا نجد له مادة علمية /معرفية تجليه وتقدم له، ويمكن تعميم ذلك على النظم السياسية ماعدا تلك التي ورد أغلبها عرضا في كتب التاريخ، وتراجم والطبقات، والنوازل، ولعل كتاب مثل " أدب القاضي والقضاء" لابن المهلب هيثم بن سليمان الأندلسي (ت 275 هـ-

888 م)[1] هو واحد من هذه الفلتات رغم أنه لا يتناول مباشرة القضايا السياسية، وقضايا الحكم.

ومن هنا يصعب تكوين صورة واضحة عن تطبيق هذه القواعد في مختلف الأنظمة التي شهدتها بلاد المغرب الإسلامي، ولاسيما عن البيعة بالذات في مسار التاريخ المغربي منذ الفتح الإسلامي، وبعد ذلك في اعتقادي للأسباب الآتية :

أولا : أن المغرب الإسلامي ظل تابعا للخلافة الإسلامية في المدينة، ودمشق، وبغداد، ولو اسميا.

ثانيا : الدول المستقلة في بلاد المغرب لم يجرأ حكامها على ادعاء الخلافة، فكانت تعتبر نفسها تابعة بشكل أو بأخر للخلافة الواحدة، وحتى الأمويين في الأندلس لم يجرأوا على إعلانها[2] إلا بعد أن دب الضعف في الخلافة العباسية، والتحدي الاسماعيلي الشيعي بعد قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب سنة 397/ 1006 م ومن المعلوم أن الإسماعيليين يختلفون في نظرتهم لفلسفة الحكم في الإسلام، فهو موقوف عندهم على الأمة من أهل البيت.

---

1 - الكتاب نشر محققا من د/ فرحات الدشراوي . (طبع تونس : الشركة التونسية للنشر، 1970).

2 - تم إعلان الخلافة في الأندلس سنة 928/316 على عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله . انظر، ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (ط، 3 ، بيروت: دار الثقافة ، 1983) ، 156/2.

ويطرح هنا سؤال مهم هل كانت الخلافة في دمشق، وبغداد تؤخذ البيعة من المغاربة، وبأي شكل؟

لا يبدو واضحا كيفية تطبيق ركن البيعة في بلاد المغرب، وما يمكن تلمسه أن البيعة إن كانت تؤخذ من بلاد المغرب عند اختيار ولي العهد من قبل الأمويين أو العباسيين كانت محدودة ربما في الولاة وحاشيتهم، وحتى التجارب الإباضية الرستمية، ودولة الفقهاء المرابطية التي لم ترق إلى مستوى الخلافة بمفهومها النظري، والتنظيري بفعل عاملين هامين :

الأول : احترام الخلافة الواحدة، أو الخوف من عدم احترامها، وعواقبه الدينية والسياسية والاجتماعية في الوقت ذاته.

الثاني : ضعف التنظيم لديها.

وهو الشيء الذي جعل ركن البيعة لا يعطى له أهميته الخاصة، إضافة إلى سيادة العصبية القبلية التي كثيرا ما تقرر لون الحكم ومصيره دون أن تعير اهتماما لرأي العامة، وأحيانا حتى الخاصة. وإن كان أمر تطبيق هذا الركن في بلاد المغرب من قبل الخلافة الأموية في دمشق والعباسية في بغداد، ومن قبل الدول التي قامت في بلاد المغرب الإسلامي تبقى بالنسبة لي غامضة ومبهمة، وتحتاج إلى بحث معمق ودقيق مؤصل. ولذلك لم يكن تصور المغاربة لركن البيعة واضحا ولا دقيقا.

ويجب التنبيه هنا إلى أن الأسس التي حكمت بلاد المغرب بعد فترة الولاة[1]، فإنها ورغم دعوتها إلى نظام شوري عادل فقد انتهت جميعها تقريبا بعد نجاح دعوتها، ووصولها إلى الحكم، إلى إقامة نظام حكم وراثي، وأحيانا ذا طابع مستبد تشده العصبية القبلية، وتبسطه العقيدة، والمذهب الفقهي، لاسيما وأن الفقه كقانون منظم للدولة والمجتمع طبع الحضارة الإسلامية حتى سميت عند البعض بحضارة فقه [2].

وقراءتي السريعة حول هذا الموضوع في تاريخ المغرب انتهت بي إلى القول بأن نموذج بيعة الأمير عبد القادر فريد من نوعه، ولا يناظره بشكل نسبي تقريبي إلا نموذج مبايعة المهدي بن تومرت، وبذلك فهما يعدان علامتان مميزتان في مسار تاريخ المغرب الإسلامي.

وقد جاءت تجربة المهدي بن تومرت في بداية القرن السادس الهجري الموافق للقرن 12 م كمواجهة فكرية عقدية لسلطة الفقهاء التي كانت سائدة في العهد المرابطي، وأدت إلى التمسك الشديد بالفروع عند المرابطين رغم مالكيتهم، وإلى الإفراط في التقليد، والانصراف عن الاجتهاد يفسر ذلك العداء المستفحل ضد الفلسفة، فكان الإقدام على

1- عصر الولاة يمتد من الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وحتى قيام الدولة الأغلبية سنة 184هـ

2 - الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، (ط، 2 ، بيروت: دار الطليعة، 1985)، 96.

إحراق كتبها مثلما حدث لأحياء علوم الدين للغزالي[1]، وعليه يمكن اعتبار حركة المهدي / الموحدين بحق حركة تجديدية، بل ثورة مستمدة أصولها من السلف الصالح.

واعتقد أن حركة الأمير عبد القادر إن جاز هذا التعبير كانت تهدف إلى الدفع بحركة التصوف ميسم عصره في الاتجاه التحديدي انطلاقا من الواقع المتدهور للعالم الإسلامي، والذي تمثله الخلافة الإسلامية العثمانية، واستجابة لتحدي العصر الذي عمه التحديد والتطور في كافة المناحي في أوربا مستمدة أصولها هي الأخرى من السالف الصالح.

وقد سبق لحركة التصوف في بلاد الغرب أن نهضت بأعباء مقاومة الغزاة البرتغاليين لسواحل المغرب الأقصى عندما ضعفت دولة المرينيين، وأستغلها الوطاسيون في هذه المواجهة، وقد مثلت هذه الحركة الزاويتان القادرية والجزولية[2].

---

1 - انظر في شأن هذه المسألة : ابن القطان المراكشي، نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي ر 1990)، 70، عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزت (القاهرة : دار الفرجاني للنشر والتوزيع : 1994)، 155.

2 - حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، (بيروت: العصر الحديث للنشر والتوزيع، 1990/1412) ، 82/3.

وتتجلى حركة الأحياء في بيعة المهدي بن تومرت، والأمير عبد القادر بالاقتداء بأعمال الرسول ﷺ، فقد تمت البيعتان تحت الشجرة تيمنا ببيعة الرضوان وبعثا لروحها، ومعانيها، وذلك بعد إعداد جيد لهما، فالمهدي بن تومرت اختاره أصحابه العشرة الذين بايعوه سنة 515هـ/1212م في بيعة خاصة، ثم عرضت المبايعة على عامة القبائل[1] وهذا بعد أن قاد الدعوة لعدة سنوات وأبلى البلاء الحسن فيها، وفي التخطيط لإسقاط المرابطين، أما الأمير عبد القادر فقد بويع بعد إشارة والده إليه، وارتضائه من أهل الحل والعقد، وبعد أن أبلى البلاء الحسن في قيادة بعض العمليات ضد العدو الغازي[2] وشجاعته في المعارك، وسداد آرائه، والتي أسهمت في تهيئة أجواء تلك البيعة.

ويبدو أن بيعة المهدي بن تومرت، والأمير عبد القادر قد أحيت تلك القواعد في اختيار الحاكم لاسيما على عهد الخلفاء الراشدين، ويمكن القول بمفهوم عصرنا أن بيعة الأمير عبد القادر استمدت شرعيتها

---

1 - لقد قام أصحابه العشرة بعد فراغه من خطاب له إنجليز واختاروه أميرا لهم وبايعوه وهم في اعتقادي أهل الحل والعقد. انظر ابن القطان المراكشي، نظم الجمان، 125 ؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب 161.

2 - شارل هنري تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، طباعة كل من الدار التونسية للنشر، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1974، 55.

من إرادة الشعب[1]، كما استمدت بيعة المهدي بن تومرت نفس الشرعية من الشعب، وذلك أن صورة الديمقراطية كما يقول السنهوري لا يمكن أن تكون أبلغ مما قرره الإسلام من أن إرادة الأمة هي التي تعبر عن إرادة الله، وأن التشريع يكون بإجماع صادر عن إرادة الأمة فلها وحدها دون حكامها حق التعبير عن الإرادة الأهية بعد القرآن والسنة النبوية[2]، فقد حرص المهدي وهو يستعد للمواجهة المباشرة مع المرابطين أن تكون مبايعته من ممثلي القبائل المصامدة، كما حرص الأمير أن تكون مبايعته من قبائل الجهة يتجلى ذلك في نص عقد البيعة[3]؛ فقد أكدت البيعتان على أن الأمة هي مصدر تلك السلطات والرقيبة على مباشرتها، وهو ما يقصد بالقول بأن السيادة للأمة ذلك أن إرادة الأمة مستمدة من إرادة الله، ولأن السيادة بمعنى السلطة المطلقة هي لله وحده[4]

---

1 – يحي بوعزيز : الأمير عبد القادر ، رائد الكفاح الجزائري، (تونس / الجزائر: الدار العربية للكتاب، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1983)، 47.

2 – السنهوري عبد الرزاق أحمد ، **فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية**، تحقيق توفيق محمد الشاوي، ونادية عبد الرزاق السنهوري،(بيروت: مؤسسة الرسالة 2001/1422)، 67 .

3 – نفسه ، 49.

4 ــ السنهوري ، فقه الخلافة، 68 .

ولعل ذلك يذكرنا في وثيقة المدنية (الدستور) التي وضعها الرسولρ، وحرصه على أن يسمي فيها القبائل بأسمائها[1]، فالمبايعة، وهي عقد اجتماعي سياسي يتضمن واجبات وحقوق الطرفين الحاكم والمحكومين أساس نجاح أي حركة سياسية تجديدية خاصة إذا كانت في ظروف تحدي كبرى كتحدي الغزو الفرنسي للجزائر.

حيث كان لابد من تجديد في النظام، والوسائل، والطرق أي أحداث حركة تغيير عميقة في كافة مناحي الحياة لأن نوع التحدي في عصره يتطلب ذلك، وبذلك فإنني أعد مبايعة الأمير عبد القادر هي مبايعة لحركة جديدة تجديدية، وعلامة كبرى في مسار تاريخ الجزائر والمغرب الإسلامي.

ويبدو أن الظروف التي كانت تمر بها الحركتان المهدوية، وحركة المقاومة في غياب سلطة قوية موحدة تنظم وتقود هي التي حلت محل أهل الحل والعقد في اختيار الرجلين فعليا لا شكليا، فهذه الظروف لم

---

1 ــ لقد بايعت المهدي بن تومرت القبائل ممثلة في زعمائها كهرغة، وهنتاتة، وجدميوه، وهسكورة، وحنفيسة، وغيرها ، كما بايعت الأمير عبد القادر قبائل الجهة والتي ذكر بعضها في نص البيعة الثانية منها أهل معسكر، وغريس الشرقي والغربي، وبني شقران، وبني عباس. انظر: ابن القطان، نظم الجمان،124؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب، 161؛ مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار، وعبد القادر زمامة ، (بيروت: دار الرشاد الحديثة، 1979/1399)، 109. يحي بو عزيز، المرجع السابق، 47 ؛ شارل هنري تشرشل، المرجع السابق، 59.

تكن عادية، ولا وجود لنظام قائم وقوي يضبط المجتمع ويسيره، وقد يكون مثل هذا الأسلوب تطور في قواعد الخلافة الإسلامية حسب مقتضيات الحال، ومنها قاعدة الاختيار أو ما يسمى اليوم بالدمقراطية، مع التحفظ في المقارنة. لو أنهما كتب لهما الاستمرار.

فقد انتهت بيعة المهدي وتجربته إلى ملك وراثي في أبناء خليفة عبد المؤمن بن علي، ورغم أن المهدي لم يختر أحدا من أقاربه، ولا من قبيلته حيث أن عبد المؤمن كان كوميا زناتيا في حين كان المهدي مصموديا من هرغة، وهي الميزة البارزة في النظام السياسي الذي أراد المهدي إرساء دعائمه، خلال تفعل بيعته وتجسيدها ميدانيا، وهي خطوة إلى الأمام يجب أن الاعتناء بدراستها لاسيما ونحن نعمل على تأصيل تاريخنا، وتحديد حركاتنا السياسية.

ولم تكتمل خطوة الأمير عبد القادر في تركيز نظام سياسي حديث يكون فيه الولاء للجماعة، والدولة بدل القبيلة لأن المرحلة مرحلة حرب ومقاومة، وإحداث التغيير فيها غير ممكن إلا ما كان يخدم مجهود الحرب، ولم تستمر تجربة الأمير عبد القادر لمصادرتها من طرف العدو.

ومن نتائج البيعتين ــ لأن العبرة من ذلك تكمن فيما تمخض عنها ــ هو تنظيم الدولة على أسس جديدة ومتطورة اعتقد لو أنهما تواصلتا لكان مسار التاريخ في بلاد الغرب الإسلامي، وفي الجزائر قد تغير كثيرا، لكن الحدث التاريخي يبقى حدثا لا يمكن تغييره.

فالدول أو الإمارات التي قامت في بلاد الغرب منذ نهاية عصر الولاة، ولم تشهد تنظيما بارزا تميز عن نظيره، وسابقيه مثل الذي قام في عهد المهدي بن تومرت، والأمير عبد القادر.

فالتنظيم السياسي والإداري الذي أحدثه المهدي غداة مبايعته من خلال تقسيم اتباعه، وإنشاء مؤسسات دولة ترقى إلى مستوى مؤسسات الدولة الحديثة لا سيما في محاولة المهدي إيجاد نوع من التوازن بين هذه المؤسسات[1]، فلا تكون فيه الغلبة لمؤسسة على أخرى سواء كانت سياسية أو عسكرية، كما نظمت العلاقة بين السلطة المركزية، والسلطات اللامركزية، وهو ما يظهر في الدولة الحفصية وريثة الموحدين التي أصبح فيها الولاء للدولة، وليس للقبيلة، والتي قال عنها بعض الباحثين: أنها ترقى إلى مستوى الأنظمة الحديثة ذات الطابع الوطني أو القومي[2] وهو الشيء الذي يبدو واضحا في دولة الأمير عبد القادر بداية من شكل وطبيعة بيعته، فهل كان انطلاقه من حيث انتهت التجربة الموحدية وريثتها الحفصية؟ أم أن الأمير عبد القادر استلهم أبعاد هذه التجربة، وأضاف إليها تطورات عصره خاصة في أوربا؟ وهل تعد أعماله

---

1 – أقام المهدي بن تومرت مؤسسات شورية مثل مجلس الخمسين، ومؤسسة تنفيذية (حكومة) كمجلس العشرة، ومجالس أخرى على أساس علمي أو قبلي ، وهذه المجالس لها صلاحياتها لا تتعداها إلى غيرها . انظر: ابن القطان ، نظم الجمان، 82 ؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب ، 162 ؛ الحلل الموشية، 109 .

2 –حسين مؤنس، المرجع السابق، 288/2.

هذه حركة إصلاحية تجديدية على غرار ما حدث، وسيحدث في كل من الخلافة العثمانية، ومصر؟ تلك أسئلة هامة البحث فيها، والإجابة عنها تحدد مكانة بيعة الأمير عبد القادر لا في مسار تاريخ المغرب الإسلامي فحسب، بل في مسار التاريخ الإسلامي خصوصا، والعالمي عموما، فالأمير عبد القادر لم يكن مشروع مقاومة كما يظهر للبعض ولكنه كان مشروعا مجتمعيا حضاريا متجددا، وقد يكون الأمير عبد القادر في عصره فلتة من فلتات التاريخ المغربي والإسلامي كما كان ابن خلدون فلتة في نفس هذا التاريخ وفي ظل امتداد حركة الموحدين.

إن هذه الدراسة المركزة لا تعدو أن تكون وجهة نظر من خلال قراءة سريعة في بعض محطات تاريخ المغرب الإسلامي، وفي أبعاد بيعة الأمير عبد القادر التي لم أتناولها من ناحية شكلها، ولكن من ناحية بعدها في الزمان والمكان، حيث أنها تأتي في سياق التنظيم السياسي والاجتماعي العام للعالم الإسلامي، وقد تحولت البيعة إلى تجربة نادرة ومتميزة في هذا المسار علينا دراستها بعمق وتفحص حتى نعيد ربط كل الجسور التي نعبر عليها من الماضي إلى المستقبل بقوة وثبات.

منـــــاقشة

تعقيب السيد حموش حكيم

بسم الله وكفى وصلاة وسلاما على رسوله المصطفى وبعد؛

نتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم في تنظيم هذه الندوة. وإلى الأساتذة المتدخلين. كما هو معلوم أن الموضوع يدور حول مبايعة الأمير عبد القادر، وهذا العنوان يقتضي منا دراسة تفصيلية لقضية المبايعة في الإسلام وما مدى شرعية بيعة الأمير عبد القادر هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجب دراسة هذه الشخصية دراسة تفصيلية لأن معرفة شخصية الأمير من شأنه أن يسهل علينا تقييم هذه المبايعة. من حيث النشأة والهدف والغاية. وهل حققت هذه المبايعة ما كانت تصبو إليه؟

من خلال تدخلات الأساتذة الكرام تبين أن إجماعا على شرعية مبايعة الأمير عبد القادر، إلا أن الذي لفت انتباهي هو قضية تحميل المسؤولية للأمير عبد القادر والحاج أحمد باي في ضياع الدولة الجزائرية، وذلك لأنهما لم يتعاونا و لم يتحدا.

أقول إن سياسة تحميل المسؤولية للغير صارت ذهنية متفشية في الشعوب الإسلامية بصفة عامة، وفي المجتمع الجزائري بصفة خاصة. فموضوع التعاون بين الشخصين كانت تحيط به عدة عراقيل فالمطلوب من الذي حملهما المسؤولية أن يرجع إلى تلك الفترة فينظر بكل موضوعية إلى الأسباب التي حالت دون تعاون الشخصين. أي أن الموضوع يحتاج إلى دراسة.

تعقيب الأستاذ مصطفى وينتن

أود تقديم تعقيب في ثلاث نقاط :

الأولى : إن في قول الدكتور المحاضر إسماعيل سامعي: إن احترام الدول التي قامت في المغرب للخلافة المركزية (العباسية)، هو الذي منعها من الظهور بلقب الخليفة والأمير.

أرى في هذا القول توسعا من المحاضر، لأن هذه الدول أصلا كانت مناوئة للخلافة العباسية التي كانت لها مع هذه الدول خلافات ومنها الدولة الرستمية.

النقطة الثانية : إن استنتاج الأستاذين المحاضرين عزيز حداد و بوبكر كافي بأن البيعة الشرعية الراشدية في المغرب تمثلت في بيعة المهدي بن تومرت والأمير عبد القادر.

ربما كان من الإنصاف للتاريخ أن تضاف إليها بيعة عبد الرحمان بن رستم، لأنه إذا كان المقاس هو استمداد البيعة من الشعب وإرادته فإن عبد الرحمان بن رستم كان وحيدا مع ابنه وخادم جاءا من القيروان ثم ولاهما الناس الإمارة في تيهرت لما قدم إليها.

النقطة الثالثة : إذا كانت البيعتان؛ الرستمية وبيعة ابن تومرت قد انتهت إلى الوراثة فإن تجربة الأمير عبد القادر أيضا كان يمكن أن تنتهي أيضا إلى وراثة ولنا في شخصية الأمير خالد إرهاصا لهذا التوجه. وشكرا

ج. النقطة الأولى:

أنا قلت لم يجرأ أحد من هؤلاء أن يعلن نفسه خليفة و لم أقل إن الرستميين مثلا لم يكونوا مخالفين للعباسيين بحكم أنهم في عداد الخوارج.

ج. النقطة الثانية والثالثة:

من حيث الشكل نعم، لكن الاختلاف يكمن فيما تمخض عن البيعتين فالمهدي بن تومرت لم يول أحدا من أقاربه ولا حتى من قبيلته، والأمير عبد القادر تجربته لم تستمر ولذلك لا يمكن الحكم عليها في هذا المجال إلا فيما قدمه من جهود في المقاومة، وبناء الدولة.

ج- أنا قلت وأكرر إن المهدي لم يجعل حكمه وراثيا فقد عين أو اختار عبد المؤمن بن علي خليفة له بالمبايعة وهو لا من أفراد عائلته ولا من قبيلته، أما بعد عبد المؤمن فقد تحول الحكم إلى وراثة، وذلك موضوع آخر لا يدخل فيما قدمت.

ج- البيعة كركن أساسي في نظام الحكم الإسلامي ظل محترما ولكن في تطبيقاته أشكالا ناتجة عن اجتهادات، وظروف وأهواء، وحقيقة أن في العهد الأموي ظلت البيعة تؤخذ لولي العهد لكن بعد يختار ولي العهد وهو في الغالب من عائلة نفس الخليفة، ويجبر الناس بطرق مختلفة على المبايعة.

تعقيب الأستاذة قاسي فريدة

أهم ملاحظاتي تكون حول محاضرة الأستاذ بوعزيز: في تحميل المسؤولية للرجلين في ضياع الدولة الجزائرية.

أقول إن الأمير عبد القادر لا يستطيع أن يتنازل فهو بويع بيعة شرعية، وحدود دولته سنة 1836-1837 تفرض على الحاج أحمد باي أن ينطوي تحت لواء الأمير عبد القادر.

- محاضرة الأستاذ الدكتور إسماعيل سامعي : تحفظ على المصطلحات حركة الأمير؟ أمير مقاومة؟

الأمير لم يقم بحركة وإنما أسس دولة على المستوى التطبيقي و لم ينظر لها، لم يناهض سلطة من قبله، كما فعل المهدي بن تومرت الذي ناهض المرابطين.

ثم إن الأمير وتكوينه الديني والعلمي جعله يتأثر بالنبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح و لم يرد أبدا تأثره بالمهدي، بل تأثر من الناحية المدنية والحضارية بمحمد علي حاكم مصر.

- الأمير بويع على الجهاد والقيادة (ولهذا أسس دولة).

تعقيب الأستاذ حسان موهوبي

نشكر السادة المتدخلين، ولكن أرى أنه لكي يتضح موضوع الندوة بجلاء في أبعاده الشرعية التأصيلية والسياسية دون غموض أو لبس، لا بد من ضبط المصطلح الخاص بالبيعة والمبايعة ودراستها في ضوء : البيعة كأصل شرعي إسلامي. المبايعة كنمط وأسلوب اجتهادي في الإسلام.

ولعل المحاضرات اللاحقة تجلي الموضوع وشكرا.

تعقيب الأستاذ محمد جعيجع

تعقيب وطرح تساؤل على الأستاذ والدكتور يحيى بوعزيز

لقد واجهت بيعة الأمير عبد القادر أصنافا من المعارضة وضيقا من الامتعاض، كالمعارضة التي قادها سيدي العربي وهو قائد قوي، وكان له تأثير قوي مطلق على قبيلة فليتة في سهل الشلف.

كما واجهت بيعة الأمير عبد القادر رفض قائد بني أنجاد (الغماري)، كما أن محمدا بن نونة أبدى امتعاضا ورفضا لبيعة الأمير عبد القادر، إذ كان يشعر بأهليته لأنه يعتبر نفسه حاكما لإقليم تلمسان باسم السلطان المغربي.

كما نجد مصطفى بن إسماعيل وكان ذا تجربة قوية في الحرب وفي خدمة النظام العثماني (التركي) لأنه كان قائما على المخزن، أيضا أبدى نوعا من الرفض وتقززه من تقبيل يد ولد ما يزال أمرد، حسب تعبيره.

ويمكننا أن نتساءل هل فعلا كانت بيعة الأمير عبد القادر تحظى بإجماع شرائح وطبقات المجتمع على الأقل بمنطقة معسكر وتلمسان، أم أن الدعم الجماهيري والشعبي كان ينحصر في الطوائف الدينية الصوفية، وحتى

طريقة البيعة توحي بذلك، فبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده لا تتم بتقبيل الأيدي وإنما هذه عادة صوفية طرفية وكيف تعامل الأمير عبد القادر بعد بيعته مع صنوف المعارضة التي واجهها؟

أ.د. عبد الله بوخلخال رئيس جامعة الأمير عبد القادر

بسم الله الرحمان الرحيم

أشكر جميع الأساتذة المتدخلين، وأسمح لنفسي أن أتساءل عن الوضعية الاجتماعية والسياسية ووضعية الدولة الجزائرية قبيل الاحتلال، مما جعلها لقمة سهلة أمام الغزاة.

إن الأمير عبد القادر مقاوم وبطل وطني والحاج أحمد باي رجل دولة ومقاوم وبطل وطني ولكنهما ارتكبا في رأيي خطأ استراتيجيا، في عدم التنسيق بينهما في مواجهة الغزو الأوروبي، يبدو لي أنهما لو نسقا جهودهما في مواجهة الغزو لما احتلت الجزائر.

والتاريخ قد يعيد نفسه بصور مشابهة في أيامنا هذه، ولا بد من استقراء التاريخ وأحداثه لأخذها بعين الاعتبار، أرجو من الحضور التعمق في هذه المسائل.

أ. حليمة أحمدان

سؤالي للدكتور يحيى بوعزيز :

أشرتم -أستاذي الفاضل- بالقول: إن كلا من الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي مسؤول عن ضياع الجزائر، وسؤالي هو :

في رأيكم لم لم يوحد (كل منهما) جهودهما من أجل رد الاستعمار الفرنسي؟ وهل يمكن أخذ الاعتبارات الآتية في معرفة الأسباب:

-الأمير عبد القادر (كرغلي) جزائري في حين أن الحاج أحمد باي كرغلي.

-الأمير ينتمي إلى طريقة معينة.

-الأمير ممثل للريف، والحاج أحمد باي ممثل للمدينة.

وشكرا.

الأستاذ أبوبكر كافي

1- بيعة الأمير عبد القادر تعد بيعة شرعية وبيعة أحمد باي أيضا بيعة شرعية لأن الفقهاء بررت جواز عقد بيعة إمامين في قطرين. ومن ثم لم يدع واحدا منهما الآخر للمبايعة والدخول تحت إمرته وسلطانه.

2- المقارنة بين بيعة الأمير عبد القادر والمهدي بن تومرت فيه شيء من التعسف وذلك لأمور :

1- بيعة المهدي كانت نابعة عن فكرة المهدية والدعوة إليها والتبشير بها بينما لم تكن بيعة الأمير عبد القادر كذلك.

2- الاستعانة بالقبائل جاء تبعا و لم يكن سببه الاستعانة بها لتقوية الصف.

3- أسباب البيعة الاستقلال عن الدولة والخروج عنها عند المهدي بن تومرت بينما كانت إعادة لبناء الدولة وتشكيلها من جديد على يد الأمير عبد القادر.

تعقيب من طالب بالدراسات العليا:

لي تعقيب على محاضرة الدكتور يحيى بوعزيز

أعتقد أن تحميل المسؤولية للأمير عبد القادر والحاج أحمد باي ليس بالأمر السهل. وإنما يحتاج إلى دراسة موضوعية. لماذا؟ لأن الدارس لتلك الفترة يجد أسباب التفريق أكثر من أسباب التعاون والتجمع وعلى رأس هذه العوائق الاستدمار الفرنسي وذلك انه كان يفصل بين المقاومتين أو المنطقتين. (الغرب) و(الشرق) أي أنه كان في الوسط. أضف إلى ذلك الفرق بين الشخصيتين من حيث التوجه الديني وحتى الدنيوي.

تعقيب من طالب بالدراسات العليا:

ذكر الأستاذ الدكتور يحيى بوعزيز أن الأمير عبد القادر وأحمد باي مسؤولان عن ضياع الجزائر. كيف تحملهما مسؤولية ضياع الجزائر وقد كانا مشعلين في مسار تاريخ الجزائر لما حققاه من إنجازات وانتصارات يشهد لها التاريخ لحد الآن وأبسط هذه الإنجازات التغلب على الاستدمار الأوروبي.

إذن لا يمكن تحميلهما مسؤولية الضياع حسب رأيي لأن الجزائر بعدهما حكمها أجيال وأجيال.

أسئلة متفرقة

1- هل عدم تعاون الأمير عبد القادر مع الحاج أحمد باي عيب يقضي على جميع محاسنه وتاريخه الوضاء؟ حتى نعده مسؤولا مع أحمد باي على احتلال الجزائر؟ كما قال الأستاذ المحترم : يحيى بوعزيز.

2- لم لم يجتمع الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي؟

3- سؤالي حول المحاضرة الأولى (مقارنة بين مبايعة الأمير عبد القادر وولاية الحاج احمد باي). نص السؤال: لقد ذكرتم بأن الحاج أحمد باي ورث السلطة من الحكومة التركية المطرودة فهل يعني هذا أن الحاج أحمد باي فرض نفسه على الناس في ذلك الوقت أم أنه خضع لشروط المبايعة التي ذكرت في محاضرة الأستاذ عزيز حداد.

4 - بعد سماعنا للأساتذة المحاضرين وما أثروا به هذه الندوة –مبايعة الأمير عبد القادر– يتجلى لي أن أطرح هذا السؤال لازالت بعض الغموض والإبهام لقد قال الدكتور يحيى بوعزيز أن التاريخ يلوم كل من الشيخين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي، وأنهما مسؤولان عن ضياع الجزائر. أكانت بيعتهما هذه نابعة عن قصد منهما أريد من ورائها الولاية والخلافة فقط. أم عن اجتهاد قصد من ورائه استقلال الجزائر.

الجلسة الثانية

الدكتور بوبكر كافي:

مبايعة الأمير عبد القادر، قراءة فقهية

الدكتور كمال لدرع:

مبايعة الأمير عبد القادر، قراءة شرعية تأصيلية

فرادي الدوادي:

التأصيل الشرعي للبيعة

الأستاذ ناصر لوحيشي:

الحركية اللغوية في نص مبايعتي الأمير عبد القادر الأولى والثانية

الدكتور اسعيد عليوان:

الجزائر تسلم القادرية راية الجهاد بمبايعة عبد القادر أميرا

***

مناقشة

مبايعة الأمير عبد القادر
قـــراءة فقهية

الأستاذ بوبكر كافي*

إن الحديث عن الأمير عبد القادر الجزائري، حديث ذو شجون، فهو حديث عن الجهاد والحرب، وهو حديث عن العلم والفقه، والشعر والأدب. وهو حديث عن الحنكة السياسية والدبلوماسية المتميزة. وهو حديث عن الفلسفة والعقل، والسلوك والتصوف، فكل هذه الجوانب المتعددة تضمها شخصية واحدة، تلكم هي شخصية الأمير عبد القادر الجزائري.

والبحوث والدراسات حول الأمير عبد القادر كثيرة ومتعددة، وتكاد تتفق حل هذه البحوث التي تناولت الأمير عبد القادر على أنه القائد العسكري النادر. خاصة لما ركزت هذه الدراسات على تاريخ جهاده ضد فرنسا، وقومت مناحي نجاحه أو إخفاقه في ذلك. وتكاد تغفل بقية الجوانب المتميزة في شخصية هذا القائد الفذ، كالأمير عبد القادر الأديب والشاعر، والأمير عبد القادر الفيلسوف والمفكر، والأمير عبد القادر العالم الفقيه، والأمير عبد القادر المتصوف المربي، وغيرها من الجوانب المغمورة والصفات المطوية من سيرة هذا الرجل وشخصيته. وكل هذه الجوانب هي مجال خصب للبحوث والدراسات الأكاديمية، كل حسب تخصصه. وما هذه الندوة إلا نموذج لتجسيد هذه الفكرة. فالبحث في تاريخ الأمير عبد

---

*- أستاذ بكلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة

القادر ليس حكرا على المؤرخين فحسب، بل إن تاريخ الأمير عبد القادر وفكره ميراثا مشتركا لكل الجزائريين، بل لكل العرب والمسلمين.

وتأتي هذه المداخلة في هذا السياق لتبرز الجانب الفقهي في مبايعة الأمير عبد القادر، وليس المراد هنا من القراءة الفقهية الجانب النظري الذي يتناول النصوص التي تقعّد وتنظم شروط البيعة عند فقهاء السياسة الشرعية. وإنما المراد بها الممارسة العلمية التطبيقية على أيدي العلماء والفقهاء في ذلك الوقت.

إن حدث مبايعة الأمير عبد القادر الذي تم يوم الثالث من رجب 1248ه الموافق لـ 27نوفمبر 1832م يحمل دلالات كثيرة منها:

- وعي علماء الجزائر وفقهائها عموما. وفقهاء غريس إذ كانوا يدركون خطورة الوضع الذي آلت إليه البلاد بعد دخول الاحتلال الفرنسي فلم يكن هؤلاء العلماء بمعزل عن واقعهم وقضايا أمتهم. ومن هذا المنطلق أخذوا زمام المبادرة لعلاج الموقف والقيام بواجبهم الرسالي الذي يفرضه عليهم واجب التبليغ والميثاق المأخوذ على العلماء: "وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينه للناس ولا تكتمونه"[1] [آل عمران: من آية 187] فتحرك هؤلاء العلماء لنصب إمام يتم به جهاد العدو، وإعادة الحقوق إلى أهله. ورد المظالم إلى أصحابها. بعد أن عمت الفوضى ومظاهر السلب والنهب سائر القطر بسبب سقوط الدولة الجزائرية على يد الاحتلال الفرنسي.

وإن هذا الموقف الرسالي هو تطبيق لواجب العلم والفقه الذي كان يحمله العلماء، لأن فقهاء الإسلام نصوا على أنه إذا خلا منصب الإمامة

وجب على رجال الحل والعقد نصب إمام ينظم به حال الناس في دينهم ودنياهم[2] [أنظر: العياشي للجويني].

وفعلا تحرك هؤلاء العلماء وبحثوا في من هو أهل لتولى هذا النصب لتوفر الشروط الشرعية فيه بالإسلام والعدالة وسلامه الحواس والعلم. فوقع اختيارهم على الشيخ محي بن مصطفى بن المختار.

وهذا الاختيار في حد ذاته كان موقفا تتجلى فيه النزاهة والرغبة في اختيار الأكفأ ومن تتحقق فيه الشروط المطلوبة شرعا. وقد علل هؤلاء العلماء اختيارهم للشيخ محي الدين استنادا على أمور أهمها:

أولا: أنه محل اتفاق بين أهل الحل والعقد.

ثانيا: قال السيد محي الدين: فهو عدل فقيه ذو نسب شريف.

ثالثا: كثرة ما عند الشيخ محي الدين من الأعوان والأنصار، وذلك أن الشيخ محي الدين كان شيخ الطريقة الرحمانية وكان عنده مريدون كثيرون يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه، هذا ما يعبر عنه العلماء بالعصبية لأن الملك لابد له من عصبية تحميه وقد أشار إلى هذا العلامة ابن خلدون في المقدمة [3] [أنظر المقدمة: ص 139 ط، دار الرائد العربي- بيروت]. فهؤلاء الأعوان والأتباع سيكونون فيما بعد العصبية التي تدافع عن هذه الإمارة وتحميها.

هذا وبعدما اعتذر السيد محي الدين عن قبول البيعة لكبر سنه تم اختيارهم لابنه السيد عبد القادر بن محي الدين وذلك لأمور أهمها:

أولا: أنه مثل والده يحظى باتفاق أهل الحل والعقد.

ثانيا: أنه ذو حزم وعزم، وشجاعة، وعقل سليم، وذات سليمة صالحا لتنفيذ الأحكام.

ثالثا: أنه لم يسع للإمارة، ولا طلبها بنفسه، وإنما فرضت عليه فرضا. وهذا ما نجده في نص البيعة الأولى:

"... فما وجدوا من تتفق عليه كلمة أهل الحل والعقد، سوى السيد محي الدين بن مصطفى بن المختار لكماله، وكثرة ما عنده من الأعوان والأنصار فطلبوا منه: أن يبايعوه على السمع والطاعة، فاعتذر إليهم بتكبر سنه، وبعد زمن طويل تكرر فيه طلبهم مرات، ووقع إلحاحهم تارات، ورأى أن النظر في هذا الأمر قد تعين عليه".

وأتاه بعض علماء" غريس" وهو من الصالحين فقال له: إن أولياء الله تعالى قد اتفقوا على نصب ولدي عبد القادر لنصر دين الله. ورأى أن ولده مستعدا لهذا الأمر، فحينئذ وافقهم على نصبه لكونه: ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم، وذات سليمة، صالحا لتنفيذ الأحكام. فاجتمع أهل الحل والعقد، وبايعوه من غير طلب منه للإمارة، ولا متابعة للنفس الأمارة، بل بايعوه رغما عليه....

ولم يكتف علماء غريس باختيار الأمير عبد القادر للإمارة وترشيحه لها. بل تعدى الأمر إلى مبايعته فعلا في بيعة خاصة بأهل الحل والعقد وهم العلماء والفقهاء وشيوخ وزعماء القبائل. ثم باءت مصادقة هؤلاء العلماء على البيعة والشهادة عليها، ومن هؤلاء العلماء الذين شهدوا على البيعة:

1. العلامة أبو طالب على بن مصطفى بن المختار، عم الأمير شقيق والده.

2. العلامة السيد ابن عبد الله بن الشيخ المشرفي.

3. العلامة السيد أحمد بن التهامي.

ولاشك أن هذه الشهادات فيها تأكيد ودعم معنوي كبير للأمير عبد القادر ودليل على أن هذه البيعة بيعة شرعية صحيحة تامة كاملة.

ومن هنا أدرك الأمير عبد القادر، وهو العالم الفقيه والسياسي المحنك. أن للعلماء والفقهاء قوة تأثير ونفوذ لا يستهان بهما، وسعيا منه لتنظيم شؤون إمارته على وفق الكتاب والسنة عين مجلسا شوريا تشكل من إحدى عشر عضوا من كبار العلماء والفقهاء برئاسته قاضي القضاة السيد أحمد بن الهاشمي المراحي.

ولم يكتف الأمير بهذا بل قرب إليه العلماء والفقهاء وجعل معهم قضاةً ونوابا وخلفاء في المناطق.

كما كانت للأمير عبد القادر اتصالات ومراسلات بعدد من الشيوخ والعلماء للقيام بالجهاد العلمي، فتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن فكرة تأسيس زاوية الهامل قد أملاها الأمير عبد القادر على مؤسسها محمد بن أبي القاسم في لقاء جمع بينهما عام 1844 بصحراء لمعيدات، وتؤكد ذات المصادر أن الشيخ عبر عن رغبته في التطوع في جيش الأمير كجندي مقاتل لكن الأمير أوقفه عن عزمه ونصحه بوضع لواء الجهاد بالعلم والمعرفة، لأنها أشد خطرا من الجهاد بالنفس، وهذا لما لمسه الأمير عبد القادر في الشيخ محمد بن أبي القاسم من بين الشيوخ من فضل وصلاح. ولا يخفى الدور الذي قامت به زاوية الهامل في نشر الثقافة العربية الإسلامية والمحافظة على مقومات الشخصية الوطنية إبان الاحتلال

الفرنسي. وكان لهذه الزواية الدخل في تخريج دفعات من العلماء وطلاب العلم مثل الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي السالم المعروف صاحب المؤلفات الكثيرة. والشيخ عبد السلام التازي المدرس بالقرويين بالمغرب، والشيخ محمد مفتي الحنفية بالجزائر وغيرهم **[أنظر: التعليم القومي والشخصية الوطنية: للدكتور رابح تركي وتعريف الخلق برجال السلف لابن القاسم الحفناوي. ومعهم أعلام الجزائر]**.

هذا ولم تكتف علاقة الأمير عبد القادر بعلماء وفقهاء الجزائر فحسب بل تعدى ذلك إلى كبار العلماء والفقهاء في المغرب الأقصى يسألهم ويستفتيهم عما يواجه من مشكلات في مراحل جهاده المبارك. وكان من أبرز من راسلهم الأمير عبد القادر الإمام التسولي، فقد وجه إليه الأمير عبد القادر مجموعة من الأسئلة حول الجهاد وما يتعلق به وقد نشرت هذه الأسئلة وأجوبتها في كتاب بعنوان: أجوبة الإمام التسولي عن أسئلة الأمير عبد القادر>> [4][وقد حققت هذا الكتاب الأستاذة وداد الصيد كرسالة ماجستير، في جامعة الأمير عبد القادر].

- وهذه المراسلات والاستفتاءات لعلماء المغرب فيها جانب فقهي وهو الظاهر، وجانب سياسي إذ استطاع الأمير أن يكسب إلى صفه علماء المغرب مما كان له كبير الأثر في الضغط على سلطان المغرب، وحمله على مساعدة الأمير عبد القادر.

فهذه جوانب من مواقف العلماء في بيعة الأمير عبد القادر وجهاده. وهذا لا يعني أن كل علماء الجزائر كانوا على هذا المستوى الرفيع من القيام برسالة العلم والجهاد، بل نجد ثمة فقهاء آخرين سعوا إلى إضعاف

وزعزعة الصف بما ينشرونه من فتاوى التخاذل والاستسلام، ومن ذلك فتوى بعضهم بترك الجهاد ضد فرنسا لأن العدو إذا تغلب لم يجز جهاده وحرم لأن في ذلك إزهاقا للأنفس بغير مبرر شرعي، وقد وظفها الفرنسيون لصالحهم.

فقد أسهمت هذه الفتاوى في زعزعة ثقة بعض القبائل بالأمير عبد القادر وجهاده المبارك. لكنه تصدى لها بفتاوى علماء كبار من الجزائر والمغرب.

وبما أن الذين تولوا المبادرة في مبايعة الأمير عبد القادر هم العلماء والفقهاء فإننا نجد هذه البيعة تحلت فيها كل الشروط الفقهية لصحتها وفيما يلي:

1. إن ترشح الأمير عبد القادر تم من طرف أهل الحل والعقد وهم هنا العلماء وشيوخ القبائل وزعمائها. ولم تكن بطلب الأمير عبد القادر.

2. إن الأمير عبد القادر مؤهل مشرعا، وقد روعيت كل الشروط الشرعية في اختيار كالإسلام والعدالة وسلامة الحواس والقدرة على تنفيذ الأحكام حتى الشروط فيها والتي جعلها بعضهم شرطا للكمال كالنسب الشريف روعيت في اختيار الأمير عبد القادر وجاء ذكر ذلك في صك البيعة. فإضافة إن ما أوردناه من نص البيعة الأولى، فإن نص البيعة الثانية تشير إلى مسألة النسب:<<..... فلم يجدوا لذلك المذهب الجليل إلا المنسب الطاهر، والكامل الباهر، رأس الملة والدين قامع أعداء الله الكافرين، أب المكارم السيد عبد القادر بن مولانا السيد محي الدين...>>.

3. إن هذه البيعة لم يتم فيها تحديد المدة، وذلك أن مدة البيعة الشرعية لا تتحدد بمدة زمنية، فالخليفة أو الإمام يبقى في منصبه مادام لم يخل بشروط إمامته، ومنها إظهار لخلل ما، أو تعطل قدراته عن تنفيذ الأحكام، كما أن هذه البيعة لم تتحدد للأمير طيلة فترة إمارته التي بلغت قرابة 17 سنة.

4. إن هذه البيعة تمت على أساس الشريعة ومقتضى الكتاب والسنة فالإمام فيها حق الطاعة، والرعية حق أن تساس بالشريعة وهذا سنجده واضحا جليا في نص البيعة الثانية. <<... فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على الكتاب والسنة، ويتابعونه في جميع أحواله ...>>. وفي موضع آخر من نص البيعة تأكيد على هذا الأمر: <<.... يطيعونه ما ساسهم بالشريعة الغراء، وينصرونه في السراء والضَراء....>>.

1. إن هذه البيعة أعطت للأمير عبد القادر حق الأمير والإمام وهذا ما نجده واضحا في نص البيعة:<<... فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه عل الكتاب والسنة>>.

فمصطلح إمام يعني الإمامة الكبرى أي أنه قائد ورئيس، والذي يؤكد هذا أن الأمير عبد القادر كان يوقع أغلب مراسلاته "بالأمير" فهذا لا يعني بأي صورة التبعية للدولة العثمانية أو سلطان المغرب كما فهمه بعض الباحثين. وذلك لأن مصطلح " الأمير" يطلق على من يقود الجيش للحرب. وأول من سمى به هو الفاروق عمر بن الخطاب فهو أول من استعمل مصطلح " أمير المؤمنين".

ومن تم لم تكن بيعة الأمير عبد القادر بيعة جزئية تشبه بيعة سلطان المغرب أو الخلافة العثمانية. بل كانت بيعة تامة كاملة تعطيه كامل

الصلاحيات كإمام ورئيس دولة. ولا يكون بهذا خروج عن الدولة العثمانية وأضعاف لها. بل يكون هذا تثبيتا لكلمة المسلمين بإنشاء كيانات صغيرة. وذلك لأن الحكومة الجزائرية التابعة للدولة العثمانية قد سقطت باستلام الداي حسين، والدولة العثمانية لم تفكر في إرسال ممثل لها طيلة هذه المدة (سنتين تقريبا) ومن تم لابد شرعا من سد هذا الفراغ، وقد أجاز الفقهاء وجود أكثر من إمام في أقطار مختلفة لكل واحد منهم سلطانه في حدود قطره.

ونجد في نص البيعة ما يخول للأمير عبد القادر أن يتصرف باعتباره إماما مطاعا، وله الحق أن يؤدب المخالفين والخارجين عن طاعته. <<... فمن وفى ببيعته نال مسرته، وأتقى مظرته، ولاقى مسيرته، ومن نكث، فيما ينكث على نفسه، وخسر في يومه وأمسه...>>

ولهذا كله نجد الأمير عبد القادر قد تصرف باعتباره أميرا للمؤمنين وإماما مطاعا، فجمع الزكاة والأعشار وعين لذلك مسؤولا. واهتم بالخزينة الخاصة والعامة وجعل لكل واحد منهما ناظرا. واهتم بالأوقاف وجعل لها ناظرا، وبث العمال والقضاة. وعين ناظرا لقمع القبائل المخالفة له، والخارجة عن طاعته. فهو بهذا رسم معالم دولة متكاملة. وإن هذه الأمور كلها لم تخرج عن إطار البيعة التي بويع من أجلها. فلم يستغل الأمير هذه البيعة ليفرض نفسه سلطانا على الجزائريين؛ بل الجزائريون هم الذين أعطوا للأمير هذا الحق على أنفسهم. ونص البيعة يؤكد ذلك، فالأمير حسب نصوص البيعة، قد يوسع لأمرين اثنين.

أولهما: ممارسة العدو الكافر المتمثل في الاحتلال الفرنسي.

وثانيهما: إعادة بناء الدولة، وتنظيم الشؤون الداخلية للبلاد، وأنصاف المظلومين، ورد المظالم إلى أهلها بسبب الفتنة التي عمت البلاد بسبب سقوط الدولة الجزائرية نتيجة الاحتلال الفرنسي وهذا واضح في نص البيعة الثانية. <<.... هذا ولما تفرقت الحكومة الجزائرية من سائر المغرب الأوسط، واستولى العدو على مدينتي الجزائر ووهران. أعادهما الله دار إيمان وإسلام بجاه النبي عليه السلام، والقوافل والتلال، وصار الناس في هرج ومرج وحيص وبيص، لا ناهي عن المنكر، ولا من يعظ ويزجر، قام من وفقهم الله للهداية، وظهرت عليهم العناية، من: رؤساء القبائل وكبرائها وصناديدها وزعمائها فتفاوضوا في نصب إمام. يبايعونه على الكتاب والسنة...>>

فهذا النص يصور الحال التي وصلت إليها البلاد من الفوضى والفتنة مما يقتضي إعادة تنظيم شؤون الحكومة من جديد.

وهكذا يرسى الأمير عبد القادر الجزائرية الحديثة على أساس من الشريعة الإسلامية الغراء.

وإن هذه التجربة تعد بحق تجربة فريدة من نوعها في التاريخ الوسيط والحديث، تدل على عبقرية الشعب الجزائري وبطولته.

مبايعة الأمير عبد القادر
قراءة شرعية تأصيلية

الدكتور كمال لدرع[1]

تمهيـــــــد:

لا تزال بيعة الأمير عبد القادر تثير الكثير من التساؤلات والنقاشات، ويتعرض لها الباحثون بالتحليل والدراسة من زوايا متعددة، وذلك لما تميزت به هذه البيعة من خصائص وسمات، ووقوعها في ظروف متميزة، جعلها تثير انتباه الدارسين من ذوي الاختصاصات المختلفة، وهذه الدراسة الموجزة تحليل لما ورد في البيعتين الأولى والثانية في إطار الفقه الإسلامي، وتأصيل ذلك من الناحية الشرعية، ليمكن لنا فيما بعد الحكم عليها في مدى تطابقها مع الشروط والمواصفات التي حددها فقهاء الشريعة الإسلامية.

مفهوم البيعة في الفقه الإسلامي وتأصيلها الشرعي:

1 – تحديد مصطلح البيعة في الفقه الإسلامي:

أ – معنى البيعة لغة: وردت في كتب اللغة بمعنى الصفقة على إيجاب البيع وعلى المبايعة والطاعة.

والبيعة: المبايعة والطاعة، وقد تبايعوا على الأمر، أي أصفقوا عليه، وبايعه عليه مبايعة عاهده[2].

---

1 – أستاذ محاضر ورئيس قسم الشريعة والقانون بجامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة

2 - ابن منظور، لسان العرب

ب- معنى البيعة في الاصطلاح:

ومما ورد في تعريف البيعة، قولهم: "تأييد المرشَح للخلافة والموافقة على الترشيح"[1].

والبيعة بهذا المفهوم ذات معنى سياسي مثل بيعة الخلفاء الراشدين، وتعتبر بيعة أبي بكر الصديق أول بيعة سياسية وقعت في الإسلام.

وعند ابن خلدون أن:" البيعة هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك".[2]

والبيعة على رأي ابن خلدون عقد بين الحاكم والمحكوم يوجب على كل منهما التزامات.

ويجدر أن ننبه هنا أنه إذا تتبعنا نصوص الشرعية وآثار الصحابة التي ورد فيها لفظ البيعة نجد أن البيعة تعددت معانيه، فقد وردت بمعنى الالتزام بالإسلام والإقرار بالإيمان، وبمعنى الالتزام بالأيمان والشهادة، ومنها المبايعة على الطاعة، والمبايعة على اجتناب الكبائر، والمبايعة على الهجرة، والمبايعة على القتال. ولولا خشية الخروج عن خط الموضوع لتتبعت كل هذه المعاني المختلفة للبيعة الواردة في النصوص والآثار الشرعية.

---

1 - ظافر القاسمي، ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (الحياة الدستورية) دار النفائس، بيروت لبنان ط 5،سنة 1405هـ/1985م

2 - ابن خلدون، المقدمة

2 – البيعة في القرآن والسنة:

لفظ البيعة من المصطلحات الإسلامية التي تكرر ذكرها في القرآن والسنة، والتي صار لها مفهوم متميز في السياسة الشرعية، وهذه بعض النصوص الشرعية التي ورد فيها لفظ البيعة.

في القرآن الكريم:

قال تعالى:" **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم**"[الفتح،الآية:10] قال تعالى:" **لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا**"[الفتح،الآية:18] وقال أيضا:" **يا أيها النبي إذا جاء المومنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا ياتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم**"[الممتحنة،الآية:12]

في السنة النبوية:

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **إذا بُويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**"[1].

عن جابر بن عبد الله قال: "كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه وعمـــر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرَة وقال: بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت"[1].

---

1 – أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب إذا بويع لخليفتين، صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج:6، ص:23

عن مُجاشِع بن مسعود السُّلمي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم أبايعه على الهجرة، فقال:" **إن الهجرة قد مضت لأهلها ولكن على الإسلام والجهاد والخير**"[2].

تنصيب الإمام ضرورة واقعية وفريضة شرعية:

1 ــ تنصيب الإمام فريضة شرعية:

ومنصب الإمام يسمى بالإمامة الكبرى، وهو يطلق على خليفة المسلمين، وقد يلقب بالأمير، أما الإمامة الصغرى فهي التي تكون مقصورة على الصلاة، والإمارة تشمل أيضا كل أنواع الولايات الأخرى من قضاء وولاية المظالم والحسبة والوزارات وغيرها[3]. وتنصيب الإمام أو الأمير الذي يتولى شؤون الرعية من الفروض الشرعية، وهو ما أشارت إليه البيعتان، جاء في نص البيعة الأولى:"**الحمد لله الذي جعل نصب الإمام من مهمات الدين**". فقد أشارت هذه العبارة إلى أن تنصيب حاكم يتولى أمر المسلمين أمر شرعي، أي من جملة ما أمر به الدين الإسلامي. وقد استندت البيعة الأولى والثانية إلى أدلة شرعية لتأصيل، أولها الأثر الذي عزي إلى النبي صلى الله عليه وسلم:"**إن الله يحمي بالسلطان مالا يحمي بالقرآن**"[4]. وإلى

---

1 – أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام عند إرادة القتال، ج:6، ص:25.

2 – أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، ج:6، ص:27.

3 – القرافي، **الإحكام في تمييز الفتاوى من الأحكام**، ص:163 وما بعدها.

4 – هذا الأثر ليس بحديث نبوي وإنما هو قول لعثمان رضي الله عنه.

قوله تعالى الوارد في البيعة الثانية، وهو:"**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم**"[الفتح،الآية:10] إشارة إلى أن بيعة الإمام مثل بيعة الصحابة للرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الإمام يقوم مقام الرسول صلى الله عليه وسلم في حفظ مصالح الدين والدنيا.

فالبيعتان أشارتا إذن إلى أن بيعة الإمام وتنصيبه واجب شرعي، وأمر ديني واجب على المسلمين القيام به، وهو ما نبه إليه من قبل الكثير من علماء المسلمين، يقول الإمام الغزالي:"ولا ينبغي أن تظن أن وجوب ذلك (أي وجوب نصب الإمام)مأخوذ من العقل، فإن بينا أن الوجوب يؤخذ من الشرع....وعند ذلك لا ينكر وجوب نصب الإمام لما فيه من الفوائد ودفع المضار في الدنيا".[1] ويقول أيضا:"ولكننا نقيم البرهان القطعي الشرعي على وجوبه ولكننا لا نكتفي بما فيه إجماع الأمة، بل ننبه على مستند الإجماع، ونقول: نظام أمر الدين مقصود لصاحب الشرع عليه السلام قطعا، وهذه مقدمة قطعية لا يتصور النزاع فيها، ونضيف إليها مقدمة أخرى وهو أنه لا يحصل نظام الدين إلا بإمام مطاع فيحصل من المقدمتين صحة الدعوى وهو وجوب نصب الإمام"[2]، ويقول شيخه الإمام الجويني:"فنصب الإمام عند الإمكان واجب"[3].

ويبين الإمام الجويني — وهو ما يستدل على وجوب نصب الإمام — كيف أن الصحابة رضي الله عنهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه

---

1 - الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد**، ص:147.

2 - المرجع السابق.

3 - الجويني، **غياث الأمم**، ص:15.

وسلم مباشرة بادروا إلى نصب الإمام، فتركوا الاشتغال بتجهيز دفنه صلى الله عليه وسلم مخافة وقوع الفتنة في الأمة.[1]

كما يقرر الجويني أن وجوب نصب حاكم للأمة يستند إلى الشرع أولا، فقال:"فإذا تقرر وجوب نصب الإمام مستفاد من الشرع المنقول غير متلقى من قضايا المعقول"[2]. وقد بين الإمام الونشريسي[3] أن نصب الإمام واجب شرعي فقال:"وأما ولاية الخلافة والإمامة العظمى فحكمها الوجوب على الكفاية بالاجماع خلافا للأصم"[4][5]، ويقول الماوردي في ذلك أيضا:"وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأصم".[6]

لكن لا يفهم من هذا أن الإمام المقصود به في نص البيعة هو خليفة المسلمين، وإنما بمعنى الإمارة التي تكون حدود ولايتها إقليم من الأقاليم الإسلامية، والأمير عبد القادر نفسه كما ثبت عنه تاريخيا لم ينصب نفسه إماما على جميع المسلمين، ولم يدع ذلك، ومع ذلك فقد بينت نصوص البيعتين أن تنصيبه على أرض الجزائر بعد سقوط الحكم الإسلامي بالغزو

---

1 - المرجع نفسه، ص:16.

2 - المرجع نفسه.

3 - أحمد بن يحي ولد 834هـ1431م وتوفي سنة 917هـ1514م

4 - هو أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان من كبار رجال الاعتزال، توفي سنة 210هـ.

5 - الونشريسي، **كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية**، ص:22.

6 - الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص:05.

الاستعماري واجب شرعي لحماية البلاد، والقيام بواجب الجهاد، وإقامة شرع الله بين الناس.

2 ــ تنصيب الإمام ضرورة واقعية:

كما يتبين من البيعتين أن تنصيب الإمام، أو من يقوم مقامه كالأمير أمر يقتضيه واقع الناس ومعاشهم، فإن حياة الناس لا تستقيم بدون حاكم ينظم شؤونهم، ويضبط أمورهم، وتجتمع عليه كلمتهم، ويرجعون إليه، فالإمام وسيلة لحفظ النفوس والأموال ومنع النـــزاع والفتن، جاء في نص البيعة الأولى:"**الحمد لله الذي جعل نصب الإمام من مهمات الدين لتصان به النفوس والأموال وتجتمع كلمة المسلمين**".

كما أن الإمام وسيلة لدفع الظلم ونشر العدل ودفع الاعتداء، وهو ما بينته البيعة الأولى:"**فما بالك بزماننا الذي كثر فيه الباطل وانتشر، وخفي فيه الحق ولم يظهر له أثر**". وجاء في نص البيعة الثانية:"**وأوجب عليهم نصب إمام عادل عدل وفرض عليهم اتباعه في القول والفعل ليكف الظالم وينصر المظلوم ويجمع شملهم بالخصوص والعموم ويكافح بهم عدو الدين**". وهذا يتماشى مع مقاصد الدين، الذي جاء لجلب المصالح للناس ودرء المفاسد عنهم. فنظام الدولة لا يستقيم إلا بوجود حاكم يرعى شؤون الناس، ويحرص على تنفيذ الأحكام.

المقاصد الشرعية من نصب الإمام:

إن نصب الإمام مقصد شرعي، دلّت عليه نصوص الشريعة وقواعدها العامة وإجماع الصحابة . فعن طريق نصبه يتحقق المقصد العام من التشريع، وهو مراعاة مصالح الناس في العاجل والآجل.

وما ورد في البيعتين يدل دلالة واضحة على أن الغاية من نصب الإمام هو لتحقيق هذه المقاصد الشرعية، التي يمكن تلخيص ما جاء فيهما في الآتي:

1 ـ **كف الظلم:** والظلم نوعان ظلم داخلي وظلم خارجي، ظلم داخلي: كالاعتداء على مال الغير والضرب والشتم والقتل بغير حق، وهضم الحقوق وما إلى ذلك، وظلم خارجي: كالاعتداء على دولة بالحرب والاحتلال واستباحة الحرمات والمقدسات. والظلم محرم شرعا أيا كان نوعه، وقد جاء في نص البيعة الثانية:" **وفرض عليهم اتباعه في القول والفعل ليكف الظلم**". وكف الظلم خلق إسلامي، دلت عليه عدة نصوص شرعية من القرآن والسنة.

ومفهوم الظلم يشمل كل أنواع الاعتداء الذي يتعرض له الإنسان في نفسه أو ماله أو عرضه. ومهمة الإمام منع هذا الاعتداء. وعاقبة الظلم وخيمة يوم القيامة قال تعالى:"**ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يوخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار**".[ابراهيم42]، وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**"[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم:"**كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله**"[2].

---

1 - رواه مسلم.

2 - رواه مسلم.

2 ــ صيانة النفوس والأموال:

وحفظ النفس وحفظ المال من الكليات الضرورية التي أوجبت الشريعة المحافظة عليها، وهي من المقاصد الشرعية الضرورية التي حصرها العلماء في خمسة، يقول الإمام الغزالي:"ومقصود الشرع من الخلق خمسة،وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم وماهم"[1].

فنصب الإمام وسيلة لحفظ النفوس، قال تعالى:"**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**" [الإسراء،الآية:33] عن طريق إقامة حكم القصاص وعقاب المعتدين وأيضا حفظ الأموال عن طريق تطبيق الأحكام الزاجرة من التعدي على الأموال بالغش والغصب والسرقة والرشوة، كإقامة حد السرقة، وحد الحرابة، قال تعالى:"**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله** "[المائدة،الآية:40]. والمعلوم شرعا أن إقامة الحدود من مهمة الحاكم أو من ينوبه، وليس ذلك موكولا إلى غيره. وتحقيق هذا المقصد الشرعي يتم عن طريق سلطة الإمام أو من ينوبه من الأمراء والقضاة.

3 ــ جمع كلمة المسلمين:

فقد جاء في خطبة افتتاح البيعة الاولى:"**الحمد لله الذي جعل نصب الإمام من مهمات الدين، لتصان به النفوس والأموال، وتجتمع كلمة المسلمين**".فمن أعظم مقاصد تولية من يتولى شؤون المسلمين هو توحيد صفوف المسلمين، وجمع كلمتهم، ومنعهم من التفرق والتمزق. وقد بين

---

1 - الغزالي، **المستصفى من علم الأصول**، ص:287.

الإمام الجويني أن الناس لو تركوا دون حاكم يتولى أمورهم سيصيرون إلى الفوضى والاختلاف والفتن وتفشوا الخصومات، و سوف يتجرأ الأرذلون فيحكمون الناس بغير وجه حق[1].

مبايعة الأمير عبد القادر بديل إسلامي لسقوط الحكم العثماني المسلم في الجزائر:

وهذا يستشف من عبارات البيعة الأولى والثانية. ففي البيعة الأولى جاء فيها:"**حتى إن أعداء الله الكافرين ملكوا كثيرا من بلاد الإسلام وتشتت الكلمة واختل النظام**". فسقوط الحكم العثماني يسَّر للأعداء امتلاك الكثير من المناطق الجزائرية وكان لذلك آثاره السيئة على المسلمين الجزائريين من اختلال النظام وتمزق وحدة المسلمين.

وفي البيعة الثانية عبارات صريحة جاء فيها ما نصه:"**ولما انقرضت الحكومة الجزائرية من سائر المغرب الأوسط، واستولى العدو على مدينتي الجزائر ووهران أعادهما الله دار إيمان وإسلام، بجاه النبي عليه السلام، وطمحت نفسه العاتية إلى الاستلاء على السهول والجبال والفدافد والتلال، وصار الناس في هرج ومرج وحيص وبيص لا ناهي عن المنكر ولا من يعظ ويزجر، قام من وفقهم الله للهداية وظهرت عليهم العناية من رؤساء القبائل وكبرائها وصناديدها وزعمائها فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على الكتاب والسنة يسمعون لأمره ونهيه ويتابعونه في جميع أحواله**".

---

1 - الجويني، **الغياثي**، ص:16.

فبيعة الأمير عبد القادر جاءت كبديل إسلامي لسقوط الحكم في الجزائر. لذلك حاول المبايعون من أهل الحل والعقد آنذاك أن تكون البيعة وفق الكتاب والسنة ووفق ما كان عليه السلف الصالح. بيعة تقوم على الشورى وعلى تطبيق الكتاب والسنة والالتزام بشريعة الإسلام.

مبدأ الشورى في اختيار الحاكم وتنصيبه:

والشورى مبدأ إسلامي أصيل قام عليه الحكم الإسلامي الأول، مارسه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون. وقد دلت عليه عدة نصوص شرعية، منها قوله تعالى: **"وشاورهم في الأمر"**[آل عمران 159]. وقوله أيضا:**"وأمرهم شورى بينهم"**[الشورى 38]. كما دل فعل الرسول صلى الله عليه وسلم في مشورته للمهاجرين والأنصار في السلم والحرب، من ذلك مشورته للصحابة في غزوة بدر وقبوله مشورة بعضهم ومشورته لهم قبل الخروج إلى غزوة أحد. ثم قيام الخلفاء الراشدين بتكريس مبدأ الشورى طوال حكمهم.

فالبيعة الأولى والثانية كرست مبدأ الشورى الإسلامي، و اختيار الأمير عبد القادر وتنصيبه لم يكن عن غلبة أو استيلاء أو قوة أو نحو ذلك مما هو منتشر في كثير من البلاد الإسلامية قديما وحديثا، بل عن اختار من أهل الحل والعقد وعامة الناس، ونصوص البيعتين تؤكد ذلك، جاء في نص البيعة الأولى:**"فلجئوا إلى الله تعالى وسألوه أن ييسر لهم من يقوم بأمر دينهم، فما وجدوا من تتفق كلمة أهل الحل والعقد سوى السيد محي الدين بن مصطفى بن المختار لكماله، وكثرة ما عنده من الأعوان والأنصار. فطلبوا منه أن يبايعوه على السمع والطاعة، فاعتذر إليهم**

بكبر سنه، وبعد زمان طويل تكرر فيه طلبهم مرات، ووقع إلحاحهم تارات، ورأى أن النظر في هذا الأمر قد تعين عليه، وأتاه بعض علماء"غريس" وهو من الصالحين. فقال له إن أولياء الله تعالى قد اتفقوا على نصب ولدي "عبد القادر"لنصر دين الله، ورأى أن ولده مستعد لهذا الأمر فحينئذ وافقهم على نصبه ونصرته".

يتبين من هذا النص أن اختيار الأمير عبد القادر جاء بناء على مشورة وتفاوض بين العلماء ورؤساء الناس وزعماء القبائل، و لم يفرض على الناس فرضا.

كما أن الأمير عبد القادر لم يطلب الإمارة و لم يرغب فيها ولم يحرص عليها، وإنما كان ذلك بناء على رغبة الناس، وهو ما صرحت به البيعة الأولى فجاء فيها مانصه:"فاجتمع أهل الحل والعقد وبايعوه من غير طلب منه للإمارة، ولا متابعة للنفس الأمارة، بل بايعوه رغما عليه وطلبوا والده بالله تعالى وتوسلوا إليه برسول الله صلى الله عليه وسلم مدة تزيد على سنتين فوافقهم على البيعة ولده تطييبا لخواطرهم ورعاية لرفع الظلم عن الضعيف ودفعا للفساد والتعنيف". وهذا يتماشى مع التوجيه النبوي من عدم طلب الإمارة، وعدم إسنادها لمن حرص عليها.

ثم ذكرت البيعة كل الوفود التي جاءت لبيعة الأمير ونصرته وطاعته.ثم قالت البيعة بعدها:"وأعلنوا جميعا بطاعته ونصرته والرعاية له....واتفق علماء الإقليم على بيعته وطاعته ولم يخالف منهم أحد، وهم في حال طوعهم واختيارهم وفرحوا به أشد الفرح". وجاء في البيعة

الثانية العامة:"قام من وفقهم الله للهداية وظهرت عليهم العناية من رؤساء القبائل وكبرائها وصناديدها وزعمائها فتفاوضوا في نصب الإمام يبايعونه على الكتاب والسنة يسمعون لأمره ونهيه ويتابعونه في جميع أحواله،وجالوا في ميدان أفكارهم فيمن هو بذلك أهل من ذوي الكمال والفضل، فلم يجدوا لذلك المنصب الطاهر والكمال الباهر رأس الملة والدين قامع أعداء الله الكافرين أبا المكارس السيد عبد القادر ابن مولانا السيد محي الدين....ثم قدمت على حضرته الوفود من سائر الجهات والحدود فبايعه أولهم وآخرهم، شريفهم ومشروفهم،كبيرهم وصغيرهم بيعة تامة كاملة عامة، بيعة سمع وطاعة أفرادا وجماعة".

ويلاحظ أن مبدأ الشورى في مبايعة الأمير مرَّ بمرحلتين:

الأولى: مرحلة بيعة أهل الحل والعقد: أي أن الشورى في اختيار الأمير تمت بيد رؤساء القبائل والعلماء ووجهاء الناس وهم الملقبون بأهل الحل والعقد.

الثانية: ومرحلة بيعة عامة الناس:التي قام بها سائر الناس.

مبايعة الأمير عبد القادر انتهجت طريقة الصحابة في بيعة الخلفاء الراشدين: فأبو بكر الصديق تمت بيعته من أهل الحل والعقد، وهم الصحابة المجتمعون في سقيفة بني ساعدة[1] ثم كانت البيعة العامة من قبل سائر المسلمين. وهذا يدل على حرص الجزائريين على انتهاج آثار السلف الصالح في مبدأ البيعة ومنتهاها.

---

1 - ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص:16.

إن مبايعة الأمير عبد القادر أحيت المنهج الإسلامي في اختيار الحاكم وتنصيبه، وهو الذي كان عليه الخلفاء الراشدون. هذا المنهج الذي انحرف عليه الكثير ممن تولوا الحكم بعد الخلفاء الراشدين، حيث صاروا يعمدون إلى القوة والثورة والانقلابات في الاستيلاء على السلطة، وهو الذي يتجلى في قيام الدويلات الإسلامية بعد ضعف الخلافة، في المشرق العربي ومغربه.

نستطيع أن نقول أن مبايعة الأمير عبد القادر نموذج إسلامي أصيل في اختيار الحاكم وتوليته، حيث قامت المبايعة على مبدأ أساسي يقوم عليه الحكم في الإسلام منذ نشأته في الصدر الأول من حياة المسلمين وهو مبدأ الشورى.

بل إن هذه المبايعة تعتبر بحق نموذجا إسلاميا في قيام الحكم بعد إن اختفى منذ عهد الخلافة الراشدة، ولو كتب لحكم الأمير عبد القادر أن يستمر لعد بحق تجربة فريدة على مستوى العالم الإسلامي حديثا. وهناك من يقول أن الأمير أنشأ الدولة الجزائرية الوطنية وهذا نعت ناقص، بل أحيا النموذج الإسلامي السليم في قيام الحكم الإسلامي على مستوى العالم الإسلامي، إذ الجزائر جزء من العالم الإسلامي الواسع.

المصطلحات الإسلامية في نصوص البيعتين:

لقد حرص صائغو فقرات البيعتين الأولى والثانية على استخدام الألفاظ الشرعية والمصطلحات الإسلامية، اقتفاء بآثار الصحابة والتابعين، وللتعبير على أصالة المنهج الذي سلكوه في مبايعة الأمير، والتأكيد على الانتماء الإسلامي العريق والأصيل في الشعب الجزائري.

ويلاحظ في ألفاظ ومصطلحات نصوص البيعتين أنها في معظمها مستمدة من القرآن والسنة، ومن خطب الصحابة وكلامهم.

ومن هذه المصطلحات:

1 ــ الإمام: الحاكم العام للمسلمين، وهو من يتولى أمورهم، وقد جاء في الحديث:" **الدين النصيحة**"، قلنا : لمن يا رسول الله؟ قال:" **لله عزوجل ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**"[1].

2 ــ أهل الحل والعقد: وهم أهل الرأي والمشورة في المجتمع.

وأهل الحل والعقد أو أهل الاختيار ترتيب دستوري ابتكره علماء السياسة الشرعية المسلمون، وليس عليه نص صريح من القرآن والسنة، لكن الصحابة مارسوه عمليا في بيعة أبي بكر الصديق، وأحدثه عمر بن الخطاب.

واختيار أهل الحل والعقد من الطرق التي تنعقد بها الإمامة عند المسلمين، وهناك من استدل على ذلك بقوله تعالى:"**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**"[النساء،الآية:58][2]. وهو ما أكده الإمام الماوردي من أن الإمامة تنعقد باختيار أهل الحل والعقد[3].

3 ــ البيعة: مصطلح إسلامي ورد ذكره في نصوص كثيرة من القرآن والسنة، منها قوله تعالى:" **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك**

---

1 - أخرجه مسلم.

2 - ظافر القاسمي، **نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي**، ص:232 وما بعدها.

3 - الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص:06 – ظافر القاسمي، **نظام الحكم**، ص:232 وما بعدها.

تحت الشجرة"[الفتح،الآية:18]، وقوله صلى الله عليه وسلم للأنصار في بيعة العقبة الثانية:" **أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**"[1].

4 ــ الكافرون: مصطلح قرآني أطلقه على من لم يؤمن بدين الله، قال تعالى:" **قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون**"[الكافرون،الآية:1،2]، وقد أطلق في البيعة على الاستعمار الفرنسي، لأنه لا يدين بالدين الإسلامي، وقيامه بالاعتداء على بلد مسلم.

5 ــ دار إيمان وإسلام: لفظ أطلقه المسلمون على بلاد المسلمين أما ما عداها فيطلقون عليها دار الحرب.

6 ــ الكتاب والسنة: وهما المصدران الأساسيان للدين الإسلامي في العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق.

7 ــ الفجار: لفظ ورد ذكره في القرآن الكريم، وهو يطلق على الكافر، كما يطلق على الخارج عن حدود الله، قال تعالى:" **إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم**"[الانفطار، الآية:14]

8 ــ الشريعة: تطلق على الأحكام الشرعية المختلفة التي أنزلها الله تعالى وحيا على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:" **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها**" [الجاثية،الآية:18]

9 ــ الحق والباطل: ورد ذكرهما كثيرا في القرآن الكريم، منها قوله تعالى:" **كذلك يضرب الله الحق والباطل...**"[الرعد،الآية:19]

---

1 – عبد السلام هارون، **تهذيب سيرة بن هشام**، ص:119.

10 ــ أولياء الله تعالى: وهم المؤمنون الصادقون الملتزمون بأحكام الشرع، قال تعالى:" **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**"[يونس،الآية:62]

الاقتباس من القرآن والسنة ومن كلام السلف:

الاقتباسات الواردة في البيعة الأولى:

1 ــ يبايعوه على السمع والطاعة: وعبارة وردت في بيعة الأنصار من أهل يثرب للرسول صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الأولى والثانية.

قال عبادة بن الصامت في بيعة العقبة الثانية:"بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب على السمع والطاعة"[1].

2 ــ النفس الأمارة: قال تعالى:" **وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي**"[يوسف،الآية:53]

3 ــ يحمونه مما يحمون أنفسهم وأموالهم: جاء في بيعة العقبة الثانية قول الرسول صلى الله عليه وسلم لهم :"أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون عنه نسائكم وأبنائكم"[2].

الاقتباسات في البيعة الثانية:

5 ــ جعلها خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكرات: قال تعالى:" **كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**"[آل عمران، الآية:110]

---

1 - عبد السلام هارون، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ص:122.

2 - المرجع نفسه، ص:119.

6 ــ وجعلهم الشهداء على من سواهم من الناس: قال تعالى:" **وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس**"[الحج،الآية:76]

7 ــ لتكون العليا كلمة المسلمين: قال تعالى:" **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا**"[التوبة،الآية:40]

8 ــ يمنعون عنه السوء بما يمنعون به أنفسهم وأولادهم وأموالهم: ورد ذكر ذلك في بيعة العقبة الثانية.

9 ــ وينصرونه في السراء والضراء: قال تعالى:" **الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس**"[آل عمران،الآية: 134]

10 ــ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه: الآية نفسها من سورة الفتح رقم الآية 10.

صفات التأهيل لمنصب الإمامة العظمى:

لقد قرر فقهاء الإسلام وعلماء السياسة الشرعية أن الحاكم الذي يختار للولاية العظمى، أو للإمارة، أو حتى لمناصب القضاء والحسبة وولاية المظالم أنه لابد أن تتوفر فيه جملة من الصفات والمواصفات تؤهله لتولي أية مسؤولية من هذه المسؤوليات، وسوف نقارن بين الصفات التي ذكرها فقهاء الإسلام والصفات المذكورة في البيعتين:

في البيعة الأولى:"**فحينئذ وافقهم على نصبه ونصرته لكونه: ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم وذات سليمة،صالحا لتنفيذ الأحكام**".

وجاء فيها أيضا:"**وكل من سمع به من أهل الآفاق يزداد فيه رغبة،وذلك لعلمهم بقوة عقله وشدة نجدته وصلاح رأيه**".

وجاء في البيعة الثانية:"**وجالوا في ميدان أفكارهم،فيمن هو بذلك أهل من ذوي الكمال والفضل، فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطاهر والكمال الباهر رأس الملة والدين، قامع أعداء الله الكافرين أبا المكارم السيد عبد القادر**".

ويمكن تحديد الصفات الواردة في البيعة التي على أساسها كان اختيار الأمير عبد القادر في الآتي:

1 ــ الإسلام

2 ــ الحزم والعزم

3 ــ الشجاعة.(وعبر عنها في البيعة بـــ: (شدة نجدته)

4 ــ رجاحة العقل، وعبر عنها بـــ: (العقل السليم) (قوة العقل). (صلاح رأيه).

5 ــ سلامة الجسم ، عبر عنها بـــ:(ذات سليمة) .

6 ــ القدرة على تنفيذ أحكام الشريعة وإدارة شؤون الحكم.

7 ــ شرف النسب.

8 ــ الخلق الحسن: وقد جاء في نصوص البيعتين: (أبا المكارم) (الكمال الباهر).

وقد ذكر الإمام الجويني في الصفات الواجب توافرها فيمن يتولى منصب الحكم، فقال:"الصفات المرعية في الأئمة تنقسم أقسامها منها:ما

يتعلق بالحواس، وما يتعلق بالأعضاء، ومنها ما يرتبط بالصفات اللازمة ومنها ما يتعلق بالفضائل المكتسبة"[1].

فما يتعلق بالأعضاء والحواس فقد عبرت عنه البيعة بـ(ذات سليمة)وأما الصفات اللازمة للإمام من ذكورة وحرية العقل والبلوغ والشجاعة والشهامة[2]، فقد عبرت عنها البيعة بـ: (الحزم والعزم وشجاعة وعقل سليم) ، (لعلمهم بقوة عقله وشدة بحدته وصلاح رأيه).

وأما الصفات المكتسبة المرغبة في الإمام من علم وورع والفطنة وتوقد الرأي، فقد جاء في البيعة ما يدل عليها:(صالحا لتنفيذ الأحكام) إشارة إلى العلم، لأنه من كان جاهلا بالأحكام الشرعية لا يتأتى له تنفيذها،ولا الاجتهاد فيها في قضايا الدين والحكم.

أما الورع،فقد أشير إليه:(من ذوي الكمال والفضل) و (الكمال الباهر رأس الملة والدين).

وقد ذكر الإمام الغزالي في الباب الثالث من القطب الرابع في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد تحت عنوان:"الباب الثالث في الإمامة:الذي قسمه إلى ثلاثة أطراف فقال في الطرف الثالث الذي بعنوان:في بيان من يتعين من سائر الخلق لأن ينصب إماما. فقال:" ليس يخفى أن التنصيص على واحد يجعله إماما بالتشهي غير ممكن،فلابد من تميز بخاصية يفارق سائر الخلق بهذا،فتلك خاصية في نفسه،وخاصية من جهة غيره،أما من نفسه فأن يكون

---

1 - الجويني، **الغياثي**، ص:42.

2 - المرجع نفسه، ص:45.

أهلا لتدبير الخلق وحملهم على مراشدهم، وذلك بالكفاية والعلم والورع، وبالجملة خصائص القضاة تشترط فيه مع زيادة نسب قريش".[1]

إلا أن الإمام الغزالي بين أنه إذا تعذر توفر بعض شروط الإمام كشرط القرشية فللأمة الحق في اختيار من يصلح للإمامة من ذوي الرأي المطاع حتى تستقيم أحوالهم، لأن المقصد من تنصيب الإمام هو جمع شتات الرأي ومنع القتال والفتن بين المسلمين وتنظيم مصالح معاشهم، وحملهم على مصالح الآخرة[2]، لذلك "فلا يجوز أن يعطل أهل المصالح في التشوق إلى مزاياها وتكملاتها"[3].

وقال الإمام الونشريسي:"وأما ولاية الخلافة والإمامة العظمى فحكمها الوجوب على الكفاية بالإجماع خلافا للأصم، وشروط متوليها: العدالة والنجدة وسلامة الحواس والأعضاء من نقص يمنع استواء الحركة وشرائط الفتوة والعلم المؤدي للاجتهاد في النوازل، وهمة الرأي والكفاية في المعضلات والنسب القرشي"[4].

لقد عين الأمير عبد القادر بنفس الشروط التي عين بها الخلفاء الراشدين مع الاختلاف في الرتبة، وهي الشروط المحددة على مستوى الفقه الإسلامي والسياسة الشرعية.

---

1 - الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد**، ص:149.

2 - المرجع السابق، ص:150.

3 - المرجع نفسه.

4 - الونشريسي، **كتاب الولايات**، ص:22.

التأصيل الشرعي لبيعة الأمير عبد القادر

الأستاذ دوادي فرادي.

عناصر الموضوع:

01/ مقدمة.

02/ تعريف البيعة لغة.

03/ تعريف البيعة اصطلاحا.

04/ السند الشرعي للبيعة.

05/ بيعة الأمير الأولى [الخاصة].

06/ بيعة الأمير الثانية [العامة].

07/ موقع البيعة الأميرية بين التأصيل الشرعي والواقع التاريخي.

01/ مقدمة:

إن البيعة والعهد والميثاق كلمات وألفاظ لها معاني مشتركة ولها خصائص متشابكة، ويعود تاريخ أول ميثاق أُخِذَ على بني البشر إلى اللقاء التكريمي الذي جمع آدم [عليه السلام] بالملأ الأعلى، أين سجد له الملائكة سجود الاحترام والطاعة بعد نفخ الروح فيه.

فقد أخذ الله من آدم [عليه السلام] والبشرية جميعها في صلبه أن أشهدهم على أنفسهم بأنه الله الواحد الأحد، وأنه ربهم جميعا، فشهدوا على ذلك وقالوا: بلى، فأخذ منهم العهد والميثاق مصداقا لقوله تعالى: " وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم

قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلُ وكنا ذرية من بعدهم أفتُهلكُنا بما فعل المبطلون "[1].

إذن فكل واحد من البشر في عنقه بيعة وعهد أُخذا عنه منه وشهد عليهما، ومن نكث بعد ذلك فإنما ينكث على نفسه.

ثم أخذت البيعة والعهد بعد نزول آدم [عليه السلام] إلى الأرض من الرسل والأنبياء [عليهم الصلاة والسلام] حيث قال تعالى: "وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم من كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومنّن به ولتنصرنه قال آقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين"[2]. وقوله تعالى: "وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم منك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منكم ميثاقا غليظا ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما"[3]

فيتضح من الآية الأولى أن العهد والميثاق الذي أخذ على بني آدم كلهم مرتبط بالتوحيد وشهادة التوحيد ممتدة إلى قيام الساعة، والآية الثانية والثالثة تبينان أن عهد الأنبياء والنبوة هو من عهد الله وميثاق في رقابهم على حمل الدعوة والتبليغ إلى أقوامهم. إذن فعهد الله وعهد أنبيائه عهد واحد مرتبط كل واحد بالآخر لا ينفصلان أبدا.

02/ تعريف البيعة لغة:

البيعة مأخوذة من الفعل الثلاثي معتل العين، باع، يبيع بيعا.

---

1 - سورة الأعراف، الآية 171-173.

2 - سورة آل عمران، الآية 80.

3 - سورة الأحزاب الآية 7-8.

وباع الشيء ومنه وله بيعا ومبيعا: أعطاه إياه بثمن.

وبايعه مبايعة: عقد معه البيع.

والبيعة: الصفقة على إيجاب البيع وعلى المبايعة والطاعة.

والبيعة: المعاهدة، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره"[1]

03/ تعريف البيعة اصطلاحا:

تعرف البيعة اصطلاحا على أنها إعطاء العهد من المبايع على السمع والطاعة للأمير أو الخليفة في السراء والضراء والمنشط والمكره، وقد أجاد ابن خلدون في تعريف البيعة حيث قال: "أعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره"[2]

04/السند الشرعي للبيعة:

وردت العديد من الآيات القرآنية تقرر مشروعية البيعة نوردها كالآتي؛ قال الله تعالى:" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلُون وعدًا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو

---

1 - ابن منظور، محمد بن جلال: لسان العرب، مطبعة بولاق، 1889م، ج1 ص 299، ج2 ص 914 بتصرف

2 - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: المقدمة، ص 549.

الفوز العظيم".[1] وقوله تعالى:" إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد الله عليه فسنوتيه أجراً عظيماً".[2] وقوله تعالى:" لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعَلِمَ ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانمَ كثيرةً يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً"[3]

وجاء في السنة النبوية الشريفة الكثير من الأحاديث التي تثبت مشروعية البيعة، وقد ثبتت كذلك في السنة الفعلية له (ص) وإجماع المسلمين من بعده (ص).

فمن السنة القولية: ما رواه الإمام مسلم رضي الله عنه في صحيحه عن النبي (ص) قوله:"من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية".[4] وقوله (ص):"إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخرَ منهما"[5] وقوله (ص):" فوا[فعل أمر من وفى يوفي وفاء] ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم[من سمع وطاعة]، فإن الله سائلهم عما استرعاهم"[6]

---

1 - سورة التوبة الآية 112.

2 - سورة الفتح الآية 10.

3 - سورة الفتح الآية 18-19.

4 - مسلم، أبو الحسين مسلم بن حجاج: صحيح مسلم،ج2 ص229.

5 - المصدر السابق، كتاب الإمارة، ج12 ص232.

6 - نفس المصدر والجزء، ص230-231.

وأما السنة الفعلية:فقد أخذ النبي (ص) البيعة من المسلمين قبل الهجرة مرتين وفي موضعين هما بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية.

وأخذ النبي (ص) البيعة بعد الهجرة بعد تكوين دولة الإسلام في المدينة المنورة أكثر من مرة كما جاء ذلك في كتب السيرة:

أ- في صلح الحديبية حيث أنزل الله قوله: "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد الله عليه فسنوتيه أجرا عظيماً"[1].

ب- بعد صلح الحديبية في بيعة النساء حيث أنزل الله قوله: "يا أيها النبي إذا جاءك المومنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا ياتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم"[2].

ت- البيعة العامة والتي شملت الرجال والنساء على حد سواء بعد فتح مكة المكرمة.

الإجماع: البيعة حق لكل مسلم ومسلمة، وقد أجمع المسلمون من عهد الصحابة إلى يومنا هذا على مشروعية طلب البيعة وأخذها[3].

- فالأحداث التي جرت في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة النبي (ص) بالخلافة تدل دلالة واضحة على ثبوت البيعة ووجوبها على كل مسلم

---

1 - سورة الفتح الآية 10.

2 - سورة الممتحن، الآية 12.

3 - د/ محمد عبد القادر أبو فارس: النظام السياسي في الإسلام، دار القرآن الكريم بيروت لبنان، ط1، ص 303..

ومسلمة. يقول ابن خلدون: "واستقر ذلك إجماعا"[1] بعد أن دلل على أن البيعة فرض على جميع المسلمين يثابون على فعلها ويعاقبون على تركها لأنها واجب شرعي كالصلاة والزكاة فضلا عن كونها الطريقة الشرعية الوحيدة لنصب رئيس الدولة[2].

05/بيعة الأمير الأولى[الخاصة]:

قبل الخوض في الحديث عن البيعة الخاصة التي أداها أهل المنطقة للأمير وجب الحديث عن الظروف التي مهدت لها والتي أحاطت بها، فكيف تهيأت الظروف لعقد هذه البيعة؟ لقد اجتمعت عدة عوامل لظهور هذه البيعة وعقدها أهمها:

- شغور منصب الخليفة أو الوالي العام بالجزائر ممثل الدولة العثمانية بعد سقوط حكم الدولة العثمانية.
- اعتذار محي الدين والد الأمير عبد القادر عن شغل هذا المنصب.
- ترشيح محي الدين الأمير لهذا المنصب لما رأى فيه من الصفات الحسنة والخلق الدمث، وقد لاقى هذا الرأي المساندة الواسعة من قبل رجال الدين ورؤساء القبائل والعشائر.
- تميز الأمير عبد القادر بميزة أهلته لاعتلاء هذا المنصب وهي قوة الشخصية وما اشتملت على أخلاق وصفات حميدة. وقد جاء ذلك منصوصا في البيعة الأولى حيث قالوا لكونه: "ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم وذات سليمة صالحا لتنفيذ الأحكام".

---

1 - المقدمة، ص 181.

2 - د/ محمود الخالدي: البيعة في الإسلام، شركة الشهاب الجزائر، ط1، ص 63.

• عزوف الأمير عن الدنيا وملذاتها فيما تلقاه من تربية روحية عالية على يد والده محي الدين وارتباطه بالطريقة القادرية التي كانت شائعة بشمال إفريقيا إذ ما علمناه أن أباه كان من أكابر المرابطين في المنطقة الغربية بالجزائر وبيان ذلك ما جاء في نص البيعة: "وبايعوه من غير طلب منه للإمارة ولا متابعة للنفس الأمارة بل بايعوه رغما عنه".

ما اشتملت عليه البيعة:

لقد كانت هذه البيعة بمثابة الأرضية الممهدة للبيعة الثانية العامة، وقد اشتملت على ترشيح الأمير لإمامتهم وقد حضرها فقط مما يسمى بأهل الحل والعقد من أهل المنطقة.

وإذا ما قمنا بإسقاط لهذه البيعة على مثيلة لها وقعت في العهد الأول لهذه الأمة [بيعة العقبة الأولى] لوجدنا أن للبيعتين جوانب متشابهة وقواسم مشتركة مع الفارق طبعا، فكلاهما تهدف إلى:

1. الامتثال والالتزام بمبادئ الإسلام ورفع الظلم عن الضعفاء والمستضعفين ودفع الفساد.

2. حضور أهل الحل والعقد والأشراف من أهل المنطقة والمناطق المجاورة للمبايعة.

3. إعلان السمع والطاعة والنصرة والرعاية وبذل الجهد في إيصال بنود ومواثيق هذه البيعة إلى الغير مع النصح.

بقيت هنالك ملاحظة تجدر الإشارة إليها هي أن الفاصل بين بيعة العقبة الأولى والثانية سنة كاملة أما بيعة الأمير الأولى والثانية فالفاصل بينهما

شهران وسبعة أيام إذا ما علمنا أن الأولى كانت بتاريخ: 1832/11/27 أما الثانية فكانت بتاريخ: 1833/02/04.

06/ بيعة الأمير الثانية [العامة]:

لما ذاع أمر البيعة الأولى والتي كانت كما ذُكِر سلفا الأرضية الممهدة لهذه البيعة أقبلت الوفود من كل حدب وصوب ينسلون ذاعنين وراغبين في الطاعة وقد كانت هذه البيعة شبيهة بيعة الرضوان مع الفارق طبعاً.

بيعة الرضوان التي بايع فيها الصحابة من الأوس والخزرج النبي (ص) تحت الشجرة حيث أنزل الله فيهم قوله: "لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة".[1]

وقد جاءت بيعة الأمير الثانية هذه مشتملة على ألفاظ وشروط لم تكن في البيعة الأولى وكأنها شبيهة بالبيعة الثانية التي كانت على عهد النبي (ص) والتي اشتملت على محاربة ومجاهدة الأعداء والخصوم.

وفي هذا إشارة إلى أن ألفاظ البيعة تختلف حسب الموضوع والمقام وحسب حاجة المسلمين ووضعهم القائم مع ضرورة الالتزام بأمرين أساسين هما:

1. الحكم بكتاب الله وسنة رسوله (ص) وهذا في حق الخليفة المبايع له أو من يقوم مقامه.
2. الطاعة والنصرة وقول الحق والالتزام به للذي يعطي البيعة.

---

1 - سورة الفتح الآية 18.

وهذان الأمران كلاهما متوفر سواء في بيعة الرضوان أو العقبة الثانية أو في بيعة الأمير الثانية أو البيعة العامة.

07/ موقع البيعة الأميرية بين التأصيل الشرعي والواقع التاريخي:

ومجمل القول أن بيعة الأمير قد توافرت فيها جميع شروط البيعة ابتداءً من شخص الأمير والذي حاز جميع الشروط المطلوبة فيمن يأخذ الإمارة وتعقد له البيعة من إسلام وعقل وذكورة وحرية وعدالة جامعة وعلم مؤد إلى الاجتهاد وسلامة حواس وشجاعة.

أو من جهة شروط انعقاد البيعة الشرعية فإن البيعة الشرعية تتم بالقبول والرضا دون إكراه وهو ما تم وما كان في بيعة الأمير وبإجماع أهل المنطقة ولهم منه العمل بكتاب الله وسنة رسوله (ص).

وعلى ما تقدم يمكن القول إن مبايعة الأمير كانت وفق ما قرر الشرع وأنها صحيحة شرعا حتى وإن كان لغيرنا من يرى رؤية غير هذه فله ذلك مع تقديم الدليل والبرهان.

الحركة اللغوية في نصي مبايعتي الأمير عبد القادر الأولى والثانية

الأستاذ ناصر لوحيشي*

إن المعهود المعروف عندنا اليوم، أن اللغة أصوات يعبّر بها المرء عن ذاته ومآربه، ويفصح بوساطتها عن مشاعره وعواطفه وأحاسيسه، وهي أرقى أدوات التخاطب والإبلاغ، إذ إنها الوعاء الذي يختزن التاريخ والتراث وأمجاد الأمم وثقافتها[1]

ولذلك فلا غرو أن العرب "إنما فضلت بالبيان والفصاحة، وحلا منطقها في الصدور، وقبلته النفوس لأساليب حسنة وإشارات لطيفة تكسبه بيانا وتصوره في القلوب تصويرا"[2]

وحين أدرك العلماء والأدباء أن من كان في المنطق أعلى رتبة كان بالإنسانية أولى[3]. كما يرى أصحاب المنطق، فقد بات همهم "ألا يقولوا أي قول، بل أن يبرزوا أقوالهم محلاة بأبهى حلل العبارة، موشاة بأروع سمات

---

*- أستاذ مكلف بالدروس، ورئيس قسم اللغة والدراسات القرآنية، بجامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة

1 - يراجع: مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ض.ت وكذلك يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1420هـ - 1999م) المقدمة، ص:5.

2 - أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ت: د.عبد الحميد هنداوي، ط1

(المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1422هـ- 2001م) ج2، ص-67 .

3 - م.ن.ج1، ص:212.

الكلام، وذلك لا يأتي إلا بالزخرف في العبارة والتنميق في الصياغة، والتوليد في المعنى والمبالغة فيه، والإحالة إلى حد يخرجه عن حدود المعروف"[4].

ونظرة عجلى إلى القديم، تكشف لنا أن تأنق الملوك والخلفاء الذين كانت قصورهم تزخر بأنواع شتى من متع الحياة وزينة الدنيا وزخرفها، كان دافعا إلى تأنق الشعراء والخطباء.

حيث أخذ التنسيق والتزيين يتسربان من الحياة العامة إلى حياة الأدباء والخطباء الفنية الخاصة، فتحول كلامهم إلى زخارف رقيقة وتصوير بديع، حتى غدت القصيدة أو الخطبة أو الرسالة واجهة لقصر مشيد مزين مزخرف بديع. مجاراة لروح العصر، وتمشيا مع الحياة الجديدة آنذاك[5].

وإذا كان البديع أمرا خاصا بالعرب — كما يقول الجاحظ- مقصورا عليهم، ومن أجل ذلك فاقت لغتهم كل لغة، ورأبت على كل لسان.[6] فقد بدا أن البديع لم ينشأ لأول مرة في العصر العباسي، بل له مقدمات في الذكر الحكيم، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم- وأشعار

---

4 - عبد الفتاح لاشين، الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام، (دار المعارف - القاهرة، ج، م. ع) ص: 12 .

5 - يراجع: عبد الفتاح لاشين، الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام، ص. 13، 14.

6 - يراجع: البيان والتبيين، ت: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر) ج4 ص: 55، 56.

المتقدمين، إلا أنه كثر عند بعض الشعراء مثل بشار بن برد، وأبي نواس، ونضج عند مسلم بن الوليد، وتناوله أبو تمام فبلغ فيه الغاية والمراد.[7]

ويبلغ البديع أوجه فيما يدعى عصر الضعف والانحطاط، وتمتدّ حوانبه ليشمل المشرق والمغرب، و لم يكن كتاب الجزائر وعلماؤها بمعزل عن ذلك... فهذان نصان – أعني نصي المبايعة- مبايعة الأمير عبد القادر – يؤكدان ما ذكرناه.

فاللافت في نصي المبايعة أولا، كثرة الأساليب البديعية كالسجع والمطابقة والمقابلة والمجانسة، والاقتباس والتكرار.

ويبدوا أن محرر نص المبايعة قد أدرك أن "صناعة الكلام نظما ونثرا إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبع لها وهي أصل"[8]، فراعى الوجهين معا.

وإذا كان ابن خلدون قد ذم السجّاعين، فإنه خص فئة بعينها، أولئك الذين يبالغون ويكثرون من ألوان البديع في غير مقصد أو ضرورة. إذ يرى أن هؤلاء عجزوا "عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة، وانفساح خطوته، وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود، ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالإسجاع والألقاب البديعية، وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر

---

7 - يراجع: عبد الفتاح لاشين، الخصومات البلاغية، ص: 18.

8 - عبد الرحمن بن خلدون المغربي، تاريخ العلامة بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، (دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان) المجلد الأول، ص. 1110.

أنحاء كلامهم، كتاب المشرق وشعراؤه"[9] والسجع كما يرى أهل اللغة هو "مولاة الكلام على وزن واحد، وله منهج مرتب، محفوظ، وطريق مضبوط، متى أخل به المتكلم وقع الخلل في كلامه، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام"[10] ولذلك فإن أفضله ماتساوت فيه فقره[11]، كالذي رأيناه في نصي المبايعة.

ففي نص المبايعة الأول يتكرر السجع 14(أربع عشرة) مرة في: الدين – المسلمين – المرسلين – أجمعين – السلطان – القرآن – العدل – الجهل – أثر – انتشر – الإسلام – النظام – سبيلا – دليلا – لهم – دينهم – مرات – تارات – للإمارة – الأمارة – الضعيف – التعنيف – الفرح – الترح – نجدته – نصرته – المختار – الأنصار.

بيد أن نسبة السجع تعلو وتزداد في نص المبايعة الأخرى، إذ يبلغ السجع فيها سبعة وثلاثين (37) ومواضعه هي:

الكريم – العظيم – السلام – الأنام – الناس – الأرجاس – أمرهم – قدرهم – عدل – الفعل – الرشاد – الأضداد – المظلوم – العموم – الدين – المسلمين – الحق – الصدق – رسول – مقبول – المحمود –

---

9 – عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ العلامة بن خلدون، ص. 1095.

10 – القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن– تعليق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة. ط1 (دار الكتب العلمية، بيروت لبنان) 1421هـ - 2001م) ص: 48، ص: 50 .

11 – يراجع. علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ط17.(دار المعارف – القاهرة – مصر، 1383هـ - 1964م) ص: 273.

المورود – ودادة – جلادة – نصرته – شريعته – المراتب – المناصب – إسلام – سلام – الجبال – التلال – المنكر – يزجر – الهداية – العناية – كبرائها – زعمائها – أهل – الفضل – الطاهر – الباهر – الدين – الكافرين – الدين – المسلمين – مشروفهم – صغيرهم – أموالهم – أكبادهم – طاعة – جماعة – تعظيم – تكريم – الإسلام – اللئام – سمعوا – خشعوا – خضعوا – الغراء – الضراء – بيعته – مسرته – مضرته – مبرته – نفسيه – أمسيه – الخلق – الحق – الرفق – بكاملها – بجلالها – جمالها – سرورها – بدورها – السنية – البهية – بايع – تابع – الشرقية – الغربية – العام – العوام.

والملاحظ في سجع النصين أنه لم يكن بتكلف أو تعمل، ولا سيما في نص المبايعة الأولى، وحتى وإن كثر في نص المبايعة الأخرى، فإنه – كما يعتن لنا – من السجع المقبول المستحسن الذي تحدث عنه عبد القاهر الجرجاني في كتابه: أسرار البلاغة.[12] فإذا أخذنا ما جاء مسجوعا في نص المبايعة الثنية في مثل قوله: لنكون العليا كلمة المسلمين"، وضح لنا أن المحرر الكاتب لم يؤخر توخيا للسجع أو طلبا له وحسب، وإنما أخر ذلك لأن الدلالة والسياق يقتضيان ذلك، فتقديم الخبر هنا – له دلالة ومقصد، إذ إن المراد أن تكون كلمة المسلمين وهي كلمة الله، العليا، وفي هذا حصر وتخصيص يعلمه أهل اللغة.

---

12 – يراجع: أسرار البلاغة في علم البيان– ت: الشيخ محمد رشيد رضا (دار المعرفة، بيروت، البيان)ص: 10

أضف إلى ذلك أن كثرة السجع في النصين، إنما كانت تأسيا بالقرآن الكريم واحتذاء حذوه، وتقديسا للتراث الأدبي العربي، وحفاظا على ما يقيم الشخصية الجزائرية من تميز واستفراد وتفريد.

وأما الجناس أو التجنيس فقد ورد في مواضع أربعة في نص المبايعة الأولى وهي:

مرات – تارات – حزم – عزم – الإمارة – الأمارة – الفرح – الترح – بيد أنه يزيد الضعفين (أي تسعة) في نص المبايعة الأخرى:

حجة – محجة – هرج – مرج – حيص – بيص – الأنداد – الأضداد – الطاهر – الباهر – المنسب – المنصب – السراء – الضراء – جمالها – جلالها – الاهتدا – الاقتدا.

والتجنيس ضروب كثيرة، منها المماثلة، وهي أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى، ومنها التجنيس التام وغير التام (الناقص)، وبعضهم يسميه المضارعة[13]، وأغلب الجناس في النصين غير تام، وقد عمد إليه المحرر ليؤثر في السامعين، لأن الجناس كالسجع، يحدث نغما عذبا تهتز له النفس وتطرب (وممن حضر هذه البيعة وبايع، وسمح لها وتابع) النص (قرأه على رؤوس الأشهاد) النص.

ومن أنواع البديع التي تخللت النصين؛ المطابقة والمقابلة. فالمطابقة عند أهل البلاغة والأدب هي: جمعك بين الضدين في الكلام أو بيت

13 – برامج ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج1، ص: 283.

شعر... قال الخليل بن أحمد:يقال: طابقت بين الشئين: إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألصقتهما.[14]

وأما المقابلة فهي << بين التقسيم والطباق، وهي تتصرف في أنواع كثيرة. وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا، وأخره ما يليق به آخرا، ويأتي في المواقف بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه>>[15]

الحق أن للمطابقة والمقابلة فضلا في إبراز دلالات المبايعة وأهمية كبرى في إظهار مقاصد البيعة، ذلك أن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما بالأضداد تتضح الأشياء وتتمايز. فالمطابقة والمقابلة في النص الأول، نجدها بين:

يحمي # لا يحمي # الحل #العقد – الفرح # الترح – الباطن – الظاهر – فاض العدل # نضب الجهل – كثر فيه الباطل # خفي فيه الحق..

والظريف للطيف في بعض المقابلات – هنا – أن المحرر اختار لفظ " الجهل" عوض لفظ " الظلم" .... وهو لم يأت به للسجع وحسب وإنما أراد أن يستثير الذاكرة، ليؤكد أن مرد الجهل هو الحمق، وأن الظلم من ينتج من الجهل أو الحمق.

كما أنه قال: كثر فيه الباطل# خفي فيه الحق.

---

14 - يراجع: ابن رشيق، العمدة، ج2، ص: 13.

15 - م. ن. ج2، ص: 23

وكان عليه أن يقول إما" أو قل فيه الحق" ولكنه عدل عن ذلك، مع العلم أن ليس هناك مانع لغوي أو بلاغي أو نحوهما... ولكن الحركة اللغوية، والثراء الدلالي. قد أكسبا المقابلة هنا وجها آخر، وفي ذلك توجيه وإشارة إلى أن الباطل مهما كثر فإنه سيقل، وان، الحق مهما خفي فإنه سيظهر، أليس بقريب؟!.

وإما المقابلة والمطابقة في النص، الآخر فنجدها في يأمرون بالمعروف# وينهون عن المنكرات، الخصوص# العموم، يعز# يذل، المسلمين# الكافرين، يكف الظالم# ينصر المظلوم، أمره # نهيه، الناهي# من يعظ(الواعظ)، أمرهم# نهاهم، السراء# الضراء، مسرته# مضرته، الخواص#العوام، أولهم# أخرهم، كبيرهم# صغيرهم.

ومما ينبغي الإشارة إليه، ونحن السجع والتجنيس والمطابقة أن المحرر عند إلى إختيار لفظتين فصحيتين، وهما: الفرح والترح: ليجمع بينهما وينتج من ذلك السجع والجناس والمطابقة، في آن واحد،)الترح هو# الهم والفقر) وهذا يدل على أن صاحب النص مقتدر بارع في اختيار اللفظ الذي يوائم مقتضى الحال، ويجلب السامع فيؤثر فيه.

ومن الظاهر اللغوية الأخرى في هذين النصين:

أ- الانزياح أو عدول اللفظ في قوله: "يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر..." فلم يقل: المنكر(مفردا) وإنما عدل عنه إلى الجمع لتطابق الحال ولمجاورة الجموع. "المنكرات والأرجاس"، وفيه إشارة ولمحة أن المعروف واحد، المنكرات كثيرة متشبعة كالأرجاس، ومما يوافق هذا ما

ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) سورة إبراهيم. الآية 1.

ب- الدقة في التعبير، والتوسع في الإيضاح من خلال الترادف واللفظ المتقارب معنى ودلالة، نحو: طوعهم واختيارهم، الضيق والترح- ذا حزم ذا عزم- وأن ينصروه نصرا مؤزرا- فرحوا به أشد الفرح-خفي ولم يظهر - خشعوا وخضعوا - بيعة كاملة تامة عامة.

ومن الألفاظ التي تكررت في النصين: النصر- الرعاية- العضد- الحماية- الكافرين- المسلمين- الحق- الصدق- الإسلام- السلام.

ولاشك أن التكرار في النصين مسوغات وعللا، أهمها:

أن المحرر يريد بذلك تأكيد بعض المعاني وترسيخها في ذهن السامع حتى يكون على بينة من أمر المبايعة فيفي بالعهد ولا ينكث. وبذلك رأى البلاغيون أن "للتكرار مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ[16] .

ج- إذا كررنا الطرف في نصي المبايعة قلنا إن قصر الجمل ظاهرة لافتة، لاسيما في نص المبايعة الثانية، وهو أمر مقصود كي تتساوى الفقر المسجوعة، إذ إن أفضل السجع ما تساوت فقره كما ألمعنا إلى ذلك آنفا.

د- وجود بعض الصيغ الصرفية الدالة على التوكيد والتفضيل والكثرة والقوة، كصيغ التفضيل في: أشرف- أكرم- أسنى- أشد، وصيغ الوزن فعل- نحو- فضل- طهر- شرف- بين...

---

16 - ابن رشيق- العمدة، ج2، ص: 92.

ه- ظاهرة الاقتباس والاستشهاد، والاقتباس من البديع؛ وهو "تضمين النثر أو الشعر شيئا من القرآن الكريم أو الحديث من غير دلالة على أنه منهما"[17] ومن أمثلة الاستشهاد قوله "وبعد؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: إن الله يحمي بالسلطان مالا يحمي بالقرآن". وفي قوله: "لقوله الصادق الأمين: الدين النصيحة، لله ورسوله ولأئمة المسلمين"، ثم تراه بعيد ذلك يقتبس الآية ويضمنها في قوله:" ومن نكث، فإنما ينكث على نفسه."

وفي نص المبايعة الأخرى ألفينا الاقتباس بعد ذكر الكتاب حيث جاء في النص <<فبايعوه على كتاب الله الكريم "إن الذين يبايعونك، إنما يبايعون الله*، يد الله فوق أيديهم".

فضمن هذه الآية من غير أن يذكر أنه من كلام الله، وهذا أبلغ وألطف.

و- وجود حركية لغوية أكسبت نص المبايعة الثانية تجددا وذلك من خلال كثرة الأفعال التي أربت على الستين(60) فعلا في نص المبايعة الثانية.

ز- البدء في نص المبايعة الثانية بالمصدر أو لنقل المفعول المطلق، فقد ورد: حمدا لمن فضل أمة محمد، وصلاة وسلاما على من صدع بالحق... والافتتاح بالمصدر أبلغ وأقوى عند النحاة.

---

17 - علي الحارم، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 270.

* - ورد لفظ" بايع" وتبايع" في القرآن الكريم (7) مرات، وفي أربع (4) سور هي: البقرة 282، التوبة 111، الممتحنة: 12، الفتح: 10-18

هذا وإن هناك ظواهر لغوية أخرى في نصي المبايعة، تقتضي منا القراءات المتأنية المتفحصة، ربما تسنح فرصة أخرى لرصدها وتقصيها.

خلاصة: وصفوة القول؛ إن نصي المبايعتين يكشفان المستوى اللغوي الذي كان عليه الكتاب والأئمة والخطباء آنذاك، ويبين عن علاقتهم وارتباطهم بالموروث اللغوي والأدبي، وذلك من خلال دقة التعبير، واختيار اللفظ، وتوظيف البديع، وحسن السبك، وجودة التأليف.

الجزائر تسلم القادرية راية الجهاد بمبايعة الأمير

الدكتور اسعيد عليوان[1]

تعد الطريقة القادرية من الطرق الجزائرية التي اختارت الجهاد وسيلة لتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي، وبذلك خندقت نفسها في الجبهة التي سيسلط عليها الاستعمار الفرنسي النكال والتدمير. في حين وجد من بعض الطرق من أثر ورغد العيش والمسالمة، بل والخيانة مقابل متاع زائل وملك مفقود. يعطي اليوم ليترع غدا، وهنا نجد أنفسنا أمام إشكالية يمكن أن تطلق عليها:

إشكالية الموقف من الاستعمار الفرنسي: ونقصد بالموقف من الاستعمار الفرنسي موقف الطرق الصوفية الجزائرية منه. باعتبارها مؤطرة للمجتمع الجزائري غداة الاحتلال ابتداء من احتلال الجزائر العاصمة في 1830م، ذلك أن الجزائر كانت تعج بالطرق الصوفية المختلفة الأحجام والأخطار والتصورات حاعلة هدفها. على الأقل كما يقول أصحابها التربية السلوكية والرقي الروحي بالإنسان المسلم بما يقوم به من تحلية وتخلية، وذكر وورد، وتطهير السر والعلن. متحلية بالإسلام الذي نبعت منه تريد جعل الإنسان المسلم ملاكا يسير فوق الأرض.

ولكنه لما دخل الاستعمار الفرنسي انقسمت هذه الطرق حياله إلى قسمين، أحدهما قرر الجهاد ليحرر البلاد كالقادريين والسنوسيين

1- أستاذ محاضر في كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة

والرحمانيين والآخر قرر القعود. عنه كالتيجانيين بحجة أن هدفه التربية السلوكية والرقي الروحي لا الاشتغال بالسياسة ووصل الأمر إلى إصدار فتوى بتحريم الجهاد. ضاربا عرض الحائط بمئات الآيات القرآنية وما لا يحصى من الأحاديث الصحيحة، وأيضا ما لا يعد ولا يحصى من الصفحات الفقهية المتعلقة به، وهنا تطرح تساؤلات كثيرة منها:

- هل الإسلام يتمثل في الأوراد والأذكار وحدها وترك العدو الكافر يعيث في بلاد المسلمين فسادا دون ودع؟ وإذا كان ذلك كذلك فكيف تفسر التعاون مع العدو؟ وهل مقاومته اشتغال بالسياسة والتعاون معه ليس اشتغالا بالسياسة؟ هل الجهاد لا علاقة له بالجانب الروحي وهو في الشرع يمثل ذروة سنام الإسلام؟

- لماذا قررت بعض الطرق العيش في أحضان الاستعمار الفرنسي والتنعم بما يغدق عليها من أموال وامتيازات من جهة، والمحافظة على أملاكها ومكتسباتها من جهة أخرى، في حين قررت طرق أخرى الجهاد وفي كثير من الأحيان كانت تعلم أنها لن تحقق نصرا شاملا، بما يعني أنها فضلت الموت ومصادرة أملاكها والاعتقالات والتنكيل بها؟ إن اختيار الموقف في تصورنا ناتج عن فهم طبيعة الإسلام وحقيقته، والصدق معه، وكل صدق معه ينتج عن الصدق مع الوطن.

ولقد اختارت الطريقة القادرية الموقف المتمثل في الجهاد لتحرير الجزائر مما جعل الشعب الجزائري يبايع ممثلها الأمير عبد القادر أميرا ليقوده في الجهاد وليعيد بعث الدولة الجزائرية التي سقطت في 1830م. وموقفها ناتج عن فهمها الشمولي، آنذاك لحقيقة الإسلام بما هو نظام حياة وأن

الجهاد ذورة سنامه ومن أكبر عوامل الرقي الروحي. وأن الموت في سبيل الإسلام والوطن خير من العيش تحت سلطة الكفار بكاملها هـي دولـة الأمير عبد القادر. ولقد رفعت راية الجهاد و لم تنكسها أبدا فائدة ومفودة. وهنا ننتقل إلى التعريف بهذه الطريقة.

تعريف مختصر بالطريقة القادرية:

تنسب هذه الطريقة إلى القطب أبي محمد عبد القادر الجيلاني[1] (ت 561هـ/1165م)، الذي ينتهي نسبه إلى الحسن بن علـي رضـي الله عنهما[2] تأثرا كثيرا بمنهج الغزالي (ت 505هـ/111م) من حيث فقهه وعلمه بالأصول والفروع[3]. وتعد هذه الطريقة أول طريقة منظمة دخلت للغرب الإسلامي من خلال القطب الغوث أبي مدين شعيب بن الحسـن الأندلسي (ت 594هـ/ 1197م) الذي قابل مؤسسها في جبل عرفـة أثناء أداء كل منهما فريضة الحج فأخذ عن الطريقة[4]. والذي يهمنا في بحثنا هذا أنه أول زاوية خاصة بالطريقة القادرية في العهد العثمـاني بـالجزائر

---

1 - العياشي أبوسالم (رحلة العياشي) ماء الموائد، ط هجرية، دار الطباعة، فاس، 1316هـ، ج2، ص219.

2 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ط هجرية، مكتبة و مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ج1: ص108 .

3 - أبو الوفاء التفتزاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي: ط3، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة: 1988م، ص237

4 - أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، بطريقة، بتطريز الديباج، ط1، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا

أسسها العلامة مصطفى الفرسي في أواخر القرن 12هـ/18م[1] وهي التي أصبحت تعرف بمعهد القيطنة الواقع على وادي الحمام قرب معسكر وكان مؤسسه العلامة مصطفى بن المختار (ت 1212هـ/1797م) جد الأمير عبد القادر الذي حج أربع حجات وفي إحداها خرج على بغداد لزيارة ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني ثم رجع قادريا عازما على تأسيس زاوية للتعليم وفسر الطريقة[2]. وجدد هذا المعهد تلميذ العلامة مصطفى بن المختار الباي محمد بن عثمان الفاتح من 1206هـ/1791م وبعد وفاة ابن المختار أصبح يشرف على المعهد ابن محي الدين (ت 1249هـ/1833م) والد الأمير وبعد وفاة المجاهد الشيخ محي الدين تولى إدارة المعهد الزاوية ابنه وتلميذه وخريج المعهد عبد القادر[3] قاومت الاستعمار أكثر من 17 عاما تحت قيادة عبد القادر[4]. وهنا ننتقل إلى ظروف البيعة:

تمت بيعة الأمير عبد القادر في أحلك الظروف التي عرفتها الجزائر، مما يجعل توليه لقيادتها بناء على تلك البيعة مناقضا بما كان عليه الملوك المسلمون آنذاك. فقد كانوا يتصارعون على السلطة وبلادهم آمنة لبالوا الامتيازات والجاه والرفاهية، أما الأمير عبد القادر فقد تولاها لحمل راية

---

1 - ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، ط1، وزارة الثقافة والسياحة، م و ك، الجزائر، 1984م، ص230

2 - أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، ش وت ن ت، الجزائر 1981م، ج1 ص520، 522 .

3 - ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص230 .

4 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 520، 522 .

الجهاد، أي للنزال والصعاب والمحن وهو ما يجعل الناس يزهدون في السلطة في هذه الظروف. وإذن لا غرض دنيوي كان يتوخاه الأمير منها. هـــذه الظروف الحالكة هي:

-سقوط الجزائر في 1830م. وإذن زال النظام السياسي الجزائـــري ممـــا جعل الجزائر في فوضى عارمة، كعقد انفرط.

ودايها حسين بدل أن يحمل راية الجهاد فضل الاستسلام ومغادرة الجزائر.

وباي وهران بدل أن يقاوم أعلن ولاءه للفرنسيين وباي التيطـــري نصب نفسه دايا طالبا من البايات الاعتراف به ويتعسف، ويظلم إلى حد جعل سكان المدينة يتصلون بالجنرال كلوزيل[1] يطلبون منه إنقاذهم مـــن تعسفه وبطشه[2]. كل هذا والبلاد كلها مهددة بالدمار والتنصير. يضـــاف إلى هذا تآمر بعض الطرق الصوفية وموالاتها للعدو. وموقف الجيران حيث

---

1 - هو كلوزيل، ولد في سنة 1772م، وتوفي في 1842م، تولى قيادة الجيش الفرنسي في الحملة على الجزائر مرتين، من أوت 1830م إلى فيفاير 1831م ومن جويلية 1835م إلى فيفري 1837م. عزل لفشله في الحملة على قسنطينة ولهزائم أخرى. ثم التحق بمجلس النواب. امتاز عهده بالغطرسة والقمع الرهيب، ارتكب أبشع الجرائم كتهديم المساجد وتحويل بعضها إلى كنائس ونهب الأموال وتهديم القيصرية والاستيلاء على الأوقاف وارتكاب المجازر الرهيبة كتقطيع الرضع على صدور أمهاتهم في المدينة. اقترح بابادة جميع الجزائريين بعد أن جردهم من ممتلكاتهم لأن ..... هي إبادة للإسلام في تصوره. (أبو القاسم سعد الله. الحركة الوطنية، جـــ1، ص 33، 34، حمدان خوجة، المرآة تقديم وتقريب وتحقيق محمد العربي الزبيري: ط2، ش و ن ، الجزائر 1982م ص 234-300 تقديم العربي الزبيري للمرآة ص 37، 38)

2 - حمدان خوجة، المرآة، ص 299، 300.

وصل الأمر بباي تونس أن طلب من الاستعمار بيعه مقـاطعتي وهـران وقسنطينة بمليون فرنك سنويا عن كل واحدة [1] . وهكذا ندرك الظـرف العصيب الذي تولى فيه الأمير قيادة البلاد ولقد أدرك الشعب الجزائري هذا الظرف وخطورته الحضارية والوجودية فاختار الشيخ محي الدين ليبايعه أميرا فاعتذر لعلمه بعجزه عن قيادة البلاد وإعادة بعث الدولة الجزائرية من جديد بسبب شيخوخته، ولكنه نبه إلى أنه بامكانات ابن عبـد القـادر واستعداده لحمل راية الإسلام من جديد لدحر الغزاة فوقعت البيعة، وها نتنقل إلى تحليل محتواها.

تحليل محتوى البيعة

عندما نحلل نص البيعة نجده يحتوي على قضايا جوهرية يهمنا منها يتعلق بموضوعنا ما يأتي:

1. الإمامة قضية دينية: وقد بدأ نص البيعة الأولى بذكر هـذه الحقيقـة بقوله: ((الحمد لله الذي جعل نصيب الإمام من مهمات الدين لتصان به النفوس والأموال وتجتمع كلمة المسلمين)) [2]. والواقع أن ما قرره الأمـر هنا، هو ما أجمع عليه جمهور علماء المسلمين من أنه ((لابد من إمام يقيم الجمع وينظم الجماعات وينفذ الحدود، ويجمع الزكاة ويحمـي الثغـور ويفصل بين الناس في الخصومات بالقضاة الذين يعينهم، ويوحد الكلمـة

---

1 – وقد كتب بروتوكول الاتفاقية وأيضا عن الطرف التونسي السيد مصطفى أحو باي تونس وعن الطرف الفرنسي الجنرال كلوزيل.

2 – الأمير عبد القادر، نص صك البيعة الأول، مجلة مسالت، جوان 2003، ع خ ص ص5.

وينفذ أحكام الشرع، ويلم الشعث ويجمع المتفرق ويقيم المدينة الفاضلة التي حث الإسلام على إقامتها[1]. وهي موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا. وعقدها بها في الأمة واجب بالإجماع[2]. وعندما حلل الوثيقة تحليلا نفسيا ندرك أهمية هذه القضية في تصور الأمير إلى حد أنه أوردها قبل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد زاد هذه القضية توضيحا في نص البيعة الثانية العامة مما يدل على أهميتها القصوى عنده. قص قائلا: (.... وأوجب عليهم نصب إمام عدل، وفرض عليهم أتباعه في القول والفعل، ليكف الظالم وينصر المظلوم ويجمع شملهم بالخصوص والعموم، ويكافح بهم عدو الدين لتكون العليا كلمة المسلمين[3] وأورد هذا أيضا قبل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

وهنا نتساءل: لماذا أعطى هذه القضية كل هذه الأهمية؟ والجواب في نظرنا يتمثل فيما يأتي:

1. أنها قضية دينية لا يجوز التفريط فيها، إذ هي حارس الدين وحافظ مصالح المسلمين وهو ما أجمع عليه المسلمون كما أشرنا قبلا. وبانفراطها يصبح المسلمون كلاً مباحا للأحني.

---

1 - محمد أبوزهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، دط: دار الفكر العربي: القاهرة، دت، ص80.

2 - الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الأحكام السلطانية والولايات الدينية/ دط، المكتبة التوفيقية، القاهرة: 1979م، ص5.

3 - الأمير عبد القادر، نص البيعة الثانية..... مجلة معالك

2. خطورة الوضع في الجزائر بعد سقوط نظامها السياسي في 1830م إذ لايمكن بدون حاكم مسلم إرجاع الأوضاع إلى نصابها من تحرير البلاد وتوحيدها.

3. إلجام ألسنة المتخاذلين من الطرق الصوفية الذين كانوا ينادون بأن الاستعمار قدر من الله لا يجوز مقاومته، وأن الدين يقتضي منا المهادنة والولاء للحاكم حتى ولو كان كافرا. وإن لا يجوز الجهاد. وقد بين تطور الأحداث صحة تصور الأمير عبد القادر.

2. تحليل الوضع الجزائري، آنذاك وتبيين خطورة الموقف: وهو ما يحتم الجهاد، والجهاد لابد له من قيادة شرعية: بين ذلك باختصار ودقة من ذكره تشتت الكلمة فالتجاء الناس إلى والده لمبايعته واعتذاره لعجزه عن ذلك، وتوجيههم إلى ابن عبد القادر الذي قبلها مكرها بعد إلحاح الجماهير الكثيرة[1]

3. **شرعية البيعة:** وذلك لتوفر الشروط الشرعية فيها، فهو لم يطلبها وهو ما يتوافق مع الشرع. بل فرضت عليه فرضا، بايعه أهل الحل والعقد والعامة وهو ما يتوافق مع الشرع ويجمع عليه المسلمون. كما شهد العلماء على هذه البيعة، كما بايع الجمهور ومن عدة مناطق مما يجعل بيعته ملزمة لكل المناطق الجزائرية وبذلك أصبحت هذه البيعة شرعية، كما أن الشروط التي حددها الفقهاء للإمام متوفرة فيه من العدالة والعلم وسلامة الحواس والأعضاء وسداد الرأي والنسب[2]، والاجتهاد والإسلام والحرية والذكورا

---

1 - الأمير عبد القادر، البيعة الأولى، ص 5، 6.

2 - الماوردي، المصدر السابق، ص6

...إلخ ومعنى شرعية البيعة أنه أصبح الإمام الشرعي للشعب الجزائـــري. وهو بذلك أعاد النظام السياسي للجزائر بعـــد أن أســـقطه الفرنســـيون بإصلاحهم للجزائر وبهذا فقد أصبح:

1- من حقه تنظيم الجهاد والإعداد له وإعلانه لتحرير الجزائر وجمع كلمة الشعب ليكونوا يدا واحدة لتحقيق هذا الغرض.

2- من واجب الرعية شرعا طاعته. وهو ما كرره الفقه الإسلامي، من أن الرعية إذا بايعت باياها وقام بما يجب عليه القيام به وجب له عليها حقان. الطاعة والنصرة[2]. وبهذا فمن خرج على الأمير يعد خارجا عن طاعة الإمام الذي حرم الله الخروج عليه.

وإذن فمن حق الأمير شرعا تأديب مناوبيه والخارجين عليه لـــيس بكونه رئيسا للطريقة القادرية. بل بكونه أميرا للجزائر قاطبـــة. وبهـــذا يستطيع أن يكون بلغة اليوم رئيس دولة فعلي.

4- واجب مبايعة تجاهه: ونص ذلك: ((فعلى من بايع أن يبـــذل جهده في نصرته وعضده))، وكل على وجوب هذه النصرة بحديث النبي صلى الله عليه وسلم ((الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه[3])). هذا الواجب هو ما قرره المسلمون فيما يتعلق بواجب الرعية تجاه الإمام من الطاعة والنصرة كما ذكرنا قبلا.

---

1 - عبد الرزاق السنهوري، المرجع السابق، ص110، 111.

2 - الماوردي، المصدر السابق: ص17

3 - الأمير عبد القادر، نص صك البيعة 1. ص6.

5- تحديد طبيعة نظام حكمه: ويتمثل في القيام على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. ونص ذلك ((فبايعوه على الكتاب والسنة... ((إن الذين يبايعونك غنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم))[1] وقد أورد بعض ما ورد في نص بيعة العقبة الثانية ((يمنعون عنه السوء بما يمنعون به أنفسهم وأولادهم وأموالهم... يطيعونه ما ساسهم بالشريعة الغراء وينصرونه في السراء والضراء.....))[2] وقد مدد في نص بيعة العقبة الثانية قال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار المبايعين له ((أبايعكم على السمع والطاعة أن تمنعوني مما تمنعون فيه نساءكم وأبناءكم))[3] وقد بايعوه على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وأن يؤثروه على أنفسهم[4]. وهكذا يظهر بجلاء وتشبع الأمير بالإسلام وقيمه ونهله من منبع النبوة الصافي.

6- إعادة إقامة الدولة الجزائرية بعد استيلاء فرنسا على الجزائر:

وهو ما بينه بنصه في نص البيعة الثانية بقوله:

((ولما انفرضت الحكومة الجزائرية من سائر المغرب الأوسط وأستولى العدو على مدينتي الجزائر ووهران... وطمحت نفسه العاتية إلى الاستيلاء

---

1 - سورة الفتح / 10.

2 - الأمير عبد القادر. نص البيعة الثانية ..... ص7.

3 - ابن هشام. السيرة النبوية تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط2. مصطفى البابي الحلبي، مصر. 1955م.م1: ص 442.

4 - المصدر نفسه: ص 454.

على السهول والجبال... وصار الناس في هرج ومرج، وحيص وبيص))[1].

وبعد هذا العنصر الأخير أول ما تمخضت عنه البيعة في الميدان العملي، وهنا نصل إلى نتائج البيعة.

نتائج البيعة:

نكتفي بالإشارة إلى نتيجتين مهمتين هما: إقامة الدولة وتنظيم الجهاد.

1. **إقامة الدولة الجزائرية:** أول بادرة الأمير هو إعادة النظام السياسي لتسيير شئون البلاد وذلك بهيكلة الدولة من تنظيم الحاشية وتعيين الوزراء والقضاة والنقاب للخزينة والأوقاف والزكاة وإنشاء مجلس الشورى وتعيين قاضي القضاة ورد المظالم وغير ذلك[2]. وهذه القضية تعد من الأهمية بمكان، ومن خلالها نصل إلى قضية الجهاد.

2. **إعلان الجهاد والإعداد له:** لن نشير هنا إلى حروب الأمير الكثيرة وعبقريته الفذة في ذلك. وإنما نكتفي بالإشارة إلى تأطيره للخاصة والعامة بإقناعهم بفكرة الجهاد. ولاسيما بعد إصدار ليون روش ومحمد التيجاني فتوى تحريمه. مبتدئين بالإشارة إلى فحوى الفتوى مبتدئين بالإشارة إلى فحوى الفتوى.

---

1 - الأمير عبد القادر: نص البيعة الثانية، ص7

2 - مجلة مسالك (عدد سابق)، ص8.

فتوى ليون روش [1] وأحمد التيجاني بتحريم الجهاد ضد فرنسا:

هذه الفتوى تنص على تحريم جهاد الفرنسيين المستعمرين وتأمر بوقف الجهاد ضدهم فورا ووضع أسلحتهم والحجة: أنهم في بلد إسلامي. وإذا تغلب العدو الكافر على المسلمين حرم عليهم مجاهدته، لأن ذلك نوع من الانتحار. والغريب أن هناك اليوم من المسلمين من يعتبر العمليات الاستشهادية في فلسطين انتحارا. كما أنه لا يجوز الهجرة من الجزائر. لأن الجزائر ليست دار حرب بل ما تزال دار إسلام مادام العدو الكافر قد تعهد بترك المسلمين يمارسون عبادتهم. ولا يجوز للجزائريين إتباع الأمير عبد القادر، أو مناصرة أي مجاهد يعلن أنه يريد طرد الكفار[2].

تأثير هذه الفتوى السلبي: لقد أثرت هذه الفتوى كثيرا في العامة أتباع بعض الطرق الصوفية، كما أثرت في جانب من العلماء الذين كان

---

1 - ليون روش جاسوس فرنسي اندس في جيش الأمير بعد أن أعلن إسلامه بفترة من الزمن، وكان من أتباع بوحو. ويأمر بوحود أصدر مع التيجاني فتوى تحريم الجهاد ضد فرنسا واشترك في تحريرها مع التيجاني. وأحلها إلى الحرمين الشريفين لإقناع العلماء بها. لوكن السنوسي رفضها وأصدر فتوى بوجوب الجهاد وعدم التعايش مع النصارى.
وقد تغلب ليون روش بعد ذلك في عدة وظائف سياسية، منها قنصل فرنسا بتونس ابتداء من غرة جويلية 1855م. وكان يحسن العربية نطقا وكتابة ويستشهد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف (أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية. ط. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، ج1، ق1، ص 313. أيضا ابن ابي الضياف، اتحاف أهل الزمام بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. تحقيق لجنة من كبار كتابة الدولة للشئون الثقافية والأخبار، ط. كتابة الدولة للشئون الثقافية والأخبار، تونس، 1963، ج4، ص 216، 217).
2 - أبو القاسم سعد الله . المرجع السابق. ص267.

أغلبهم كما وصفهم ابن العنابي ((مشتغلين بتكوير العمائم وإطالة أكمام الجبائب وصبغ اللحي والشوارب. والتكثير من حبات السبح والتحولق والحوقلة والسبحلة، والتقرب من ذوي السلطان... أما أمر الجهاد عندهم..... فقد أصبح من الذكريات الخوالي، لا يقرأ إلا كآيات في القرآن أو عبارات في الأحاديث النبوية أو في أبواب الجهاد في الكتب الفقهية[1]. وهنا ندرك الضغوط النفسية الصعبة التي يجب على الأمير أن يزيلها. والجو النفي والمعنوي الذي إله أمر الناس والذي لايمكن للأمير أن يجاهد أو يواصل إلى حد ادعاء الفرنسيين أن تلك الفتوى أدت في وقتها أكبر خدمة لتأسيس الاحتلال الفرنسي للجزائر. وهكذا تطالب على الأمير: الفرنسيون بخيلهم ورجالهم. وسلطان المغرب بجيشه وحدوده وخذلانه بعض الطرق الصوفية في الداخل وتنشيط عزائم الأمير ولقد أدرك الأمير خطورة كل هذا. ومادمنا نتكلم هنا على الجانب المعنوي، فإننا نقول: بأن الأمير كان أقوى من المخذلين. ومما واجه به الموقف ما يأتي:

1- الالتجاء إلى علماء الدين بالتقرب والمواسلة: فاتخذهم مستشاريه كما راسل البعيدين، ومن ذلك ما كتبه إلى أهل فاس الذين كان المثبطون قد أرسلوا إليهم فتوى تحريم الجهاد. يستفتيهم عن الموقف من الذين أنظموا إلى الكفار إذ تواطئوا معهم قائلا: ((ما حكم الدين في ذلك؟ وما حكم الشرع في المتخلف عن الجهاد والدفاع عن الحريم والأولاد رغم دعوة الإمام له بالجهاد؟ وهل تؤخذ أموالهم وإسلاهم؟ وما

1- المرجع نفسه. ص 275، 276.

الموقف مع من رفض دفع الزكاة للإمام)). ونلاحظ هنا توظيف الأمر لمقتضى البيعة التي بموجبها صار إماما يجب طاعته على الرعية. ومن العلماء الذين أجابوه عن هذه الأسئلة الشيخ علي بن عبد السلام التسولي في مجلد معتبر.

كما راسل علماء مصر من 1263هـ/ 1847م حول موقف سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام من الأمير مينا تحالفه مع فرنسا ضده والاستيلاء على أرزاق الأمير وأسلحته، بل والأمر بتله وبوقوفه ضد الجهاد. وهذه شهادة تاريخية لا تقدر بثمن.

وقد رد عليه الشيخ عليش مفتي المالكية بمصر تأثر هذا السلطان خارج عن قواعد الدين ويجب مقاومته وعدم طاعته لتحالفه مع الكفار[1].

وهكذا كانت الرسائل من أهم وسائل استمالة القلوب و لم تقتصر على العلماء وحدهم بل كانت توجه إلى الجهاد والعامة فكانت في مختلف جهات الوطن وخارجه وقد زادها تأثيرا قوة حجتها وصدى عاطفتها ونبوعها من صدر مملوء بالإيمان وعقل يفيض بالاقتناع. وشجاعة في الميدان نادرة. ومواضع لا نظير له فكانت توقظ الهمم وتلفت انتباه الناس إلى ما لا يدر كونه من كيد الاستعمار وما يحفظ في نطاقه. ومن ذلك ما كتبه إلى أهالي الشرق الجزائري في الحث على الجهاد ومقاطعة الاستعمار اقتصاديا ومنبها للناس على خداع فرنسا لهم قائلا: ((لقد اعتقدتم في كلامهم السفيه وأطعتم الكفار، ولكنهم اغتنموا فرصة غيابي عنكم وخانوا

---

1 - المرجع نفسه: ص 277.

عهدهم لكم، وهاهم قد لطخوا مساجدكم وأخذوا منكم أحسن أراضيكم وأعطوها لأبناء جنسهم واشتروا أعراض نسائكم... ورأس عليكم مسلمين ملاعين أشتروهم بأموالهم، وسجن أشرافكم ومرابيطكم في بلاد النصارى... إنكم اليوم تحت رئاسة رومي، يقاضيكم رومي، ويدير شئونكم رومي، وهو يسوقكم سوق القطيع إلى السوق... أيها المسلمون: لقد حان وقت اليقظة، فاخفضوا على سماع صوتي، لقد وضع الله سيفه الملهب في يدي، وسنمضي جميعا نروي سهول أرضكم بدماء الكفار))[1].

ما أعظم هذا الكلام وما أشده تأثيرا ووقعا في النفوس، كيف لا وهو يمس المسلم في صميم دينه قائلا: ((أنكم اليوم تحت رئاسة رومي. يقاضيكم رومي، ويدير شئونكم رومي... ومع ذلك هناك من يدعي الإسلام ويحرم جهاد الكفار لإبقاء المسلمين تحت قهرهم وإذلالهم مقابل متاع زائل.

2- **الالتجاء إلى الطرق الصوفية:** حيث قربهم وراسلهم يطلب منهم إيقاظ همم الناس بالدعوة للجهاد وإجابة دواعي الشرع واستخدام نفوذهم الروحي في ذلك. وعين كثيرين منهم في وظائف دولته وجعلهم الأمناء على مصيرها كما يقول أبو القاسم سعد الله[2].

---

1 -المرجع نفسه، ص 277، 278.

2 - المرجع نفسه. ص 277.

الخـــاتمـــة

نتوصل مما سبق إلى ما يأتي:

منهج الأمير عبد القادر السابق ذكره حقق مجموعة من القواعـد، منها:

-استنهاض همم العلماء والعامة، وإقامة حركة فكرية وحوار علمي بنـاء يرد المثبطين على أعقابهم خاسئين.

-إرباك الخصوم الذين اعتقدوا أنه متفرغ للإعداد المادي للقتال محاربين أنه يصل دولة فعلي في شئون الأحداث وأنه يعد بالفعل مستلم زمام الدولـة من العثمانيين وأن دولته تفوق عهدكم تنظيما وحداثة.

-رفع معنويات المجاهدين وقطع تردد المترددين وتأسيس المثبطين والخونـة ولاسيما أتباع بعض الطرق الصوفية.

ونتوصل من خلال ما سبق إلى ما يأتي:

1- الأمير عبد القادر يعد مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة. أقامها علـى تقوى من الله ورضوان ابتداء من بيعته وأنه موقظ الضمير الجزائري الأكبر بأفعاله وأقواله طيلة عهد جهاده المتمثل في 17 عامـا. وكـان هدفـه الأساسي بعد الدولة: إيقاظ ذلك الضمير. يجعله الجهاد في سبيل الله وسيلة والحدة الوطنية هدفا وهو ما جعله طيلة عهده لا يفرق بين قبيلة وأخـرى ولا يتدخل في شئون طريقه من الطرق الصوفية فتجاوز كونه شيخ طريقة ليصبح رئيسا لكل الجزائريين هدفه النهائي تحرير البلاد ووحدة سـكانها وهو ما جعله محبوبا وقد عرف قدره أكثر بع غيابه لأنه تـرك فراغـا لم يتمكن غيره من ملئه.

أن قيم الأمير جعلته بطلا أسطوريا جعلت الفرنسيين ييأسون من خيانة أتباعه له عكس كثير من العظماء. فقد حاولوا إيجاد خائن يغتاله أو يسممه ففشلوا. عاش يطلب الموت في سبيل لتوهب له الحياة مما جعله غير محتاج إلى حراسة أو بوابين، فبإمكان أكل الكسكسي تحت أي خيمة وأن يشرب من أي نهر ومن أي كوب دون أن يخشى سماً[1]، ولاغرو فقد نشأ وترعرع في أحضان الإسلام فتمثله في كل شئ.

2- التوارث التي جاءت بعد الأمير كانت الأمور قد وضحت لها بفضله فاتخذت الجهاد وسيلة. و لم تتمكن فرنسا بعد ذلك من إقناع الناس بفتاوى تحريم الجهاد. ولا بالقمع فاستمرت الثورات الواحدة تلو الأخرى تقدم المشعل لبعضها البعض، وهكذا فإن لم يتمكن الأمير من تحقيق نصر نهائي شامل على العدو. فإنه أعطى المشعل لم حققوا ذلك سنة 1962م.

والله الموفق للصواب.

---

1 - المرجع نفسه، ص 278، 279.

الأستاذ الدكتور رابح دوب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد، في البداية أشكر السيد نائب رئيس الجامعة للدراسات العليا على قيامه بهذه المبادرة الطيبة لتنظيمه هذه الندوة حول مبايعة الأمير عبد القادر.

فقد استفدت كثيرا من مداخلات الأساتذة الأجلاء حول البيعة الأولى والثانية على الرغم من الوقت المخصص (10) دقائق للمداخلة وهي غير كافية وأتمنى أن تبادر نيابة رئاسة الجامعة للدراسات العليا بمبادرة أخرى حول شخصية الأمير عبد القادر المتعددة (الأدبية، الصوفية، السياسية، الدبلوماسية، القضائية ...) وأريد هنا أن أنوه بمداخلة الأستاذ ناصر لوحيشي في قراءته اللغوية والبلاغية لنصي المبايعة الأولى والثانية وبخاصة تركيزه على جانب البديع الذي يؤثر تأثيرا إيجابيا في المتلقي، و يا حبذا لو ركز على براعة الاستهلال وحسن التخلص وحسن التتميم ... ربما سيكون للأستاذ وقت آخر للتعمق أكثر.

وشكرا.

ردّ الأستاذ ناصر لوحيشي

أشكر للأستاذ الفاضل الدكتور رابح دوب حضوره وتدخله وأثمن ما قال... ولعلّ الوقت المخصص للمداخلة هو الذي جعلني اقتصر في مقاربتي على أهم الظواهر اللغوية البلاغية في نص المبايعة بشقيه، كالسجع، والمقابلة، والمطابقة، والتجنيس، وكثرة الأفعال، وطغيان بعض الصيغ..

يحي بوعزيز :

استفسار حول المصدر الذي أثبت أن تونس والمغرب عرضتا على الضابط الفرنسي كلوزيل تقديم مبلغ مالي (مليون فرنك) للاستيلاء على إقليم قسنطينة بالنسبة لتونس وإقليم وهران بالنسبة للمغرب الأقصى.

الدكتور عميراوي احميده

وجهة نظر حول ما طرح من : كيف بويع الأمير عبد القادر وفي عنقه بيعة للخليفة العثماني؟

لم تكن العلاقات حسنة بين علماء غريس وأسرة الأمير وبين النظام العثماني. لأنه سبق لباي وهران أن ضايق الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر. بالإضافة إلى ما يبدو من موقف رجال السلطة العثمانية المشوب بالحذر والريبة في شخص الأمير لكونه جزائريا عربيا. وهو ما يفسر أن العلاقات بين الأمير ورجال السلطة العثمانية لم يكن إلاّ عام 1840. وبالإمكان الرجوع إلى كتابي دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (دار البعث-قسنطينة 1987).

تعقيب على مداخلات الجلسة الثانية

الأستاذ حسان موهوبي

نشكر الزملاء المتدخلين، لكن ما زلت مصرا على الموقف السابق وهو: من خلال ما قدم في الجلستين، لم ينحل الغموض والإلتباس بعد حول تحديد مفهوم البيعة ولأصولها الشرعية بالقدر الذي يزيل الإشكال بين كونها اختيار ثم رضا وقبول فطاعة بعد ذلك، وبين كونها استيلاء صرف وهو أحد التعاريف لها.

ثم لا يمكن أن نهمل ونحن نتكلم عن البيعة وتأصيلها الشرعي عنصر الاجتهاد في تحديد واقع البيعة والمبايعة، فالاجتهاد كان ومازال أصلا شرعيا أيضا ما لم يناقض بنص شرعي صحيح، بل هناك من النصوص ما اختلف حوله بين طوائف المسلمين في الزمن الأول.

والسؤال هو ماذا بعد البيعة والمبايعة إذا لم يكن هناك رضا أو قبول تام. فهل قاوم الأمير معارضيه أم ماذا؟

وفي الأخير أقول: من وجهة نظري أن البيعة اختيار واستيلاء في ذات الوقت.

وشكرا

الدكتور إسماعيل سامعي

شكرا، لدي سؤالان:

السؤال الأول:

من أجل تدقيق المصطلح فلابد من معرفة الفرق بين عناصر أو قواعد الحكم في الإسلام مثل الاختيار، والمبايعة بنوعيها، وعليه هل تعد إشارة أو اقتراح والد الأمير عبد القادر بمبايعة ابنه ينوب عن أهل الحل والعقد، ومنهم أهل الحل والعقد في تلك الظروف؟

السؤال الثاني:

في عنوان المحاضرة الدكتور أسعيد عليوان: الجزائر تسلم القادرية راية الجهاد بمبايعة عبد القادر أميرا د، فهل سلمت إلى الطريقة القادرية فعلا؟ وإذا كان ذلك فأين تظهر بصماتها؟ أم سلمت إلى الأمير عبد القادر الذي كان شخصية منفردة فكان له أسلوبه، وجهوده الخاصة من خلال واقعه الذي يعيش فيه؟

الأستاذ خليفة حماش:

للفصل في نوع البيعة التي بويع بها الأمير، أهي بيعة خاصة محلية، أم هي بيعة عامة باسم إمام وخليفه، (مع العلم بأن نص البيعة استخدم " لفظة إمام") يجب الرجوع إلى مراسلات الأمير نفسه مع الجهات الخارجية لمعرفة المصطلحات التي كان يستخدمها للدلالة على نفسه. ولما نرجع إلى مراسلاته مع دي ميشيل التي نشر بعضها الدكتور عبد الحميد زوزو في مجلة التاريخ عام 1983 ومراسلاته مع الحكومة الإنجليزية التي نشرتها الأستاذة فريدة هلال في المجلة نفسها، نجد أن الأمير كان يستخدم مصطلح "أمير المؤمنين" وليس مصطلح إمام أو خليفة مما يدل على أن بيعته كانت بيعة محلية ومحدودة الهدف، وهو المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي. خصوصا أنه يضيف في بعض رسائله " المجاهدين" فيقول " من أمير المؤمنين المجاهدين مولانا السيد الحاج عبد القادر..."

وعلاوة على ذلك فيجب التنبيه إلى أننا أمام نص بيعة لا يوجد ما يثبت أنه نص أصلي، ويعني ذلك انه قد يكون محورا.

وثالثا أن العلاقة التي كانت قائمة بين الأمير والسلطان العثماني، سواء لما كان في الجزائر، أم لما توجه بعد ذلك إلى المشرق، تدل في كل مظاهرها أن الدولة العثمانية كانت راضية عنه رضاء تاما، وأنه لم يقم بأي تصرف يناقض كيانها السياسي الإسلامي.

شكرا

الدكتور كمال لدرع

رئيس قسم الشريعة والقانون

إن الحكم على مبايعة الأمير عبد القادر وأثرها في بناء الدولة الجزائرية المسلمة واستمرارها وسقوطها، وما لها و عليها، ومسؤولية الأمير عبد القادر وعدم مسؤوليته في سقوطها لا بد أن تكون في ظل الظروف والملابسات التي تمت فيها البيعة وقيام دولة الأمير، حتى يكون الكلام موضوعيا ومنصفا.

فالظروف والتحديات الداخلية والخارجية التي نشأت فيها دولة الأمير لم تكن سهلة، لذلك فدراسة المبايعة ونشأة الدولة تكون بمراعاة تلك الظروف.

شكرا

هموش حكيم دراسات عليا

لفت انتباهي تدخل الأستاذ المحترم نصر لوحيشي. الذي يدور حول الحركية اللغوية في نصي البيعة للأمير. أقول إن لغة النصين تعكس الواقع الذي كان يعيش فيه الأمير، ذلك الواقع المليء بالوعي والمستوى الثقافي أو الفكري. فللغة دور كبير في عكس صورة الواقع.

شكرا

أسئلة متفرقة

1. هل تعد بيعة الأمير عبد القادر أول تجربة للديمقراطية في الجزائر، أي بمعنى بداية الحياة السياسية في الجزائر؟

2. هل تعد بيعة الأمير عبد القادر نقطة تحول في تاريخ الجزائر آنذاك؟ باعتبارها رمزا لقيام الدولة الجزائرية على قواعد وأسس الدولة الإسلامية؟

3. هل كان الأمير عبد القادر صوفيا؟ وما معنى البيعة الصوفية؟

4. هل تعني تقارب المدة بين البيعة الأولى والبيعة الثانية بأن الأمير عبد القادر وجد تأييدا كاملا من الشعب في مدة قصيرة؟

5. وهل يعني هذا أن الأمير عبد القادر لم يجد أي معارض خاصة بالغرب الجزائري؟

الجلسة الثالثة

الأستاذ قاصري محمد السعيد:

العلاقات بين الأمير عبد القادر وملك المغرب

الأستاذة قاسي فريدة:

بيعة أهل الغرب الجزائري لسلطان المغرب وأثرها في بيعة الأمير عبد القادر

حليمة أمقران (ماجستير):

موقف المخزنية من مبايعة الأمير عبد القادر (الدوائر والزمالة أنموذجا)

الأستاذ سليم زاوية:

المقومات الجيواستراتيجية لإقليم دولة الأمير عبد القادر

الأستاذ حماش خليفة:

وثائق الأمير عبد القادر المحفوظة في الأرشيف الوطني التونسي

الدكتور عميراوي احميده:

خطاب السلطة في مبايعة الأمير عبد القادر

***

مناقشة

العلاقات بين الأمير عبد القادر والسلطان عبد الرحمان 1833-1847

الأستاذ قاصري محمد السعيد[1]

على إثر مبايعته أقدم الأمير على ربط علاقات حسن الجوار مع كل من باي تونس وسلطان المغرب؛ وسنركز في هذا المقال على علاقاته بسلطان المغرب، وعندما نضعها في سياقها التاريخي نجدها قد مرت بمرحلتين رئيسيتين هما:

المرحلة الأولى: مرحلة التعاون والوفاق (1833– 1843).

إن أول ما قام به الأمير تُجاه السلطان بعد مبايعته مكاتبته له قصد إجازة مبايعته أو ردّها:« إنّ أهل ناحيتنا هذه اتفقوا أشرافا وعلماء وأهل العقد والحل على ولايتنا وملازمة بيعتنا، وقد ارتضينا ذلك موافقة للوالد، إذ كان هو المطلوب بها، ففرّ منها وألزمنا إياها، لكنّنا توقّفنا على نظر إجازتكم بذلك أو ردّكم إياه».[2] ويذكر الناصري أنّ الأمير: «أظهر الطاعة والانقياد للسلطان، وخطب به على منابر تلمسان وغيرها؛ وكتب إليه يُعلمه أنّه بعض خدمه وقائدا من قوّاد جنده[3]، بينما صاحب تحفة الزائر لا يذكر لنا ذلك، وتكتفي مذكّرات الأمير بالإشارة إلى ذكر السلطان في خطب الجمعة

1- أستاذ في جامعة مسيلة-الجزائر

2- الأمير، عبد القادر: المذكّرات، ص96.

3- أبو العباس أحمد، الناصري : الاستقصاء، ج، 9، ص42.

والأعياد «وخطب له على المنابر الخطباء (كذا) ... أن يخطبوا بمولاي عبد الرحمن ثمّ يأتوا به من بعده استطرادا وإتماما»[1].

كما أن هناك وثيقة تاريخية جاءت في شكل رسالة وجهها إلى أهل تلمسان يصرّح فيها الأمير أنه خليفة للسلطان:«كافة بلّدية تلمسان، سلام عليكم ورحمة الله وبعد قد علمتم سعينا في الصلاح و لم نجد مساعدا عليه، والآن أنتم لكم منّا الأمان التام الشامل العام والله هو الرقيب... بأمر خليفة مولانا عبد الرحمن ردّ الله به الأوطان»[2]

والملفت للانتباه أنّ هناك مصادرا ومراجعا أخرى أقرّت أنّ الأمير بايع السلطان بيعة شرعية، فيذكر محمد خير فارس «وعندما قام الأمير يجاهد الإفرنسيين (كذا)كان قد أعلن بيعته لمولاي عبد الرحمن»[3]. وهو ما ذهب إليه إسماعيل مولاي:«والحاج الأمير بن محيي الدين الذي نسبته إلى رباط علمي من مدينة معسكر، أعلن بيعته للمولى عبد الرحمن»[4]، لكن صاحب الابتسام ذهب إلى حد إقرار الأمير بتبعيته للسلطان، فكان هذا الأخير يُسمّيه في رسائله بالولد البار والآخر يسمّيه بالوالد ورسائله لا تنقطع، وخطب به

---

1 - الأمير : المذكرات، المصدر السابق، ص96.

2 - الأمير: رسالته إلى كافة بلدية تلمسان،مخ ،ميكروفيلم، رقم1254،ص.95 تاريخ 1242هـ، الخزانة العامة بالرباط.

3- المسألة المغربية (1900-1912)، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية، 1961 ص87.

4- تاريخ وحدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، ج1، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1406هـ- 1985م، ص.102.

وبعث له بالبيعة، وكان يقول إنما أنا نائب عن مولانا عبد الرحمن بن هشام[1]. وهذا ما أكده السلطان في أحد رسائله للفرنسيين بعدما سحب ممثله من تلمسان«وعزمنا أن نكتب لعظيم جنبكم بذلك، ليقوم بأمر ذلك الوطن أو يتركه لمن يقوم به... ومحي الدين وولده هو من بايعنا، ودخل في سلك طاعتنا»[2].

كما أن هناك رسالة مؤرخة في شهر ربيع الأول 1261هـ تؤكد أن الأمير خليفة للسلطان ونائبا عنه وخادما من خدامه:«خدم حضرتكم، الباذل جهده في مرضاة الله ورسوله، ثم مرضاتكم، المتوكل في كل أموره على الله وعليكم، الموضوع اسمه بالخاتم، النايب عنكم »[3]. ونلاحظ هنا أن السلطان أصبح يحتل مكانة مرموقة لدى الأمير خلال هذه السنة. إذًا وانطلاقا من هذه النصوص يمكن القول: أنها وضّحت لنا طبيعة علاقة الأمير بالسلطان. علاقة قامت على أساس الإقرار بالمبايعة بالطاعة والولاء في إطار الشريعة الإسلامية. إلا أنني لم أعثر على نص المبايعة الذي بعث به الأمير إلى السلطان؛ ولا على ظهير رحماني يُعيّن الأمير خليفة عنه. وإذا كان هذا ما قام

1- أبو العلا إدريس :تلخيص من مجموع الابتسام عن دولة ابن هشام رقم 114 ح، مخطوط، ص420

2- المكي، حلول: مسألة الحدود المغربية الجزائرية، رسالة ماجستير نوقشت بجامعةالجزائر، ص: 240.

3-ISMAIL, HAMET : Legourer ne ment marocain et la conquête d'Alger. Ibid.- p-

به الأمير في البداية تُجاه السلطان فما هي دوافع هذه العلاقات؟ وما هو موقف السلطان من الأمير؟ وما هي الخدمات التي قدمها له مقابل ذلك ؟.

دوافعها: إن ارتباط الأمير بالمغرب سلطة وشعبا يعود في نظرنا إلى يلي:

1- انحداره العائلي من المدينة المنورة والاستيطان بالمغرب ثم التوجه إلى الجزائر:« كان أجدادنا يقطنون المدينة المنورة، وأول من هاجر إليها (كذا) هو إدريس الأكبر، الذي أصبح فيما بعد سلطانا على المغرب، وهو الذي بنى فاس، وبعد أن كثر نسله توزعت ذريته، ومنذ عهد جدي فقط، قدمت عائلتنا لتستقر في اغريس قريبا من معسكر»[1].

2- انتمائه الروحي الصوفي، إلى الطريقة الصوفية القادرية المتجذرة في المغرب؛ ومع احتلال فرنسا للجزائر تولّى شقيقه محمد السعيد مشيختها بفاس، فضلا عن تأثره الشديد بعلماء وفقهاء المغرب لأنه أخذ عنهم جملة العلوم التي حصّلها».[2]

3- التواجد الجزائري الهائل بالمغرب منذ القرن 16م في شكل علماء وفقهاء وأسر هاجروا إلى المغرب واستوطنوا به.

---

1 - وزارة الإعلام والثقافة. سلسلة الفن والثقافة. الأمير، مخطوط قداش. الطبع: التامورا روتوبرس ش.م. مدرية ماي 1974، ص 10 .

2 - هلال، عمار: (العلماء الجزائريون في فاس فيما بين القرنين العاشر والعشرين الميلاديين "14/4هـ")، مجلة الدراسات التاريخية، ع.9 . السنة 1415هـ، 1995م، معهد التاريخ بوزريعة الجزائر،ص-ص-ص:38- 41.

4- الامتداد القبلي عبر التخوم الجزائرية المغربية إذ نجد هناك قبائل جزائرية لها امتداد في المغرب الشرقي، مقابل وجود قبائل مغربية لها امتداد في الغرب الجزائري، بالإضافة إلى قوة الروابط التاريخية واللغوية والدينية.

5- الاقتراح الذي قدّمه له والده عندما عُرضت عليه الإمارة، فأشار عليهم بسلطان فاس، وباعتبار أن والده كان على قيد الحياة أثناء المبايعة، فلا نستبعد أن يكون لوالده دور كبير في توجيه هذه العلاقة.

6- اشتراط أهل تلمسان على الأمير أثناء دخوله لها بالاعتراف بالتبعية والخضوع لسلطان المغرب مقابل الخضوع له، وهذا ما ذهب إليه الناصري "وأغوست كور"[1].

7- إستراتيجية الأمير الذي رأى أن حماية المولى عبد الرحمان له ضرورية جدا للاستفادة من مخترعاته وخاصة الأسلحة. بل وحاجته إلى التحالف الضّمني القائم على أساس الدين الإسلامي ومن أجل خلق عدو جديد لفرنسا.

- موقف السلطان من الأمير والخدمات التي قدمها له 1834-1836؟

على إثر مكاتبة الأمير للسلطان كما أشرت أجابه عن كتابه وأظهر له الفرح والسرور:« بأنّ أهل الوطن أصابوا وما غلطوا، وعلى الخير سقطوا، الله يعينكم، ويحفظكم والسلام»[2]، كما قَبِلَ أن يتولّى الأمير شؤون الشعب

1- Ougest,Cour (loccupation marocaine de tlemcen): R .A N° : 52 , op.cit, p46-47.

2-الأمير: المذكّرات، المصدر السابق، ص96.

الجزائري في ظلّ البيعة التي لم يكن له مناص منها أمام رغبة أنصاره أنفسهم[1]. وإذا سلّمنا بهذا الطرح فما هي دوافعه ؟

لاشك أنه رأى في الأمير الشخصية المناسبة لإتمام العمل الذي كانت جيوشه الرسمية قد بدأته منذ سنة 1830م وفشلت فيه، خاصة وأنّ الأمير تقدّم بطلب المساعدة منه، وهذا ما نعتبره استمرارا للسياسة المغربية بالغرب الجزائري، عبر حركة جزائرية بزعامة الأمير. وعليه فقبول السلطان لبيعة أهل تلمسان قبل ظهور الأمير استند إليها كمرجع تاريخي؛ هذا فضلا عن الوازع الديني. وإدراكه أيضا لخطورة الزحف الفرنسي على بلاده، ولمواجهته اتخذ الأمير كدرع واق لها من الشرق، وبالتالي عرقلة التوسع الفرنسي على المغرب؛ وحرصه الشديد على توفير الأمن والاستقرار بتخومه الشرقية لخدمة مصالحه خاصة ما تعلق بالحجيج والتجار، حسب ما صرّح به للفرنسيين.

وبالتالي يمكن أن نستخلص أنّ توجّه الأمير نحو سلطان المغرب ورد هذا الأخير الإيجابي تحكّمت فيه روابط تاريخية، دينية، اقتصادية وعسكرية، وإذا كنا قد تعرّفنا على الإجراءات التي قام بها الأمير تجاه السلطان، فماذا قدم السلطان مقابل ذلك؟ لقد ساهم سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في دعم ومساندة حركة الجهاد في الغرب الجزائري، على النحو الآتي:

---

[1] Jaque, Gaillé : la petite histoire du Maroc, TOM .2, Casablanca, 1950 p 201

1- تكوين فئة نشطة حول بلاطه تمثّل مصالح الأمير وتدافع عنها لديه، وقد وضع السلطان على رأسها أمين فاس الحاج الطالب بن جلون الفاسي« الذي كان يعتبر واسطة بين الأمير والسلطان»[1].

2- رفع مكانة الأمير لدى القبائل الجزائرية التي بايعته، ولدى خصومه المعارضين له من خلال الرسائل التي بعثها إليه.

3- تأمينه لقوافل الأمير المحمّلة بالأسلحة والذخيرة الحربية؛ القادمة من جبل طارق وطنجة عبر فاس ووجدة لتصل إلى تلمسان، والسّماح للقبائل المغربية بجمع المساعدات المختلفة من أنحاء المغرب، وتوجيهها نحو الجزائر.

4 – تحريض وتشجيع الأمير على مواصلة الجهاد، وتقديم الدعم المادي والعسكري له. ففي أوائل سنة 1833 وبعد أن وجّه الأمير رسالة إلى السلطان:« أجابه عنها وبرفقة 600 بندقية، وكمية كبيرة من الذخيرة وحوالي 600 سيف»[2]. وهوا ما أكده الناصري:« ولما اتصل بالمولى عبد الرحمان ما عليه الحاج الأمير من جهاد عدو الدين ...أعجبه حاله، وحسنت منزلته عنده، لأنه رأى أنه قام بنصرة الإسلام، على حين لا ناصر له، فصار السلطان يمده بالخيل والسلاح، المرة بعد المرة»[3].

- Ougest, cour : (L'occupation Marocaine de Tlémcen) R .A Op cit., N°52 - p47 1

2 - إسماعيل، العربي: العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير، ص223.

3- أبو العباس أحمد ،الناصري : الاستقصاء، المصدر السابق، ص44.

أثر معاهدة دي ميشال على العلاقات بين الأمير والسلطان: من خلال المادة العلمية المتوفرة لدينا يمكن تمييز رأيين مختلفين، فهناك من رآها قد ساهمت في فتور العلاقات بينهما، بينما يراها البعض الآخر عكس ذلك.

الرأي الأول: من بين الذين رأوها ساهمت في فتور العلاقات جلال يحي في قوله: "مما دفع السلطان أن لا يرتاح إليه لأنه اتفق مع الأعداء فساءت العلاقة فيما بينهما[1]، وإسماعيل العربي: فإنّ العلاقات الجزائرية المغربية عرفت نوعا ما بعد عقد معاهدة دميشال[2]. ويذهب" أوغست كور" إلى القول أن السلطان غضب من معاهدة دي ميشال، فبادر إلى إرسال محمد بن نونة إلى تلمسان لاستئناف عمله كباشا للمدينة[3]، ونقلا عن ياسين إبراهيم يذهب كوسي بريساك "إلى القول بأنها لم تنل رضا السلطان وأثّرت على العلاقات بينهما لأكثر من سنة[4].ومن بين الأدلّة التي قدّمها هؤلاء:

- الأمير أصبح في غنى عن الإمدادات التي تصله من المغرب عن طريق البر، بعدما سيطر على ميناء أرزيو وأرشقول.

- تبنّي السلطان وجهة نظر العناصر الدينية المتطرّفة التي رأت في المعاهدة تحالف مع الكفار.

---

1 - جلال، يحي: مسألة الحدود بين المغرب والجزائر، المرجع السابق، ص.57.

2 - إسماعيل، العربي: العلاقات الدبلوماسية الجزائرية، المرجع السابق، ص.224.

3- Ougust, Cour : (L'occupation marocaine de Tlemcen), Op. Sit, R.A, N° 52, P.49.

4 - ياسين، إبراهيم: موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر، رسالة ماجستير نوقشت بالمغرب،ص.204.

الرأي الثاني: يراها ساهمت في توطيد علاقاتهما أكثر، لأنّ الأمير قبل عقدها أشار بالرجوع إلى السلطان حسب ما أكده ممثّل فرنسا بمعسكر إلى "دي ميشال" في شهر جويلية 1834 «ورد أن عبد القادر عندما شاور عمه علي أبو طالب وميلود بن عراش حول شروط الفرنسيين لعقد المعاهدة، أشاروا بالرجوع إلى مولاي عبد الرحمان، وأضاف بأن السلطان رد على الأمير، بأنه إذا كان قادرا على القيام بحرب ناجحة فيجب القيام بها، وإذا كان العكس فإن رأيه مثل رأي عبد القادر »[1].

وحسب التحفة فإنه بعد إبرام المعاهدة أرسل السلطان وفدا للتهنئة « وصل وفد السلطان عبد الرحمان بن هشام، لأداء التهنئة للأمير بالملك وأصحبهم هدية من نفائس بلاده، ومقدارا وافرا من ذخائر الحرب وأدواته»[2]. وبعد أسابيع قليلة من عقدها أكّد وزير الحربية وبناء على تقارير قنصل طنجة للجنرال" فوارول "ما يلي:« إن السلطان على وفاق كبير مع عبد القادر فهو يُجري معه اتصالات مستمرة، ويقدم له هدايا مهمة تدغدغ طموحه»[3]. وعليه فإن ما جاء به الرأي الأول يحتاج إلى إعادة نظر، فإذا سلّمنا بتحالفه مع الكفار وهو ما أغضب السلطان، فإننا نجد السلطان نفسه وافق على عقد المعاهدة عندما استشاره الأمير. وبالنسبة لحصوله على منفذ بحري، وبالتالي الامتناع عن التعامل مع السلطان فإن التقارير الفرنسية تؤكد

---

1 - المرجع نفسه، ص.120.

2 - ابن عبد القادر،محمد: تحفة الزائر، المصدر السابق، ص188.

3 - إبراهيم، ياسين: موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر، المرجع السابق، ص.205

أن ما كان يصل الأمير من المغرب برًا أكثر من ما كان يصله بحرا، أما ما ذهب إليه أوغست كور فإننا نجده نفسه يؤكد بأن السلطان أرسل بن نونة إلى تلمسان كباشا وكمدير مالي للأمير.

وانطلاقا من استشارة الأمير للسلطان في عقدها وإرسال السلطان بهدايا ووفد للتهنئة، واستمرارية العلاقات بعد المعاهدة يجعلنا نرجّح الرأي الثاني، وعليه فإن المعاهدة ساهمت في توطيد علاقاتهما بشكل جيد. وخلال سنة 1837 كاتب الأمير السلطان في شأن الصلح المزمع عقده مع فرنسا فأجابه عن ذلك وحذّره من عقده، لأن رغبة الفرنسيين فيه هي مجرّد مكيدة « فينبغي أن تسدّ دونهم الأبواب، وتقطع بهم الأسباب، حتّى يقنعوا من الغنيمة بالإياب»[1]، وفي الأخير فوّض له الأمر في عقده:« فأنت بصيرة نفسك وبصيرة المسلمين فانظر لهم بالنظر الذي ينجيك مع الله ومع عباده»[2].

وخلال شهر مارس أرسل الأمير بوفد رفيع المستوى إلى السلطان برئاسة محمد بن عبد الله السّقاط وحمّله كتابا يتضمن أسئلة فقهية، كما زوّده بهدية ثمينة خاصة بالسلطان:« وكتب له كتابا، يذكر له فيه ما أجراه من تنظيم العسكر وتمرينه ...وأعلمه بما أرسله من الأسئلة صحبة رسوله لعلماء فاس ليجيبوه عنها »[3]. فاستقبلهم السلطان بحفاوة كبيرة، ولدى وصولهم إلى

1- إبراهيم، ياسين: موقف المغرب من الاحتلال الفرنسي بالجزائر، المرجع السابق، ص258.

2- المرجع نفسه ص 258.

3 - ابن عبد القادر، محمد: تحفة الزائر، المصدر السابق، ص316.

فاس أمر بإنزالهم وإكرامهم، وبعد أن سألهم عن أحوال الأمير وما هو عليه مع عدوه، وعن الرعية وأفعالها معه فأخبروه بالحقيقة، وأرسل بالأسئلة الفقهية إلى شيخ الإسلام علي بن عبد السلام التُّسولي للإجابة عنها[1].

وبعد إجابته قُدمت إلى السلطان فأمر وزيره بإحضار« 07 كسوات فاخرات، و07 أفراس من عتاق الخيل بسروجها و4 مدافع صغار و60 فرسا، وأن يُعطي من الخزينة 10000 مثقالا إلى الحاج الطالب وكيل الأمير بفاس ليشتري له بها من الإمدادات الحربية ما يأمره بشرائه »[2]. وأرسل مع الوفد كتابا إلى الأمير ضمّنه التحريض على استئناف الجهاد ونقض الصلح، كما أرسل له عدد هائل من الخيول والمدافع.

وعلى إثر استرجاع تلمسان كتب السلطان إلى عُمّاله بتاريخ 15 /8/ 1837:« بشّرهم بما شرح الصدر، وأعلى الإسلام بظهور القوّة ورفع القدر في فتح مدينة تلمسان من غير إعمال سيف ولا سنان وذلك بصلح أسفر عن العزّ وجه نجاحه وأطلع في فلك الإسلام طالع سعده وفلاحه وأصبحت به نغور أهل الدين بواسم»[3]. وأصدر أوامره لرعيته لتعبر عن فرحتها بإقامة الاحتفالات وهذا ما يؤكده تقرير "دي لابورت" من موقادور إلى "الكونت مولي": «أثناء هذا الشهر، نُشر ظهيرا سلطانيا بطنجة لكي يُحتفل بدخول الأمير تلمسان، وظلّت هذه الاحتفالات الضخمة لمدّة 3 أيام، تمّ في أثنائها

---

1 - المصدر نفسه، ص318.

2 - المصدر نفسه، ص318.

3- وثائق ،خ.ح.ر: بشأن فتح تلمسان ،العلبة 4.الوثيقة،رقم7،من السلطان عبد الرحمان إلى عامله عبد السلام بن محمد السلاوي.

تزيين حوانيت التجارة في المدينة بأشرطة ومناديل من الحرير والقطن ومن جميع الألوان المختلفة».[1]

وفي يوم 1837/8/30 كتب إلى الأمير رسالة ضمّنها الجواب عن خطابه الذي بشّره فيه باسترجاع تلمسان«محلّ الولد البار الساعي في المحاس والمسار المرابط المجاهد ...حامل راية المجاهدين»[2]، وعليه فالأمير أصبح يحظى بمكانة رفيعة لديه، وهو ما يعكس تطوّر موقفه من الصلح، وهذا ما نجده في الإشادة بمزاياه:« فما عقدتم من الصلح جار من الخير على منهاج وقائم بعزّة الدين وجموع قوّته بأنفع دواء وأنجع علاج، فإنّ السلم إذا كان عن عزّ لمصلحة كان داعيا لوفور القوّة وائتلاف القلوب والتبصّر بعواقب الأمور»[3]. ثمّ نبّهه إلى الاستفادة منه بالتنظيم والاستعداد والتدريب لجهاد أفضل في مرحلة أخرى:« ففي الصلح فوائد تشكر وأمور تذكر ولا تنكر، منها: أخذ الأهبة وجموع القوّة والاستعداد، ومداخلة القوم بعضهم مع بعض، وزيادة الاستمداد وانتظام الكلمة، وترتيب الحشود»[4]. وأمره بضمّ إقليم قسنطينة إليه «فاجتهد في إدخال القسطنطينية (كذا) في شموله ليكون ذلك

1- حلال، يحي: مسألة الحدود المغربية والمشكلة الصحراوية، المرجع السابق، ص120، وراجع: العلاقات الدبلوماسية، ص228.

2- ياسين، إبراهيم: موقف المغرب من الاحتلال الفرنسي للجزائر، المرجع السابق، ص.260.

3- الناصر، الفاسي: (محمد بن إدريس، وزير مولاي عبد الرحمن)، ص.174

4- المرجع نفسه، ص175.

أتمّ السرور»[1] وفي هذه الأثناء، كان الأمير يعاني من مشاكل داخلية عدة أبرزها: تآمر شيخ زاوية عين ماضي.

وللخروج من هذا الموقف أرسل بوفد رفيع المستوى إلى السلطان؛ ترأسه شقيقه محمد السعيد وبرفقته الحاج محمد فاخه مصحوبين بهدية وكتاب إلى السلطان ضمّنه ثلاثة نقاط رئيسية أهمها: أن نفسه أصبحت تميل إلى الخلوة والعبادة وتنفر من ثقل ما تحمله من أعباء الإمارة؛ كما طلب منه« نحن الآن نرجو من سموكم أن ترسلوا أحد أبناءكم أو أحفادكم أو خدامكم لتولي سلطان الحكم وسأكون أول من يعمل تحت راية من ترسلونه وأن أسخر كل إمكانياتي الضعيفة إلى أقصى حد لذلك، وأن أساعده بالرأي والنصيحة»[2]، وأخيرا عرّفه بما أجراه من أخذ زكاة عين ماضي عن 5 سنين. وبوصول الوفد مدينة فاس أكرم السلطان نُزلهم ولاطفهم وسألهم عن أحوال الأمير، وبعد أن قضوا بضعة أيام رجعوا إلى الأمير مصحوبين بكتاب السلطان الذي ضمّنه الإجابة عن أسئلة الأمير ولأهميّتها ألخصها في ما يلي:

- التحذير من مكائد العدو الفرنسي.

- التشجّيع على مواصلة حركة الجهاد.« فكيف يسوغ لك التفصّي؟ وقد رفعت بك في ذلك القطر راية الإسلام وانتظم أمر الخاص والعام... ولولا وجودك وجِدّك لتفرّقت أشياع تلك القبائل الإسلامية شذر مذر،

1- ياسين، إبراهيم: موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر، المرجع السابق، ص261

2- شارل هنري تشرشل: حياة الأمير، المصدر السابق، ص157.

ولافترست كلاب الروم أهله... ولكنّ الله سبحانه تداركه بإقامتك... ولن تعدم من الله عونا ومددا »[1].

– السلطان عبد الرحمن وحملة الأمير على عين ماضي 1838.

لقد كان للسلطان موقف إيجابي عندما أشار عليه الأمير بمعاقبة رئيسها، وعلى إثره توجه نحو عين ماضي يوم 12 /7/ 1838م؛ وكان قد بلغه رفض التجاني السماح له بدخولها، وراسل التجاني بدوره السلطان ليخبره بما أقدم عليه الأمير. وفي هذه الأثناء يمكن القول أنّ التجاني والأمير حاولا كلّ منهما كسب ودّ وعطف السلطان، إذ ظهرت لهم مراسلات عديدة، منها ما نستخلصه من ما تم بين الأمير ووكيله بن جلون:«ولنرجع إلى جوابكم، فنقول أنّ ما بعثته لنا من البارود والأخبية، وصلنا بارك الله فيك ومتّعنا بحياتك»[2]، ويوصيه بما تعهّد به السلطان في مساعدته:«وإذا وردت عليكم المدافع التي وعد بها مولانا نصره الله فأسعى لنا في حرجها من الكور وغير ذلك بلطافة من مولانا»[3]. كما طلب منه المزيد من الدعم فلا تقصّر في جمع ما هناك والمؤكّد (كذا) به عليكم أن تجدّ في قضاء السلاح الجيد ولتكن المكاحل بتوا فلها»[4]. ويختم الأمير كتابه: «بأمر مولانا الخليفة السيّد الحاج الأمير أيّده الله»[5].

1- المصدر نفسه، ص.156.

2- George Yver, (Abdelkader et le Maroc en 1838), Op. Cit, P94.

3 - المرجع نفسه ص. 94

4 - المرجع نفسه ص. 95

5 - المرجع نفسه ص. 95

وما يؤكّد موقف السلطان الإيجابي ذلك الدعم العسكري الذي قدّمه له خلال شهر أوت 1838 والمتمثّل في «4 مدافع مع كميات من الذخائر تتكون من 1200 من القذائف ومعها مدفعين لتشغيلها، كما بعث إليه في نفس الفترة بعدّة قوافل محملة بالبارود والبنادق والسيوف، وبالإضافة إلى هذا عمل السلطان على إقناع التيجاني بتسليم عين ماضي إلى الأمير والرحيل عنها إلى فاس حيث ضريح والده»[1].

ولتجنب سفك دماء الأبرياء، قبل التجاني الدخول في مفاوضات مع الأمير ابتداء من 17 /11/ 1838 بواسطة مصطفى بن التهامي لطلب الأمان على نفسه ومن معه، ومهلة أربعين يوما للجلاء عن الحصن، فأجابه الأمير بشروط ذكرها لنا صاحب التحفة. وانطلاقا من النصوص السابقة الذكر يمكن أن نستخلص:

1- كثرة المساعدات المادية والمعنوية التي قدّمها السلطان للأمير، فالسلطان ضحّى هنا بالطريقة التيجانية لصالح الأمير.

2- تأكيد الأمير على أنه خليفة للسلطان كما جاء في كتابه السابق؛ مما حفّز السلطان على مساعدته.

الأمير خليفة لسلطان المغرب.

على إثر عودته من عين ماضي إلى معسكر بعث بخطاب إلى السلطان ضمّنه نقاط عدّة : « إنّني لم أتقدّم متوليا مسؤولية الحكومة بمحض الطموح أو الرغبة في السلطة والجاه، ولكن لأحارب في سبيل الله ولأحقن الدماء بين

1- ياسين، إبراهيم: موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر ، المرجع السابق، ص269.

المسلمين وأحمي أملاكهم ونحن الآن نرجو أن ترسلوا أحد أبنائكم أو أحفادكم لتولّي سلطان الحكم وسأكون أوّل من يعمل تحت من ترسلون»[1]. إلا أن السلطان رفض هذا الطلب؛ بل شجّعه على مواصلة الجهاد وعلى البقاء في مرتبته، وأرسل مع وفد الأمير بكتاب يؤكّد فيه تنصيبه واليا على الجزائر وفي الوقت نفسه أرسل معه ما يعبّر به له عن الدعم المادي والمعنوي وهو: "قفطان الخلافة"[2] كدليل على صدق المحبة والولاء الروحي،، ولقد تمّ تتويج الأمير بقفطان الخلافة بصفة رسمية وبمحضر رؤساء جيشه في مدينة تازة الجزائرية يوم 03 /8/ 1839. ولقد أكّد "روش" أن السلطان أرسل بشخصية مغربية معها قفطان التعيين، وهي التي ألبسته القفطان ليصبح الأمير رسميا خليفة لمولاي عبد الرحمن.

ويشأن هذا القفطان يورد يحي جلال:« أن السلطان أرسل بعثة محملة بالهدايا والأسلحة وقفطان خليفة السلطان، مُهدى إلى سلطان تلمسان ومعسكر»[3]، وهو ما ذهب إليه "روش" أيضا: « لقد خلع المبعوث المغربي على الأمير في 03 /7/ 1839 قفطان المبايعة الذي يعطيه لقب خليفة مولاي عبد الرحمن سلطان المغرب »[4]وهو عكس ما ذهب إليه مولاي

1- عمر، بوزيان :(المساعدة المغربية لثورة الأمير)، المرجع السابق، ص47.

2 - حير القفطان ظلّ متواترا عند آل الأمير، فيما بعد، ويذكر الفاضل بن عاشور أنه رأى بنفسه في دمشق عند عميد الأسرة، الأمير سعيد "قفطانا من الجوخ يتبرّك به، ويذكر أنه هدية المولى عبد الرحمن بن هشام إلى الجدّ الأعظم".يراجع: موقف الدولة المغربية، ص279

3 - مسألة الحدود المغربية الجزائرية المشكلة الصحراوية، المرجع السابق، ص.115

4 - رشيد، بورويبة: (القلاع والحصون والمؤسسات التي أنشأها الأمير)، المرجع السابق، ص.93.

بلحميسي: « وما إن انتهت سنة 1838، حتّى بدأ الجو يتعكّر بين الرجلين، نتيجة نشاط الدعاية الفرنسية، وبدأ صاحب فاس يبدي نوعا من القلق»[1].

وإذا كان الأمير ظهر أمام السلطان كخليفة فإنه ظهر أمام الفرنسيين والأوربيين كعاهل مستقلّ بل كأمير للمؤمنين، فإذا كان هذا دليل على نزعته للاستقلال فإنّ ذلك لم يكن ليثير قلق السلطان، لأنّ هذا السلوك يقدّم لهم حجّة على حياده، بل ويدفع بهم إلى الاعتقاد بوجود جفاء أو قطيعة بين الأمير والسلطان. ويمكننا القول هنا أن الأمير زاوج بين الدبلوماسية والدهاء السياسي للحفاظ على العلاقات الثنائية القائمة على المصلحة المتبادلة، ورغم هذه الديباجة التي وردت في مراسلاته مع السلطان فإنها لم تقلل من قيمته كقائد عسكري وكزعيم روحي، وكرئيس للدولة الجزائرية الأميرية التي أنشأها، كما أن سمو الأمير الصوفي والروحي قد جعلت منه رجلا عظيما ولكنه متواضع في معاملته مع السلطان؛ عكس ما كان يتعامل به مع الفرنسيين، أو مع غيرهم من الرؤساء أو الملوك الأجانب الذين عاصرهم. وإذا كان هذا تصورنا لفكر الأمير؛ فهل كان السلطان يُدرك هذه الخلفية في التعامل؛ أم حدا به الأمل في أن الأمير هو خليفة عنه وممثلا له في الغرب الجزائري؟ هذا ما سنجيب عنه فيمتا بعد.

1- مولاي بلحميسي: (الأمير والسلطان مولاي عبد الرحمن من الألفة والوئام إلى الجفوة والخصام)، المرجع السابق، ص49.

ومع مطلع سنة 1842 ضاعف الجنرال "بيجو" من مطاردته لجيوش الأمير بواسطة 3 فيالق عسكرية، تمكّنت في الأخير من تدمير القواعد الخلفية لحركة الجهاد بالغرب الجزائري، وهو ما دفع بالأمير إلى تكوين الزمالة المتنقلة؛ ونتيجة لإدلاء أحد الوُشاة سقطت على يد الجنرال "الدوق دومال" يوم 16 /5/ 1843. وسقوطها يُعتبر مؤشرا خطيرا آلت إليه وضعية المقاومة في الغرب الجزائري، ونظرا لذلك أقد الأمير على اللجوء إلى المغرب الشرقي والذي تحكمت فيه أسباب عدة:

1- اتخاذه كقاعدة خلفية للمجاهدين والمهاجرين الجزائريين.

2- توفير الأمن والحماية لدائرته وإدخال الاطمئنان إليها، وحتى لا تطالها يد العدو الفرنسي في حالة دخوله الجزائر.

3- تكوين جبهة دفاعية مع قبائل المغرب الشرقي وتجنيدهم ضمن صفوفه.

4- إقناع المغاربة بضرورة التأهب والتحرك لنصرة أشقائهم بالجزائر.

وبلجوئه إلى المغرب الشرقي تأخذ علاقات الأمير بالسلطان أبعادا أخرى؛ لتصبح أكثر صعوبة وغموضا نظرا لتداخل الأحداث التاريخية أحيانا وتناقضها أحيانا أخرى، فكيف كان موقف السلطان من هذه التطورات الجديدة؟ وما مدى نجاحه في الصمود أمام المخططات الفرنسية الرامية إلى تفتيت وحدة التعاون المغربي الجزائري؟ هذا ما سنراه في المرحلة الموالية.

المرحلة الثانية: مرحلة التصادم والافتراق 1843-1847.

كعادته قام الجنرال "بيجو" بإثارة البلبلة والشكوك في الأوساط المغربية بالتجسس تارة وبزرع الفتنة تارة أخرى؛ ففي تقرير للقنصل الفرنسي بطنجة إلى وزارة الخارجية بتاريخ 10/1/ 1842 جاء فيه: «أحدثت هذه الحالة-اللجوء- أثرا عميقا من القلق في فاس...ووجود الأمير هنا سوف يجر إلى عواقب لا يمكن تقديرها»[1]. وهو ما دفع بالسلطان إلى إصدار ظهيرا رحمانيا إلى عُماله في شهر يوليو 1842 يمنع فيه المغاربة من إقامة أي علاقات مع الجزائريين، واستنادا إلى هذا القرار أخذت السلطات المغربية تستولي تدريجيا على شُحنات الأسلحة الموجهة إلى الأمير في صيف وخريف عام 1842[2].

وبوجوده في التراب المغربي كاتب الأمير السلطان مباشرة ليُعبّر له عن حسن نيته ويطلب مساعدته في التصدي للخطر المشترك فأجابه السلطان: « وإنّا نتمنّى الحضور بأنفسنا في غمار المسلمين ومباشرة القتال بأيدينا بين صفوف المجاهدين ولكن ما نحن فيه من قمع العتاة وكفّ البغاة جهاد بل وأفضل من جهاد النصارى ...ولو كمل قتالهم وانتظم على الاستقامة حالهم لسرنا وإياهم لنصرة الدين وقمع الكفرة المعتدين»[3]. وفعلا فالسلطان كان منشغلا بتوطيد الأمن في مملكته، لأن قبيلة زمور الشّلح

1- العربي، إسماعيل: العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير ، المرجع السابق، ص238.

2- المرجع نفسه، ص239.

3- ابن الأمير، محمد: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر، المصدر السابق، ص-ص439-440.

خرجت عن طاعته، ورغم هذه الأوضاع فإن "سكوت" يرى أن السلطان قد وهب الأراضي التي تمتد بين وجدة وتافنا للأمير كعربون لتقديره له واعتبره كخليفة له على هذه الأراضي[1]، ونظرا لخطورة الوضع عبر منطقة التخوم الشرقية أقدم السلطان على الخطوات الآتية:

1. تقوية الخلية المخزنية المرابطة في وجدة بحشود عسكرية تنتمي لزمور ولي حسن لطمأنة قبائل التخوم.
2. اتخاذ تازا قاعدة أمامية لتجميع الحشود المغربية تحت قيادة ولي العهد سيدي محمد دون استفزاز القوات الفرنسية.
3. استنفار قبائل التخوم الشرقية للجهاد تحت قيادات مغربية قوية مثل عامل وجدة والقائد العربي الرحماني[2].

لقد كان لهذه الإجراءات آثارا سيئة لدى الأمير الذي لم يكن قادرا على الاستغناء عن المغرب الشرقي، لأن هذه التعزيزات عرقلت تحركاته عبر منطقة التخوم، ومن دلائل هذا الأثر أنه ولأوّل مرة يمتنع عن إرسال الهدايا التقليدية إلى السلطان التي تعوّد عليها في المناسبات الدينية مثل عيد الأضحى الذي وافق هذه المرّة 13 /1/ 1843م.

ونتيجة للفوضى والاضطراب الذي عرفته المنطقة، ظهر السلب والنهب فيما بين القبائل وأحيانا ضدّ المهاجرين الجزائريين، وهو ما دفع

1- الكولونيل ،سكوت:مذكرات الكولونيل سكوت، المصدر السابق، ص62

2- علي، المحمدي: المخزن والنظام 1830- 1894، رسالة ماجستير نوقشت في المغرب، المرجع السابق، ص122

بالأمر إلى تأديب قبيلة الحميان المتمردة على السلطان وأرسل منها حوالي 50 أسيرا إلى عامل وجدة تعبيرا عن صداقته وودّه للسلطان. وخلال شهر أفريل 1844م كاتب السلطان ليطلب منه توفير الأمن والمساعدة للمهاجرين الجزائريين بأرضه وختم كتابه بـــ: «خدم حضرتكم الباذل جهده في مرضاة الله ورسوله ثمّ مرضاتكم المتوكل في كلّ أموره على الله وعليكم الموضوع اسمه بالخاتم النايب(كذا) عنكم»[1] وهو ما يوضح لنا الحفاظ على طابع الولاء للسلطان رغم الإجراءات التي قام بها ضده.! وللتعبير عن حسن نيّته قام بإرسال بعثة دبلوماسية تتكوّن من عدة شخصيات حمّلها هدية ثمينة تشمل 8 من عتاق الجياد وهدايا أخرى، ويكمن دورها في:[2]

1- حثّ السلطان على التدخّل لصالح الجزائريين، وشرح عداء الفرنسيين له ومشروعات التوسع الفرنسي على حسابه.

2- التصدّي للخطر المشترك الذي بات يهدد مملكته. وأثناء وصول البعثة إلى فاس استقبلهم ابن السلطان ووزيره وأغدق عليهم عبارات الشكر والامتنان ثمّ نظّم سفرهم إلى مراكش. حيث كان السلطان المتردد يخشى رفض مقابلتهم خوفا من إثارة غضب رعاياه فاستقبلهم، ولقد أسفرت المفاوضات مع السلطان عن:

3- إرسال تعزيزات عسكرية إلى منطقة التخوم المغربية الجزائرية.

---

1 - ISMAIL HAMET : Le gouvernement marocain et la conquête d'Alger, op,cit, p.62

2-MARCEL, EMIRI: (Le conflit marocain de 1844, d'après les notes de Warnier), R.A, Année 1950 P403

4- عزل بوزيان قائد منطقة التخوم وتعيين عليها سيدي العربي الكبير ثم الكناوي.

5- حماية الأمير داخل دولته فقط مع الالتزام بعدم مساعدته، ثم زوّد البعثة بكميات من الأسلحة والذخيرة.

ورغم هذه الإجراءات فإن البعثة قد حقّقت هدفها لدى السلطان ورعيته. إذ أنّ ردود الفعل المغربية سواء الرسمية أو الشعبية عبّرت عن مدى التضامن الجزائري- المغربي؛ الذي غذّته المشاعر الدينية والروابط التاريخية والمصير المشترك، وإدراكا منها بخطورة الوضع راحت فرنسا تحاول ضرب هذا التعاون وتحويله لصالحها. وإزاء هذا الوضع المتنامي عبر منطقة التخوم، ونتيجة للمعلومات التي تحصّلت عليها فرنسا بشأن الدور الذي أصبح يحظى به الأمير لدى السلطان ورعيّته راحت تبحث عن وسيلة أخرى لردع المغرب ووضع حدّ لسلوكه العدائي ضدّ فرنسا، وللوصول إلى ذلك حاولت خلق مجموعة من الذرائع أثمرت في الأخير بظهور ما عرف بالصراع الفرنسي المغربي على حساب حركة الجهاد الجزائرية. فكانت معركة واد إيسلي 1844، ومعاهدة مغنية 1845. التي ألزمت السلطان بضرورة طرد الأمير من المغرب. فكيف كان موقف السلطان من لجوء الأمير إلى المغرب الشرقي؟

الموقف الرسمي من الوجود الأميري بالمغرب الشرقي: على إثر الضغوط الفرنسية التي مورست ضد السلطان عقب معركة إيسلي وقبوله شرط فرنسا بطرده للأمير من المغرب نجده يحاول قدر المستطاع التنصل منه؛ حسب الرسالة التي بعثها مع عبد القادر أشعاش إلى باريس: "وربما يُبطلون

شرط الحاج عبد القادر ويريحون من الكلفة به".[1] وقبل الحديث عن التطورات السلبية التي عرفتها العلاقات خلال هذه المرحلة أود الإشارة إلى بعض الأدوار الايجابية التي قام بها السلطان تُجاه المهاجرين الجزائريين؛ والتي يمكن حصرها في ما يلي:

1- إصداره لظهيرا رحمانيا في تاريخ 4 جمادى الثانية 1263هـ إلى سيدي محمد بشأن جواز اكتيال الجزائريين القمح لأنفسهم من المغرب:"فقد بلغنا أن أعراب الصحراء من الواسطة وغيرهم يدخلون أفواجا بعدد كثير لكيل الزرع ...وإن كانوا يأخذون ذلك لأنفسهم ويحملونه لإقامة بنيتهم فأترك سبيلهم فإنهم إخواننا ولا سبيل لمنعهم"[2]

2- احتضانه لبعض أعيان الأمير الذين هاجروا إلى المغرب، مثل: قاضي الأمير: **عبد القادر بن محمد** حيث أمر السلطان ابنه سيدي محمد بضرورة الاهتمام به وإعانته " فبوصوله إليك مر (كذا) الطالب علال الشامي يدفع لحامله الفقيه السيد عبد القادر بن محمد قاضي الحاج عبد القادر بن محي الدين 30 مُدا من القمح إعانة له على مئونته، وينظر له دارا يسكنها مناسبة لحاله وإن كان أهلا للتدريس يجعل له ما يستحقه من المشاهرة ".[3]

---

1 وثائق خ،ح،ر : علبة 17 وثيقة رقم 09، عبارة عن رسالة من السلطان إلى بوسلهام في تاريخ 22 جمادى ثانية 1261ه/ 28 حوان 1845م.

2 مولاي عبد الرحمن بن زيدان: الإتحاف، المصدر السابق، ص125

3Ismail, Hamet: le gouvernement Marocaine, op, cit, p81.

3- قدم للمهاجرين الجزائريين خاصة الأشراف منهم كل سنة 500 مدا من القمح بالمد الفاسي مع 500 مثقالا وأوصى باحترام عوامهم من أهل الحرف والزراعة وتوقيرهم وعدم تكليفهم بأي عمل من الأعمال المخزنية.[1]

4- استقباله لقبائل الحشم وبني عامر على نهر سيبو بين التسول والبرانس ومنحهم أراضي خصبة لزراعتها والانتفاع بها.[2]

5- احتضانه لأعيان الأمير الذين آثروا الهجرة إلى المغرب مثل: الميلود بن عراش ومحمد بن ايكرو وغيرهم، والتكفل بمساجين الحشم وبني عامر بعد إطلاق سراحهم. وخلال هذه الفترة فإن الأمير توغل في الغرب الجزائري من جديد وكبد العو الفرنسي خسائر فادحة رغم التعزيزات الفرنسية عبر التخوم الشرقية للمغرب، ثم لجأ من جديد إلى المغرب الشرقي خلال سنة 1846، وهذا ما سنتعرض له في العنصر الموالي.

عـــودة الأمير عبد القـــادر إلى المغـــرب الشرقـــي 1846

خلال شهـــر جويليـــة 1846 حط الأمير رحالـــه من جديـــد في المغـــرب الشرقـــي وبمعية حوالـــي 4000 مجاهد بمنطقة ملويـــة[1] فكيف كانت ردود الفعـــل المخزنيـــة ؟

---

1 مولاي عبد الرحمن بن زيدان: الإتحاف، المصدر السابق، ص 124.

2- عـــمر بوزيان: جذور اتحاد المغرب والجزائر، 1832، 1845، المرجع السابق ص، 156، بينما يذكـــر صاحب التحفـــة أن عدد المجاهديـــن الذيـــن كـــانوا مع الأمير نحو السبعين فارسا بعدما أنتقل من أولاد سيدي الشيخ نحو فقيق، تحفـــة الزائـــر ص481

سأركز في الإجابة عن هذا السؤال على الموقف الرسمي دون الموقف الشعبي الذي كان مساندا للأمير، وكعادتها راحت الدبلوماسية الفرنسية تحرض السلطان للتحرك ضده باستخدام بعض القبائل الموالية له، وهو ما تم فعلا حيث بعث بالعديد من الرسائل إلى شيوخ القبائل يحذرهم من خطر الأمير، ومن ذلك كتابه إلى أحد عماله خلال شهـــر جويلية 1846 « فاعلم أن هؤلاء بني يزناسن ومن يليهم لو كانت فيهم استقامة تامة وحسن طاعة، ما تأخر إخراج الحاج عبد القادر ودائرته إلى اليوم... وقد ألقـــى إليهم من ترهاته ما سحرهم به حتى ظنوه على الحق ».

وفي هذه الأثناء أعلن قسم كبير من التسول والبرانس وقسم من قبائل مكناسة ؛ الحرب على المخزن وأصبح المتالسة وبنوياحى والتسول والبرانس وقسم من الأحلاف وأغلبية بني يزناسن في صف الأمير، ونتيجة لهذا الموقف ظهرت إشاعات مفادها أن الأهالي شبه المستقلين في الشرق قد اقترحوا عليه أن يكون سلطانهم إلا أنه رفض ذلك لأن السلطان لم يحاربه علنا، وبعضهم أشاع أن الأمير سيحضر إلى فاس قريبا لتأدية الرسالة التي عهد الله بها إليه لإعادة مجد الإسلام، وهي ما تسببت في إثارة القلق والاضطراب في صفوف المخزن.

وخلال الفترة الممتدة من شهر أوت 1846 إلى مارس 1847 حدث تغير كبير في صفوف القبائل المساندة له وهو ما تؤكده رسالة السلطان إلى

---

1 - وثائق خ ح ر : علبة رقم 18، وثيقة رقم 35، رسالة السلطان إلى عامله بتطوان عبد القادر المعاش في تاريخ 10 جويلية 1846.

ولي عهده بتاريخ 05 /12/ 1846«ومن رجوع الدائرة عليه، وتفرق الذين كانوا يأوون إليه من شدة سوء بغيه وما أجمع عليه الكرارمة من عداوته والتضييق عليه ».[1] كما قام فيه المطالسة بإجباره على ترك أراضيهم ونهبوا منه ما يقرب من مائة من دواب الحمل محملة بالحبوب. الشيء الذي جعله يكاتب السلطان في مارس 1847:« فإني كاتبتكم أولا والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا وتعديهم على من تبعني وسوء معاملتهم لهم لأنهم كلهم أولاد دين واحدة، فلم يأتيني جواب عن ذلك ...فإن لم تردعهم الآن عن أفعالهم إنني التزم المحاماة عن حقوقي والمحافظة على شرد أتباعي. ولذا بادرت بأخباركم والسلام "[2].

وخلال الشهر نفسه ظهرت بعض المناوشات في عين زورا سقط على إثرها 8 من أعوان الأمير في يد قائـــد تازا فأرسلهـــم مكبلين إلى فاس، كما خرجت بعض القبائل عليه وانضمت إلى السلطـــــان. ونظرا لدهائه وحنكتـــه تمكن خلال آفريـــل 1847 من إعادة بني سناسن وكيدانا والمتالسة وجزء من القلايا وبني توزين إلى صفه، في الوقت الذي هرب فيه خصمه محمد التوزيني ليُعلن دعم القبائل للأمير وأنه يتوفر على حوالي 300 فارسا و600من الرماة.

وتحت هذا الضغط قام الأمير خلال شهر ماي بالاتصال بشيخ قبيلة الكرارمة حمدون عبد الرحمان الذي طلب منه إعلام ولي العهد بفاس

1ISMAIL ,HAMET: le gouvernement marocain op ,cit p:89

2-ابن عبد القادر محمد : تحفة الزائر، المصدر السابق، ص-ص 470 -471

باستعداداته للخروج نحو الصحراء وهذا ما أشار إليه السلطان في رسالته إلى ولي عهده بتاريخ 20 ماي: "إن الفتان وعد بالخروج إلى الصحراء على شروط أشار إليها، والتزم ابن عبد الرحمان بذلك؛ فقد كتبوا بوعده الخروج المرة بعد المرة، و لم يف لهم، وأظن أن هذا من حيلة ومكيدة، وأنه يحاول أمرا ينتظر تمامه"[1]، فنلاحظ هنا رفض السلطان لمطلبه.

و لم يبق في موقف الرفض بل اعتبر ذلك تواطؤا من الكرارمة معه:« وأعلم أن فهمنا مقصود الكرارمة بما أشار إليه ابن عبد الرحمان في كتابه، من أن الفتان طلب منهم أمورا ووجدوها (كذا) ورغبوا في إنجازها، وهواهم يتركونه لنا خيالا يخوفونا به، فتفطن أصلحك الله لدسائسهم وتلبيساتهم وإياك أن تقبل لهم شروط مكرهم أ وتصغي إلى تلبيس نكرهم وكن من أمرهم على بال فان فساد أهل الزمان في ازدياد »[2] فما هي إجراءات السلطان إثر ذلك؟

وفي شهر جويلية 1846 صرح السلطان إلى عبد القادر أشعاش أن الأمير أصبح له نفوذ كبير لدى القبائل ناحية تازة. ونتيجة لذلك كتب إلى ولي عهده بفاس خلال شهر أوت يأمره بالاستعداد لتقليص نفوذه ولوضع حد للضغوطات الفرنسية:« أما بالنسبة إليكم فاستخدموا كل مجهوداتكم ونشاطكم ضد المهيج، لوقف تحركات وعمليات أعوانه في هذه المنطقة

---

1 Ismail, hamet, le gouvernement, op.cit.p.92

2 إبراهيم ياسين: موقف الدولة اكفر لله من الاحتلال الفرنسي للجزائر ، المرجع السابق ص-ص 392-391

وبشكل يجعل طرده يضع حدا لحديث أعداء الدين، وعندئذ ستخلص القبائل من طغيانه».[1]

كما أرسل بتعليمات صارمة إلى ولي عهده بتاريخ 23 /9/ 1846:« ولا تقصر في تحريض العمال المقابلين والقبائل (كذا) على تعجيل هرده وأخذه وإبطال كيده، ...ولا تالوا جهدا في داك (كذا) حتى يأخذه الله ويرد كيده في نحره ويجعل دايرة سوء (كذا) عليه، فانه أعدي أعداء المسلمين، وفتنته أكبر عليهم من فتنة المشركين».[2] وعليه تحركت بعض القبائل ضد دائرة الأمير حسب رسالة السلطان إلى ولي عهده:« ومما وقع له القتال مع المطالسة وفراره وسطهم وإيقاع بحرب الأحلاف (كذا) فقد كنا نظن إعانته وإيواءه إعانة للإسلام والمسلمين، فإذا به أعدي أعدائهم ومن خدعنا بالله انخدعنا له فلا بد قف في التحريض على السكان ولا تقصر حتى يريح اله منه العباد وينقطع أمره في تلك البلاد والسلام))[3]

ولتخفيف حدة غضب السلطان قام الأمير خلال مارس بمكاتبة السلطان ملتمسا منه كف أذى القبائل إلا أن التماساته لم تلق أي جواب سوى مواصلة التحريض ضده، فحاول الاتصال بحاكم مليلة الأسباني خلال شهري (افريل، ماي) لعله يجد مخرجا لما آل إليه الوضع، ولكن الظروف التي أحاطت بالمهاجرين الجزائريين حينها حالت دون الاستفادة من هذا الاتصال،

- 1ismail , hamet : le gouver ne ment. op. cit. p. p. 76-78.

2- ismail K hamet. p. 87..

3- ismail , hamet . p 89.

ولم تكف فرنسا عن دفع السلطان لتنفيذ شروطها ففي يوم 4/30/ كتب ممثل فرنسا إلى ابن إدريس:إن السلطان هو الذي يمكنه أن يطرد الأمير كما تعهد بذلك، وليس الأهالي بقادرين على مهاجمة أحد المجاهدين. وانطلاقا من شهر ماي تكثفت الجهود المخزنية لأن الأمير قام بحملة تأديبية ضد قبائل الحميان، مما جعل الكثير من القبائل يعودون إلى صفه، الأمر الذي حدا بالسلطان للقيام بما يلي:

- تجهيز قوة عسكرية من المخزن تقدر 2500 فرسان رماة، ومزودة بقطع من المدفعية.

- استدعاء بوزيان بن الشاوي وبعض زعماء القبائل الريفية للتشاور في كيفية التصدي لنفوذ الأمير.وتعيين القائد محمد بن سالم الأحمر على رأس الجيش، وتجهيزه لحوالي 5000 جنديا في تازة.

- تزويد جيش محمد ابن سالم الأحمر بـــ2000 من فرسان المخزن والحاج الوليشكي بـــ500 فارسا و400جنديا ثم توجيه الأوامر بالتحرك تجاه الأمير((... فجد في أمره وحرض الأحمر على الجد في اجتثاث أصله والسعي في محو شره[1]. فكيف كان موقف الأمير من هذه التحركات؟

---

1 ismail , hamet : le gouvernement marocain . op. cit.p97

موقف عبد القادر من تحركات المخزن: قام بخطوات عدة من أهمها:

- مراسلة علماء مصر ليستفتيهم حول ما حدث، وكان على رأس هؤلاء الفقيه محمد عليش في كتاب ضمّنه نقاط عدة.[1]

ولقد جاءت إجابة عليش في صالح الأمير وهي جواز قتال السلطان جوازا عينيا لأنه حينئذ كالعدو والبغاة المتغلبين.

- توظيف هذه الفتوى كسلاح للدفاع المشروع عن النفس، وهو الذي ما زال يتوفر على حوالي 120[2] فارسا و800 مشاة فضلا عن جنود القبائل الذين ما زالوا في صفه.

- التخفيف من حدة التوتر بالاتصال مع حاكم مليلة الأسباني للتوسط له عند السلطان لإيجاد مخرج سلمي لقضيته، كما كاتب السلطان على لسان حمدون بن عبد الرحمن قصد الخروج نحو الصحراء وفق شروط. إلا أن السلطان رفض ذلك "وحبر الشيطان عبد القادر كنا قدمنا لسيدنا، وهو أن أمره اضمحل وعزم على الخروج للصحراء، وجعل يقدم ضعفاء دايرته أمامه وارتحل من المطالسة إلى بني تزين (كدا) ومنهم إلى ما بين بني وليشك وبني سعيد يوهم أنه يخرج لصبرة ومنها إلى الصحراء وقبايل الناحية التي هو لها شاع فيهم النفاق"[3]. وأمام هذه الجهود المخزنية الدبلوماسية الفرنسية

---

1 – ابن عبد القادر محمد : تحفة الزائر، المصدر السابق ص 471-476 حيث تضمنت كتاب الأمير ونص الجواب عنه كاملة.

2 – مخطوط بمكتبة الحامة بالجزائر : رقم 09، ص 13

3 - ismail , hamet : le gouvernement marocain,op .cit p. 95

المشجعة لها لم يكن أمام المخزن إلا تنفيذ ما تم الاتفاق عليه، وهذا ما سنراه في العنصر الموالي.

تصفية حركة الجهاد الجزائرية بالمغرب الشرقي.(جوان –ديسمبر 1847)

أمام إصرار السلطان على تصفية حركة الجهاد، ورفض الأمير التعجيل بالخروج من المغرب، وأمام تزايد الضغوطات الفرنسية والنفسية للسلطان لم يكن هناك بديل آخر عن حتمية هذا التصادم الدموي الأخوي. الذي تعددت أسبابه وكثرت الأقاويل حوله. ففي خلال 7 أشهر جرت 4 معارك أخوية مأساوية كانت كافية لتصفية حركة الجهاد الجزائرية، وانطلاقا من الإطار الزمني لهذه المعارك فهي مرتبة وممثلة في ما يلي:

1 - معركـــة تافريست ومن أهم أسبابها نذكر:

- اعتداء الأحلاف على البوحميدي ونهب إبل وأغنام الدائرة، فراسل الأمير قائدهم أن يكف رعيته عن أفعالها، إلا أنه رفض ذلك فرد عليه الأمير (حيث لم تكف الظلم عن المظلوم فإنا نأخذ متاعنا من من ظلمنا فتبين الأمر حينئذ أنه منه وبإذنه).[1]

- تحرك القائد بن سالم الأحمر لقتال الأمير "فجد في أمره وحرّض الأحمر على الجد في اجتثاث أصله والسعي في محو شره[2].

- إصرار الأحمر على خروج الأمير أو قتاله رغم نداءات المسالمة التي بعثها له، فحسب الإتحاف((وكتب إليه يتبرأ مما نسب إليه من البهتان، وأقسم بصدق

1- الأمير عبد القادر : المذكرات، المصدر السابق، ص 177-178

2- ismail , hamet : le gouvernement marocain , p 97

ولايته للسلطان وبرهن على أنه مستظل بحمى أمير المؤمنين).[1] ومن بين أحداث المعركة:

تبدأ بمحاولة الأحمر الإغارة على دائرة الأمير وتفطن هذا الأخير له جعله لا يباشر القتال. فتظاهر بالقدوم لزيارته فقط، فاستدعى الأمير أنصاره من: المتالسة، بنوبويحي، القلايا، وجزء من بني سناسن واقترب من الجيش المغربي يوم: 6 إلى 7 جوان فاضطربت القوات الشريفية واستعدت للقتال ولكن الأمير أخبرهم أنه جاء لزيارة الأحمر لا غير، ثم اختار الأمير 50 فارسا بقيادة البوحميدي وأمرهم بالتوجه إلى مقر القيادة المخزنية ليعلن مسالته، لكن وصول هذه القوات أثار الهلع والفوضى في صفوف المغاربة قرب قلعة تافريست أين يقيم الأحمر الذي سرعان ما نهض وحاول إطلاق النار مباشرة على البوحميدي، إلا أن حرس هذا الأخير ردوا عليه بالمثل فكان مصيره الموت. ومن أهم نتائج هذه المعركة:

-انهزام القوات المخزنية وقتل القائد الأحمر / واستيلاء الأمير على محلته.

- اهتزاز ضمير الشعب المغربي لهول ما قام به السلطان ضد الجزائريين الذين طعنهم من الخلف و لم يراع حرمتهم[2]

- قيام الأمير بتكوين وفد من الأشراف والأعيان والعلماء برئاسة أبي عبد الله محمد السقاط، وأرسلهم إلى السلطان وبرفقتهم كل ما تركته محلة الأحمر

---

1 - مولاي عبد الرحمن ابن زيدان، الإتحاف ة المصدر السابق ة ص 61 ويراجع أيضا، تحفة الزائر ص ص 389 390

2 - يحي، بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين 19، 20 المرجع السابق، ص 32

للاعتذار حول ما حدث، فقوبلوا بكل تجلة وإكرام وتحقق السلطان من براءة ساحة الأمير من أقوال المرجفين ثم انقلب الوفد عائدا إلى الأمير مغمورا بجود السلطان وكرمه[1]. ومن أهم الإجراءات التي قام بها السلطان:

-تعيين محمد بن عبد الصادق مكان الأحمر قائدا على الريف، وبرفقة 100 جنديا.

-طلب سيدي محمد من والده التعجيل بالقدوم إلى فاس قبل أن تنتهي فترة هدوء القبائل المرتبطة بفترة الحصاد.

- إرسال قوة عسكرية قوامها 3000 جنديا بقيادة أبا محمد الشرقي إلى تازة في أواخر شهر جوان، الذي بادر عند وصوله بتأديب قبيلة غياثة وتسكين ناحية تازة.

- إرسال تعزيزات عسكرية جديدة إلى قائد بني بزناسن – ميمون ولد البشير- وقائد الأحلاف – بوزيان بن الشاوي-.

وفي يوم 5 جويلية بعث السلطان بخطاب إلى سيدي محمد "يشرح له فيه سبب قتل القائد الأحمر؛ وأخبره أن الأحمر استعجل الأمر قبل أوانه واستبد برأيه ...وإنما أفسد عمله فرار من معه".[2]

2- معركة قلعية ومن أهم أسبابها:

1- مولاى عبد الرحمن ابن زيدان : الإتحاف المصدر السابق، ص 61 .

2Ismail, homet: le gouvernement marocain. p. p102-103.

- تحريض السلطان لعماله للتحرك ضد الأمير./ قبائل الناحية كقلعية ليست لهم همة إلا في شن الغارات على بعضهم بعضا وقطع الطرق وقتل النفوس بغير حق[1] ومن بين أحداثها:

تبدأ بقيام قبيلة قلعية بالاعتداء على المتسوّقة من الدائرة ونهب أموالهم، فأمر الأمير برد ما نهبوه منهم إلا أنها رفضت ذلك، فاجبرها بالقوة على رده، ودليل ذلك رسالة السلطان إلى سيدي محمد بتاريخ 21 جويلية: "وعلمنا ما ارتكب الفتان أهلكه الله من نزوله على قلعية حتى ردوا ما كانوا نهبوا لأصحابه ووظف عليهم الزغيرة زيادة على ذلك".[2]

و لم تكتف قلعية بذلك بل قامت بالهجوم على الدائرة ثانية عند ما توجه الأمير لاستقبال الحشم وبني عامر؛ وعلى اثر عودته علم بالخبر فبعث إلى قبائل العرب الدائرة به في المنزل كالأحلاف والمطالسة والسّبع وغيرهم، لاستشاراهم في شأن ما حدث فأجمعوا رأيهم على مساعدته عليهم وهو ما تم فعلا. فهاجم قلعية وقتل من الطرفين المئات. ومن نتائجها:

- رضوخ قلعية للأمير وأداء ما عليها من غرامات التي قدرت بـ 22000 كيسا من الشعير[3]

- استغاثة قلعية بقبائل الريف مثل بني سعيد، تمسمان، أولاد الشيخ، بني توزين لمساعدتها في الانتقام من الأمير.

---

1 نبذة عن حياة الأمير عبد القادر وأسرته،المخطوط السابق ص-ص13-14.

2ismail homet : le gouvernement p106

3 إبراهيم ياسين :موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر المرجع السابق، ص410

- زيادة نفوذ الأمير بمنطقة الريف وتلقيه لكثير من المساعدات من القبائل التي عاضدته "وما أعمال قبائل الريف من الخوف من الفتان إنما ذلك منهم كذب وتلبيس، وكيف يخافون منه وكل قبيلة تعد العشرة آلاف والعشرين ألفا من أهل المقاتلة والحمية، وإنما ذلك منهم نفاق وخيانة وتقاعد عن الوفاء".[1]

ومن أهم الخطوات التي قام بها السلطان تُجاه الأمير:

- إصرار السلطان على قتال الأمير وتصفية حركة الجهاد وذاك من خلال المذكرة التي ارتكبها في حق الحشم وبني عامر، التي تعتبر المعركة الثالثة في هذه الفترة.

3- معركة الحشم وبني عامر: ومن أهم أسبابها أذكر:

- تمكن الأمير من بسط نفوذه على أهالي الريف. والإشاعات التي روّجها القناصل الأجانب من خطر الأمير على العرش.

- تخوف السلطان من وصول الحشم وبني عامر إلى الدائرة وبالتالي معاضدتها وتقوية مركزها من الناحية العسكرية، حيث كانت قيمة فرسان بني عامر والحشم وشجاعتهم معترفا بها من الجميع في حركة الجهاد.

- محاولة السلطان وضع حد لتحركاتهم نحو الشرق بقتلهم. وذلك من باب التهديد الموجه للقبائل المغربية نفسها المساندة الأمير، وإظهار قدرته العسكرية لتخفيف توتر القبائل العسكرية وتخوفها من الأمير، ونلمس ذلك من خلال رسالته إلى ولي عهده بتاريخ 18 أوت " وأنظر ما نتج منهم من كثرة الإرجاف وإلقاء الرعب في القلوب، مما سودوا به الصحائف، وطولوا

---

1 ismail hamet p106.

وهولوا، وخوفوا من آمر الفتان وأنه قادم لتازة لا محالة "[1] ولقد جرت أحداثها كما يلي:

عندما سقطت أحد الرسائل التي كانت بين الأمير وهاتين القبيلتين في يد جواسيس السلطان، التي كانت تحمل تاريخ تحركهم نحو الأمير ومكان اللقاء ببلاد مكناسة، ونتيجة لذلك بعث سيدي محمد بقوة مخزنية من 3000 فارسا بقيادة فرّجي لمنعهم من السير نحو الشرق وإجبارهم على الانتقال إلى مراكش ولكن بني عامر الذين كانوا يتوفرون على800فارسا و1200راجلا، تمكنوا من اختراق صفوفه وساروا قدما في اتجاه واد اللبن.

أما الحشم فهم أيضا رفضوا تنفيذ الأمر الذي أصدر إليهم بالتوجه نحو مراكش ولجئوا إلى غَريب في ملك زاوية وزان، حيث طلبوا من رئيسها سيدي عبد الكريم بن علي التدخل لدى السلطان للعدول عن نقلهم إلى مراكش إلا أنه في اليوم التالي، أحاطت القوات المخزنية بالموقع ومعها فرسان القبائل المجاورة وهوجم الحشم وقتل أغلبهم وأسر الأحياء ، و لم يتمكن بنو عامر من الوصول إلى المكان الذي تواعدوا فيه مع الأمير، لأن الجيش تمكن من إدراكهم ببلاد الحياينة حيث أحاط بهم مع آلاف من فرسان قبائل الناحية. وقد وصف كل من أكنسوس[2] والناصري[3] القتال الذي جرى بين

---

1 إبراهيم ياسين : موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر المرجع السابق ص 406

2 الجيش العرمرم، ص 220

3 الاستقصاء المصدر السابق ص 56 ويوردها أيضا صاحب الإتحاف ص60

بني عامر وحوالي 12000 مقاتلا مغربيا. وصف يعكس قوة وشجاعة الحشم وبني عامر. ومن أهم نتائجها:

-القضاء على أهم قبيلتين جزائريتين هاجرتا إلى المغرب للاحتماء بالسلطان، وإذا به يرتكب في حقهما مجزرة رهيبة راح ضحيتها أكثر من ثلاثة آلاف مهاجر جزائري.

-الذل والهوان الذي تعرض له من بقي على قيد الحياة فأخذهم المراكشيون وباعوهم كعبيد في أسواق النخاسة، وهناك من رمي بهم في ظلمات السجون،/الاستيلاء على أمتعة وأسلاب القبيلتين، /إعادة الأمل إلى السلطان وجنوده في إمكانية القضاء على ما تبقى من مهاجرين جزائريين بالمغرب الشرقي، وهو ما تم فعلا في المعركة الأخيرة والمصيرية.

الحملة العسكرية المخزنية وتصفية حركة الجهاد الجزائرية، أكتوبر– ديسمبر 1847.

تبدأ بإرسال السلطان كتابه إلى ولي عهده بتاريخ 29 سبتمبر "فبوصول كتابنا هذا إليك تأهب للنهوض لهذا الأمر المهم بنفسك ولا تظهر النهوض حتى تكون بمكناسة...وأهل الحوز إن رأيتهم يتشوقون لأعانته اجعل لهم درهما للفارس في اليوم..."وبيّن لنا عدد ما عند أبا محمد خيلا ورماتا مخازني وغيرهم "[1]، ويمكن حصر استعدادات المخزن في النقاط الآتية:

1- توجيه الإمدادات العسكرية بقيادة مولاي إبراهيم بن عبد المالك إلى عامل الريف، ابن عبد الصادق والمقدرة بـــ500 فارسا، وتوجه م200 فارسا إلى ميمون اليزناسي / عزل قائد وجدة بوزيان العبدوي وتعيين عبد

---

1 - Ismail homet le qouvernement morocoin op.cit.p.108.

المالك الروداني مكانه / تجهيز القائد فرّحي بـــ200فارسا و200 أخرى من عبيد البخاري/ الكتابة إلى أهل سوس بتجميع300 فارسا من عندهم./ توجيه الفقيه السيد الطيب بوعشرين وآخرون للقيام بدور الكتابة والتوجيه والإرشاد- استعمال السياسة في استمالة القبائل وتوظيف مفعول الهدايا والأموال مع شيوخها وأعيانها.

وفي هذه الأثناء تنشط الدبلوماسية الفرنسية أكثر، ونلمس ذلك من خلال الاقتراح التالي الذي قدمه دي شاستو إلى ابن إدريس بشأن تطويق الأمير أثناء شهر نوفمبر وهو أن يتوجه سيدي محمد على رأس القسم الأعظم من الجيش عبر نازة إلى عين زورا ببلاد المطالسة، ويسير مولاي أحمد بجيشه إلى تافريست، أما عامل الريف محمد بن عبد الصادق ومولاي إبراهيم فينتقلا محاذين لساحل الريف على سلوان ، ويقوم بوزيان بن الشاوي مع قبيلة الأحلاف بالتمركز عند أقرب معبر من معابر ملوية، ويقوم قائد وجدة على رأس 1000 فارس بالدخول إلى بلاد بني يزناسن، ثم يتوجه مع قواتهما إلى الطريق التي يمكن أن يسلكها الأمير في حالة فراره نحو الصحراء[1]، فكيف كان موقف الأمير من هذه الخطة ؟

قام بمكاتبة شرفاء وأعيان أولاد مولاي عبد السلام بين مشيش بجبل العلم للتوسط له عند السلطان، وخلال شهر أكتوبر تقابل هؤلاء الأعيان مع السلطان وعرضوا عليه الأمر فأجابهم بخطاب شديد اللهجة:" أنه لم يعد مسلما حقيقيا ذلك الذي غدر بضيفه بعد أن طلب ضيافته، و لم يعد مسلما

---

1 - إبراهيم ، ياسين ، موقف الدولة المغربية من الاحتلال الفرنسي للجزائر، ص ، 413

حقيقيا ذلك الذي لم يكتف بعصيان أوامر أمير المؤمنين بل تصرف كسيد في إيالته، ولا أريد أن أسمع شيء من زنديق ، وشعلة من الشقاق، إن أحدنا فقط هو الذي يجب أن يحكم في إيالتي"[1]

وفي 19 /11 انتقل من سلوان إلى زايو؛ ثم عبر نهر ملوية إلى تريفة، لكن بني يزنا سن قطعوا عليه الطريق فتراجع إلى الضفة الغربية للنهر وما يؤكد ذلك هو رسالة ابن باديس إلى " دي شاستو " بتاريخ 28 /11:" بعد أن قام بنو يزناس بدفع عبد القادر وأظهروا له فوهات بنادقهم، لم يستطيع أن يفر إلى الصحراء، فرجع إلى البحر على الضفة الغربية لملوية."[2]

ونظرا لذلك حاول الأمير تذليلها بالاتصال بالسلطان فأرسل له بوفد ترأسه البوحميدي وبمساعدة محمد بن عبد الرحمن، وأرسل معهم هدية تناسب المقام وكتاب إلى السلطان، فوصلت إلى فاس يوم 27 /11 ويوم 3 /12 استقبلها السلطان، وتسلم منهم كتاب الأمير الذي ضمّنه التنصل مما رُمي به من شائعات وأنه لازال على الطاعة والولاء له. وتشير بعض الروايات التاريخية: أن السلطان استقبلهم وتحاور معهم وطلب منهم إما الدخول لداخل الايالة والنزول عنده في عز وإكرام وإما الخروج منها.[3] بينما تذهب الرواية الثانية إلى أن السلطان كان في حالة غضب شديدة، واتهم البوحميدي بقتل الأحمر ومنعه من الكلام و لم يعطيهم الأمان إلا بحضور الأمير

1- المرجع نفسه ، ص 415.

2- المرجع نفسه، ص 417

3- المهاوي،محمد : مقاومة المولى عبد الرحمان لفرنسي الجزائر من خلال مخطوط الابتسام عن دولة ابن هشام ، المرجع السابق ص 79 .

بنفسه؛ وذكر لنا شاستو أن السلطان كان يزبد كجمل هائج[1]

وأمام هذا الفشل الدبلوماسي لم يكن هناك بديلا عن التصادم العسكري لأن الأمير كان عاجزا عن الخروج من المغرب نحو الصحراء، وفي يوم 8 /12 تجمعت قوات بن عبد الصادق مع جيش المولي أحمد وفي يوم 11 منه تقابلوا مع سيدي محمد عند سلوان ليصل عدد القوات المخزنية 30000 جنديا في الوقت الذي كان فيه الأمير وبمساندة المطالسة مقيما على ضفاف ملوية من جهة ساحل كبدانة على مسافة 3 ساعات من جيش المخزن وبحوزته 2000 مشاة و1200فارسا. ونظرا لهذا التفاوت وظّف دهاءه العسكري بمبادرة الهجوم ليلا على قوات المخزن التي سرعان ما تفرقت حول نفسها وخلفت وراءها ما بين 1200 قتيلا وجريحا وحوالي 50مجاهدا في صفوف الجزائريين، ولكي يخفي هزيمته لجأ سيدي محمد إلى قطع رؤوس فرسانه –القتلى–وأرسلهم إلى فاس لتعلق على أسوارها بدليل انتصاره.

ومحاولة منه لاحتواء هذه الهزيمة كاتب السلطان قبائل أنجاد وبني يزناسن للعمل ضد الأمير:" أنظروا ما تكرر على أسماعكم من وقائع غدره، وما رمي به المنحاشين إليه من ظلمه وضره، فقد كاد أن يزلزل يقينكم، ولو ساعد تموه لبدل دينكم وأصرموا حباله ومن معه وأخرجوهم وضيقوا عليهم[2]. ثم كاتب كل من قلعية وكبدانة وما جاورهم من قبائل الزير

---

1 – يحي، جلال: مسألة الحدود المغربية الجزائرية والمشكلة الصحراوية: المرجع السابق، ص، 311.

2 – مولاي عبد الرحمن بن زيدان : الإتحاف ، المصدر السابق ، ص – ص 63 – 64.

وعرب تريفة. وبذلك أخذت الدائرة تضيق على المهاجرين الجزائريين. الذين كانت جيوش السلطان تعقبهم، فدارت معركة أخيرة بين الطرفين على ضفاف واد عجرود نهبت أثناءها محلته وما نجا منها إلا القليل، فشرّق بهم إلى أن دخل جبل بني خالد نحو الصحراء، وظنا منه أنه سيجد عندهم العون والنصير، إلا أن شيخ بني خالد قلب له ظهر المجن، فلم يسعه حينئذ إلا النظر في أمره وانتهاز الفرصة في الخروج بوجه مُشرف من هذا الموقف المخزي للسلطان ومن مكائد العدو ومكره. فجمع مجلسه وخطب فيهم فكانت النتيجة هي القبول بالتسليم للجيش الفرنسي في ديسمبر 1847.

ردود الفعل المخزنية حول توقف الأمير عن الجهاد:

حين توقف الأمير عن مواصلة الحرب ضد جيش الاحتلال أمر السلطان ابنه سيدي محمد بإطلاق 21 طلقة مدفع، وإقامة الاحتفالات عبر مختلف المدن المغربية، كما أمر الأئمة الإشادة بهذا النصر العظيم، ولتوضيح موقف المخزن أكتفي بالإشارة إلى الوثيقتين الآتيتين: فالوثيقة الأولى عبارة عن رسالة كتبها السلطان إلى أحمد بن المحاطية بتاريخ 30 /12/ 1847، وأهم ما جاء فيها:" الفاسد الفتان وخليفة الشيطان، أبعد في الخسارة وامتطى مطي الخسارة وسولت له نفسه الأمارة الاتصاف بالإمارة وأراد شق عصا الإسلام وصدع مهج الأنام؛ واستبطن المكر والخداع وفاق فيه عابدي وُد وسُواع فجهزنا له محلة منصورة ذات أعلام منشورة فكانت الكرة عليه

واستدبر المعركة وهام وعادت جموعه جمع تكسير وجيوشه موزعة بين قتيل وأسير"[1].

والوثيقة الثانية تُصور لنا انطباع أحمد بن بومزدى الهواري إلى السلطان بتاريخ 23 /1/ 1848م، وأهم ما جاء فيها:"ورد علينا من حضرة مولانا ما فتح الله به على المسلمين من رد الفاسد الفتان وحلبة الشيطان على كيده ، وبارت تجارته وباء بالخسارة وأتضح للمسلمين ضلاله ، فحصل بالقطر من السرور والفرح ونشر الأعلام ما أدهش العقول أنعش الأفهام، فقد تلطف خليفة مولانا ونخله حتى استظهر ما استبطنه الخداع من متابعة حزب أهل ود وسواع ...فصار من هذا عرش الملك في أعلا عز وفاق ، واتسق بذلك الأمر أي اتساق وليسهمني سيدي من ذلك الأجر الذي أعقبه الله بالبركة".[2] ومن خلالهما يمكن تسجيل النقاط الآتية:

- استمرار السلطان في وصف الأمير بصفات ذميمة ، والتي لم يسلم منها حتى بعد خروجه من المغرب.

- تصوير الأمير بمثابة الشخص الطامع في العرش المغربي وهذه النقطة تُشكل محطة رئيسية موضوع العلاقات بين الأمير والسلطان؛ فهل كان فعلا للأمير أطماع في عرش المغرب؟ اختلفت الروايات التاريخية حولها فهناك من أكدها وهناك من نفاها تماما. ولكل منهما وجهة نظره وأدلته، ولأهميته رأيت ضرورة التطرق إليها قصد الخروج بوجهة نظر حولها.

1- Ismail , homet. op. Cit.p.118 (22.mohorrm 1264)

2Ismail, homet. op.cit.p.121(16 sofor 1264)

- **الرأي الأول** : يشاطره الكثير من المؤرخين والباحثين المغاربة، ومن بينهم: إبراهيم، حركات:" بدأ يدعو لنفسه في مناطق الشمال التي تميزت عبر تاريخها الطويل وفي فتراته بأن تنظر بحذر إلى السلطة المركزية "[1] / أكنسوس: "وبرقت له بارقة وجاوز حده ، حتى أنه من فرط جهله طمع في ملك الغرب كله، وكان يصرح بذلك جهارا ويظهره في محافله إظهارا"[2] / الناصري:"وانه رام الاستبداد بل والتملك على المغرب ، فلما كانت هزيمة ايسلي ازداد طمعه فصار يدعو أهل النواحي إلى مبايعته والدخول في طاعته ، وكاتب الخواص من أهل فاس والدولة وكاتبوه على ما قيل "[3] / اسماعيل مولاي:" يرى أن الأمير عبد القادر قام بالثورة ضد المغرب"[4] / وأبو العلا إدريس:"فبعد أن زحف الأمير عبد القادر لهذه الإيالة مستنجدا أهلها وطالبا مالها ، ففتنه أعرابها وأنا موه في فرش الغرور وقربوا له القواصي القاصمة الظهور ، فما له ومبارزة سلطانه الذي أعلن بمبايعته"[5] / قدور بن علي البشير:" وعقب هذه الكارثة أخذ الغرور يتعاظم في نفس الحاج عبد القادر فأظهر الانقضاض على المغرب ولكن المولى عبد الرحمن قد تفطن للخديعة ،

---

1 المغرب عبر التاريخ ، خ ، 3 ، المرجع السابق ، ص 211

2 – الجيش العرمرم ، ص 221

3 الاستقصاء، المصدر السابق، ص 56.

4 تاريخ وحدة وانكماد في دوحة الأمجاد، ج 1 المرجع السابق

5 الابتسام عن دولة ابن هشام: ص 429.

فكانت بينه وبين الحاج عبد القادر وقعة التسول التي أفشلت (طابوره الخامس)"[1]

– **الرأي الثاني** : يرى أصحابه أن الأمير لم تكن له أطماع في عرش المغرب رغم المكانة التي حظي لدى القبائل ومن بينهم: محمد السعيد: " فإنتشر صيته بأرض المغرب وأحبه جميع أهله لفظيلة الجهاد ... فحسده سلطان المغرب لذلك خشية منه على أرضه وايالته مع أنه لم يكن له قصد إلا السكن بتلك الأرض حتى يفتح الله ، أو يأتي بأمر منه عنده " / هنري تشرشل " فقد اتصل عبد القادر برسائل من أعلى المستويات في الدولة ... وترجوّه أن يأتي لإنقاذ الدولة المغربية من الهيار وخراب محقق ودعوه لتولي عرش أجداده ولو كان عبد القادر مجرد مغتصب عادي للسلطة لما كلفه الأمر الآن أكثر من مد يده والاستيلاء على صولجان المغرب، ولكن دافعه الحقيقي كان الوطنية وليس الطموح"[2] / الأمير عبد القادر" وكنا اثر تلك الوقائع (إيسلي) انتقلنا بأهلنا إلى وادي ملوية بساحل البحر بموضع يقال له صبرة ... وأجريت الأحكام حينئذ على كل مخالف برضا العقلاء أهل الدين ...ولما بلغ سلطان المغرب أكد له الحسد والبغض السابقين ، فكاتب قائد الأحلاف وقتئذ (القائد حمدون) ...فهلا أردت ذلك بالحاج عبد القادر وقومه قبل أن يحدث منهم أمر؟"[3]

---

1 بنو يزناسن عبر الكفاح الوطني، المرجع السابق، ص 76

2 – حياة الأمير عبد القادر: المصدر السابق 225.

3 – المذكرات: المصدر السابق، ص 121 3.

فكيف كان موقف الأمير من هذا الافتراء ؟ نلمس ذلك من خلال مذكراته" لقد رفضت عرضا مُغريا وجه إلى بطريقة إجماعية ليس فقط لأن ديني يمنعني من مضرة حاكم أختاره الله ، ولكن لأنني بعد أن عرفت المغرب بمشاكله الداخلية ، شعرت أن ذلك سيقتضي مني على أقل اثنتي عشرة أو خمسة عشرة سنة ، لا لكي احكم مثل مولاي عبد الرحمن ولكن لكي يكون في استطاعتي أن أفرض القانون وأن أجعل حكومتي محترمة"[1]. وانطلاقا من هذا الموقف يمكننا القول أن فكرة العرش طُرحت لأول مرة من جنرالات فرنسا، بعد لجوء الأمير إلى المغرب مباشرة ؛1843 وتم تثمينها فيما بعد بالبعثات الدبلوماسية وتبادل الزيارات الثنائية، مع استغلال ظروف المغرب الداخلية والحالة النفسية للسلطان. وذلك بدليل:

- عندما طرحت الفكرة كان الأمير مخيما بالمغرب الشرقي (1843 – 1845) فلماذا استمرت فرنسا في طرحها بعد عودته إلى الغرب الجزائري (1845 – 1846)؟ هذا ما يعكس الطرح الفرنسي للفكرة، أما قدرات الأمير فإنها كانت لا تسمح له بتحقيق ذلك، لأن القدرات التي توفرت لديه بعد لجوءه إلى المغرب وظّفها أثناء عودته إلى الغرب الجزائري.

ما تركه وراءه أثناء عودته إلى الجزائر من دائرته سرعان ما انقسمت على نفسها نتيجة للجهود المخزنية ضدها، وحتى القبائل التي راهن عليها في مساعدته وجدها قد انحازت إلى صف السلطان. ومما سبق ذكره يمكن القول أنه لم تكن لعبد القادر الجزائري أطماع في عرش المغرب، وبعيدا عن

---

1 – حياة الأمير عبد القادر: المصدر السابق، ص 225.

المغالطات التاريخية نُثمن هذا الحكم بالمعطيات الآتية:

– عندما طرحت الفكرة بشكل جلي عقب معركة ايسلي، فالأمير صحيح كان بالمغرب الشرقي، ولقي كل الترحاب لدى القبائل، فلو صح ذلك ما كان له أن يتوغل في الغرب الجزائري للجهاد، وهو الذي لم يكن يضمن نجاته من الموت.

– ما جاء على لسان الأمير في خطاباته إلى السلطان، ومضمون الرسائل التي نقلتها الوفود الجزائرية إلى السلطان تنفي ذلك.

–التماس الأمير من السلطان في آخر المطاف للسماح له بالانسحاب إلى الصحراء بعد إعادة تشكيل جيشه ينفي ذلك تماما.

خـــاتمـــــــــــة : مما سبق نخلص إلى النتائج التالية:

– التأكيد على الدور الايجابي الذي قام به السلطان في دعم المقاومة الجزائرية بقيادة الأمير ما بين 1833-1843..

– نجاح فرنسا في تفكيك التعاون الجزائري المغربي بين السلطان والأمير.

– الأمير راهن في تعامله مع السلطان على الحنكة السياسية والدبلوماسية العسكرية في إطار الشريعة الإسلامية، فهو لم يكن ليُناور السلطان المغربي أو يداهنه على حساب مبادئه ومثله العليا، وخاصة ما تعلق منها بأصالة وهوية الأمير الجزائرية؛ عكس السلطان الذي كان من دون شك يعتقد أن الأمير فعلا هو مجرد ممثلا له في الغرب الجزائري ويعمل تحت وصايته.

– قوة التضامن الذي أبدته قبائل المغرب الشرقي مع المهاجرين والمجاهدين الجزائريين الذين احتموا بالمغرب الشرقي.

- فكرة العرش المغربي بذرة فرنسية لتفكيك وحدة التضامن المغربي الجزائري.

- ردود الفعل المغربية سيطر عليها دائما طابع التسرع في إصدار الأحكام الجزافية وبألفاظ نابية عنيفة نقلت من اللسان الفرنسي إلى رجال البلاط المغربي. دون ترو ولا تنبه لما ستنجر عنه من عواقب وخيمة.

- نجاح فرنسا في ضرب السلطان بالأمير الذي صورته له فرنسا بمثابة العدو الذي يجب القضاء عليه فاشتغل السلطان بذلك.

- التعامل المغربي مع الفرنسيين يفتقر للمناورة السياسية أو الحنكة الدبلوماسية؛ فتعاملوا مع فرنسا بكل صدق وإخلاص في الوقت الذي تعاملت فيه فرنسا معهم بالظاهر دون الباطن ولذلك فالبلاط المغربي آنذاك لم يخدم مصالح الشعب المغربي بالقدر الذي خدم مصالح الفرنسيين؛ من خلال تنفيذه للشروط الفرنسية المخزية ضد الأمير عبد القادر وجنوده المرابطين بالمغرب الشرقي. وفي الأخير فإن ما جاء في هذا المقال هو مجرد وجهة نظر تاريخية استنتجناها بناء على ما توفر لدينا من مادة علمية، كما ألفت الانتباه في الأخير إلى أن المادة العلمية حول هذا الموضوع ما زالت متناثرة هنا وهناك سواء في دُور الأرشيف بالمغرب أو في العواصم الأوربية. وجمعها من دون شك سيضيف الكثير من الجديد في موضوع العلاقات بين الأمير عبد القادر الجزائري والسلطان المغربي عبد الرحمان ابن هشام.

بيعة أهل الغرب الجزائري لسلطان المغرب وأثرها في بيعة الأمير عبد القادر

الأستاذة قاسي فريدة[1]

إثر سقوط النظام المركزي بالعاصمة واستسلام الداي حسين في 5 جويلية 1830م، حدث اضطراب كبير في جميع الولايات التابعة له، فقد أبدى باي إقليم التيطري مصطفى بومرزاق استسلامه، فنصبته فرنسا رسميا قائدا عليه.

ورغب باي وهران في نفس الامتياز، بينما تزعم الحاج أحمد باي المقاومة في الإقليم الشرقي.

إذن فكل من الإقليمي الوسط والشرقي قد اتضحت وضعيته ماعدا الإقليم الغربي فالباي حسن لم يكن مسيطرا على الوضع نظرا لعوامل كثيرة منها:

1. لم تكن له علاقة طيبة ووطيدة مع الحضر وشيوخ القبائل وأعيانها.
2. لم تكن شخصيته وإدارته قوية وبالتالي لم تسمح له بإبقاء سلطته كباي.

ومنه فإن تأثير سقوط النظام المركزي سيكون أكثر وضحا وخطورة في هذا الإقليم.

فبعد دخول القوات الفرنسية إلى ميناء وهران في 4 جانفي 1830م، تهيأ الأهالي للدفاع عن الإيالة وتحول ولاءهم العام إلى شيوخ الطرق الصوفية بدلا من السلطة الحاكمة.

1- أستاذة بقسم التاريخ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فكانت النتيجة انسحاب الباي مكرها، واستسلامه تاركا الإقليم في فوضى متناهية. وهنا تبرز الضرورة لوجود سلطة تضمن الاستقرار في المدن والأرياف وذلك بدخول العامة في طاعة حاكم مسلم يمنحونه البيعة التي كانت في أعناقهم للباي حسن.

ولكن السؤال من يكون هذا الحاكم؟

لقد فكروا في السلطان العثماني فإذا هو بعيد كل البعد وعاجز كل العجز عن تحقيق ما يرغبون فيه مادام عاجزا عن إنقاذ مدينة الجزائر. فقرر السكان التوجه إلى سلطان فاس بعاطفة عربية إسلامية لقربه من المنطقة ولأن تلمسان كانت منذ زمن طويل محط أنظار حكومات المغرب المتعاقبة، فقد كانت طبقة البرجوازية التجارية في المدينة لها علاقات وثيقة بفاس ومن هنا تطلعت على الدوام إلى المغرب.

وإزاء تطور الوضع وخطورته أتصل التلمسانيون بحاكم وجدة أبي العلاء إدريس بن حماد الجراري ليتوسط لهم لدى السلطان المغربي في قبول بيعتهم له بما يحميهم ويصلح شأنهم.

وصل وفد تلمسان إلى مكناس في أواخر أوت 1830 وقد عرض البيعة على السلطان عبد الرحمن بن هشام الذي رضي بها على أساس أن الضرورة تفرض عليه التدخل بناءً على:

1) طلب بيعة أهل المغرب الأوسط تخول لسلطان المغرب كل الحق في التدخل بحكم التعاقد بينه وبين أهل البلاد على اختيار تام منهم .

2) حقوق الجهاد، والتي لا يملك المغرب حق الاختيار في رفضها بحكم نوعية الغزو. ومع ذلك أراد تأسيس قبوله على سند شرعي مؤيد بنصوص يبرزها الفقهاء.

ولكن الفقهاء اختلفوا بين مؤيد للبيعة وعلى رأسهم أبو الحسن علي التسولي ومعارض لها وعلى رأسهم القاضي عبد الهادي العلوي. ولما لم يحدث إجماع، رفض السلطان البيعة.

لكن علماء تلمسان وفقهائها قاموا بموافقة أبدوا فيها الحجج حول بطلان فتوى علماء فاس على أساس أن بيعة السلطان العثماني ليست حقيقية وإنما كانت له مجرد الاسم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن طلب وفد تلمسان تزامن مع طلب وفد بني عامر الذي توجه إلى فاس بناءً على اقتراح محي الدين. فنظرا لعدم استقرار الأمور وخطورة الوضع الأمني، توجه إليه شيوخ الطرق الصوفية، فاقترح عليهم وفدا مكونا من عشرة أعضاء من أهم المرابطين والشيوخ تأثيرا في المنطقة، وقد استقبله السلطان بود مع وفد تلمسان ووعد بدراسة مطالبه.

ولما اقتنع السلطان المغربي بمطالب الوفد الجزائري عقد لابن عمه علي بن سليمان وقائده إدريس بن العلاء بن حماد الجراري واستوصى بالجميع خيرا، واعتمد نائب السلطان على سيدي الحاج العربي الشريف الوزان الذي كان له نفوذ كبير في منطقة الغرب الجزائري لكي يدعو القبائل للدخول في طاعته.

ولما وصل المولى علي بن سليمان إلى تلمسان فرح به الحضر وقدمت عليه الوفود من كل ناحية وأخذ عليهم البيعة للسلطان.

وكان من الذين بايعوه أهل معسكر والحشم وبنو شقران ومرابطو غريس حيث تقدم إليه وفد يتكون من رؤساء بني هاشم وبني مجاهر وعلى رأسهم محي الدين وولده عبد القادر.

ولكن الأمر لم يستقر طويلا لنائب السلطان فقد انحرفت عنه الكراغلة وقبيلتا الدوائر والزمالة، وحدث فساد كبير، فكان رد فعله سيئا ضدهم حيث أنه قبض عليهم وكبلهم ووجههم إلى فاس، وثارت الفتنة أكثر مما كانت عليه قبل مجيئه. وتراجعت الوفود التي بايعته عن محبته.

فرجع المولى علي في أخر رمضان بعد أن قام بتلمسان مدة ستة أشهر. وقد كانت محاولة أخرى للسلطان المغربي تمثلت في تعيين حاكم جديد هو الشريف بلحمري الذي دخل تلمسان مستصحبا معه آغوات الدوائر والزمالة، وقوي موقف السلطة المغربية الجديدة بتأييد القبائل المجاورة لوهران الناقمة على سياسة الجنرال "BOYER" .

إلا أن سلطته لم تتعد حدود تلمسان إذ أنه لم يستطع الاستيلاء على وهران. ثم إن سعي فرنسا عن طريق مبعوثها الكونت شارل دومونارى CHARLE DOMONARI لإقناع السلطان باستدعاء عامله عن تلمسان والانتهاء عن التدخل نهائيا في الجزائر هو الذي سينهي الوجود المغربي في منطقة الغرب الجزائري.

إذن تدخل فاس في المنطقة لم يجلب الأمن والاستقرار، بل زادت الفتن والفوضى في غياب سلطة قائمة.

ومرة أخرى تتجه الأنظار إلى الشيخ محي الدين الذي يرضى بالمبايعة على الجهاد وتولي مهمة الدفاع عن المنطقة وحمايتها.

لكن هذا لم يكن كافيا فلا بد من قائد يسد الثغور ويكون مسؤولا عن تنظيم وجباية الضرائب، واستخدام وتنمية الموارد لضمان العيش الكريم لأهالي الوطن.

وتمت مناقشة هذه الأمور بكل جدية في اجتماع عام بمنطقة غريس، وتأكدت مبايعة محي الدين للإمارة، هذا الأخير الذي أعتذر بكبر سنه ورشح لهذا المنصب ابنه عبد القادر.

واستقبل الحاضرون هذا الحل الفجائي بكل حفاوة ورضى. وكان من أهم العوامل التي رشحت عبد القادر للإمارة:

-**النسب**: فهو ليس من الكراغلة أو طبقة عسكرية بل من أسرة متوسطة الحال متمسكة بالدين والأخلاق.

-**شخصيته**: ومن أهم صفاتها النجابة، الهدى، علو الهمة، العلم، الحلم، الحماسة، الشجاعة، كمال الخلق، القوة، الشجاعة.

-انتماؤه إلى الطريقة القادرية.

-قدرته العسكرية والتي ظهرت في المعارك التي قادها مع والده.

وأهم الدلالات التي نستشفها من البيعة:

-إن قيام دولة الأمير انبثقت عن إدارة شعبية في عهد كانت فيه الدولة في العالم الإسلامي تعيش على الحكم الوراثي، وفيه تحقيق لنظام أصيل ألا وهو الخلافة.

- حققت البيعة الالتزام برأي الجماعة أو الأغلبية التي تناصر الأمير وتدعم دولته، وتجلى هذا في تشريك مجلس العلماء معه في مباشرة الحكم وفي اتخاذ القرارات تجسيد المبدأ الدستوري.

- دولة الأمير محكومة في قوانينها وتشريعاتها إلى النظام الإسلامي الأصيل.
- دولة وطنية اشتركت العناصر الجزائرية في إرساء دعائمها والمحافظة على استمرارها.

أهم المصادر والمراجع المعتمدة:

- الأمير عبد القادر، المذكرات.
- هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر.
- ابن التهامي مصطفى، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده.
- الناصري أبو العباس، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج8.
- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج1.
- الغماري، المؤثرات الحقيقية وراء موقف المؤرخين الأجانب من التدخل المغربي في تلمسان إثر احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830.

- Azan (p), l'emir Abdelkader (1808- 1883) du fanatisme musulman au patriotisme français.

-Brissuc (ph – de), rapport de la France et du Maroc pendant la conquête de l'algerie.

- Bencha chenchou (A), l'état algérien en 1830, ses institutions sous l'emir abdelkader.

موقف المخزنية من مبايعة الأمير عبد القادر
(قبائل الدوائر والزمالة أنموذجا)

الأستاذة حليمة أمقران[1]

بسم الله وكفى والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى وبعد:

أساتذتي الأفاضل، إخواني الطلبة، أخواتي الطالبات، أحييكم بتحية الإسلام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تلبية لطلب أستاذي الدكتور عميراوي احميده الذي أشكره جزيل الشكر، ورغبة مني في المشاركة في المجال العلمي؛ ولاسيما التاريخ منه، كان لي شرف المشاركة في هذه الندوة المباركة حول شخصية فذة نادرة، تمثل في بطل قارع الاستعمار وصمد له، حول صاحب الإيمان القويم والعلم الغزير والصمود الدائم، حول زعيمنا الأمير عبد القادر الجزائري وعلى هذا فسأقدم هذه المحاولة المتواضعة- وأملي أن أستفيد وأفيد- والتي اخترت لها عنوان: موقف قبائل المخزن من مبايعة الأمير عبد القادر- الدوائر والزمالة أنموذجا" وهذا وفقا للنقاط الآتية:

- موجز عن مجال السيادة في الجزائر أواخر العهد العثماني.
- موجز عن المخزنية في الجزائر أثناء الحكم العثماني.
- موقف الدوائر والزمالة من مبايعة الأمير عبد القادر.

I- موجز عن مجال السيادة في الجزائر أواخر العهد العثماني:

1- باحثة، وهي بصدد تقديم موضوع ماجستير عن المخزنية في الجزائر

إن العهد العثماني من أهم فترات تاريخ الجزائر، ولا ترجع أهميته إلى طول فترته الزمنية، وإنما لاعتبارات سياسية واجتماعية وثقافية تركها ذلك العهد، ولا تزال بصماتها عالقة إلى اليوم بالجزائريين. وعلى هذا الأساس هل يمكن الحديث عن مجال السيادة العثمانية في الجزائر؟ وبمعنى آخر.. هل استطاعت هذه الأخيرة أن تحكم بقانونها أغلبية الشرائح الاجتماعية؟

قبل الإجابة على هذه التساؤلات، نشير إلى أن السلطة هي تعبير عن إرادة الهيئة الحاكمة التي تخضع لها مجموعة من الأفراد، حيث تخوله الحق بممارسة نفوذ ذي حدين يشمل القوة والاختصاص. لكن وبما أن هذه السلطة تلازمها صفة القهر تصبح قانونية حين ترضي مجموعة من الأفراد بالخضوع لها[2]

بعد أن عرفنا مفهوم السلطة، فهل بإمكاننا اعتبار السلطة العثمانية بالجزائر سيادة؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف نفسر الثورات المحلية التي قامت ضدها؟

مما سبق نصل إلى القول إن السلطة العثمانية لم تكن وحدها في الجزائر، بل وجدت سلطات أخرى بجانبها. وأهمها السلطة الطرقية التي كانت سائدة في هذا العهد، والتي كان لشيوخها من الولاء الشعبي ما يضاهي بل يفوق الولاء العام لنظام الحكم.

---

2 - حسين ملحم، النظرة العامة للدولة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 1977، ص 22.

والسلطة المذهبية أي الولاء للإمام (إمام المذهب) مثلما يحصل عند الاباضية مثلا. من دون أن ننسى ما للشريفية وكذا القبلية من سلطة (فهي في حد ذاتها مؤسسة قائمة أو بمعنى أخر فهي إحدى أهم السلطات ذات السيادة في أواسط المجتمع الجزائري، فشيخ القبلية بحد ذاته يعتبر مؤسسة قائمة).

وبناء على هذا يمكن القول بوجود أكثر من سلطة وبالتالي بوجود أكثر من مجال سيادة؛ وما يهمنا نحن في هذا الصدد، أو ما يخدم موضوعنا هو الأرض- إذ لم تكن مورد مال فحسب بل كانت هوية للجزائري. فالنظام العثماني كان الوصي على الأرض من الناحية النظرية لأنه يمثل السلطان أو الخليفة- لكن من الناحية العملية—لم يكن يملك كل الأرض، وإنما كانت وصايته على جزء منها، وهو الجزء الممنوح لشريحة معينة لتقوم عليه مقابل القيام بخدمات وجمع الضريبة. هذه الشريحة التي لعبت الدور الأساس في هذه السياسة لصالح النظام العثماني، التي بواسطتها كان يفرض سيطرته، ومن ثم كان مجال سيادته محدودا، هذه الشريحة هي القبائل المخزنية، والتي سنحاول التعريف بها في العنصر الموالي.

2- موجز المخزنية في الجزائر أثناء الحكم العثماني بها:

يتعلق حديثنا عن قبائل المخزن بنظام الحكم في الريف الجزائري إذ كان يستند إلى القبائل المخزنية. والتساؤل الذي يتبادر إلى أذهاننا هو ما هي مؤسسات نظام الحكم في الريف الجزائري خلال العهد العثماني؟

والهدف من طرح التساؤل هو معرفة دور المخزنية في الجزائر العثمانية فما مفهوم المخزنية وما دورها في الجزائر العثمانية؟

قبائل المخزن على رأي "بويان" هي عبارة عن مجموعات سكانية تعميرية لها صبغة فلاحية وعسكرية وإدارية، وغالبا ما تتكون من عائلات غير متقاربة، تقوم الحكومة بتجميعها وإسكانها في مساحات محددة من الأراضي التابعة لها، وبهذا المفهوم تكون هذه العشائر تجمعات سكانية اصطناعية متمايزة في أصولها مختلفة في أعراقها، فمنها من أقره الأتراك بالأراضي التي وجدت عليها لتكون سندا لهم، ومنها من استقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين من جهات مختلفة، ليؤلف جماعة شبه عسكرية، ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية، وهذا لا يعني أن هذه القبائل المخزنية كلها من أصول مختلفة، فهناك قبائل ذات نسب واحد أعلنت ولاءها أو فرض عليها التزام الطاعة. مثل قبيلة الزمول والأعشاش اللتين تشكلان الطرف القوي الثاني من النمامشة؛ واللتين ثبتهما النظام العثماني كمخزن لمحاربة بني مراد الثائرين.

وقد وجد النظام العثماني سندا قويا في هذه الشريحة من القبائل المخزنية، وذلك لاتساع رقعة البلاد وقلة عدد جيش الانكشارية، ولهذا كان الاعتماد على المخزنية يوفر للنظام الاستقرار أكثر مما يوفره الجيش

الانكشاري، زيادة على ما يتم من تخفيف أمور هذا الجيش والتخلص من جوره[3].

وكانت القبائل المخزنية تقيم في مناطق حساسة وفي أبراج نذكر منها قبيلة الحشم في برج بوعريرج التي كانت تشرف على الطريق الرابط بين قسنطينة والجزائر العاصمة، ومخزن الزمول الذي كان يشرف على شرق شمال بسكرة. ومخزن الأعشاش المتوطن شمال الأوراس. وزمالة بني مراد التي كانت تحرس الطريق الواصل بين قسنطينة وتونس.

أما عن دفع الضرائب، فقبائل المخزن على خلاف القبائل الأخرى كانت تدفع الضرائب عينا، وكانت تحصل على امتيازات عديدة كالإعفاء من الضرائب الإضافية والضرائب الأخرى المسماة في الجزائر الوسط باللزمة وفي بايلك الشرق بالجبري؛ هذا فضلا عن حصولها على الرواتب مقابل خدماتها.

ونخلص إلى القول بأن المخزنية مؤسسة قبلية حليفة للنظام العثماني بالريف الجزائري كقوة مأخوذة من أبناء البلاد لإدارة شؤون البلاد.

3- موقف الدوائر والزمالة (المخزنية) من مبايعة الأمير عبد القادر:

تعرضنا إلى مجال السيادة في الجزائر العثمانية وعرفنا أن هناك سلطات متعددة في الجزائر في هذا العهد، وعلى هذا يكون من الصعوبة

---

3 - سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي 2000، والمقال نفسه في مجلة الأصالة عدد 32، 1976، ص46- 63.

الحديث من وجود دولة عثمانية قوية ومحسوسة في كامل البلاد الجزائرية بمثل ما هي عليه الآن. في حين أنه من السهولة بمكان الحديث عن وجود هيئة لدولة المدينة أو سلطة المدينة أواخر العهد العثماني ولكنها لم تكن تجسيدا من التشكيلات الاجتماعية الجزائرية، ولهذا فسرعان ما سقطت أمام الضربات الاستعمارية الأولى؛ على خلاف الأمر الذي حدث مع الريف الجزائري؛ وأحسن مثال نسوقه في هذا المقام -وخاصة ونحن في ندوة حول الأمير عبد القادر- هو مقاومة الأمير عبد القادر ومن عاصروه من الجزائريين، وهو ما جعل الريف يظل صامدا أمام الاستعمار دون أن يتأثر بسقوط العاصمة.

فبعد أن تمت البيعةفي الثالث من شهر رجب من عام 1248هـ الموافق للسابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة 1832، ووقع الأعيان والعلماء- الذين شهدوا بيعة الأمير عبد القادر الجزائري* الصك الذي سجلت فيه إثباتا لشهادتهم على هذا الحدث التاريخي[4]

---

* ولد الأمير عبد القادر في 23 رجب 1222ه الموافق لـ 26 سبتمبر 1807 بقرية القيطنة. تعلم في الجزائر ومصر العلوم الدينية واللغوية والعربية، سافر مع والده محي الدين إلى المشرق عبر تونس في 1825 ثم الاسكندرية ثم القاهرة ومنها إلى جدة وهنالك أدى مناسك الحج زمنها إلى بغداد من أجل زيارة ضريح عبد القادر= =الجيلالي حيث أقاما هناك لمدة شهرين عاد بعدها إلى مكة ثم إلى مصر ومنها إلى تونس ليعود إلى معسكر، وفي هذه الأثناء تمت بيعته بعد أن رفض والده أن يكون

كلف الأمير مجلس العلماء بأن يكاتبوا رؤساء القبائل في مختلف أطراف البلاد بأمر البيعة، وما وقع عليه الاتفاق، ومن يدعوهم للحضور لأداء بيعتهم كما أداها غيرهم.

أثناء ذلك سارعت الوفود التي تمثل مختلف المناطق والقبائل وانعقد المجلس واشتركت فيه الجماهير الشعبية والأشراف والعلماء والرؤساء وجددت فيه البيعة الثانية، وقد حررت وثيقة أخرى لهذه البيعة قرئت على الشعب، وتم التوقيع عليها في 13 رمضان 1248هـ 3 فبراير 1833.

وبعد ما أستقر الوضع واستتب الأمر للأمير شرع في تشكيل حكومته ودولته، كانت أكبر معضلة واجهت الأمير عبد القادر بالغرب الوهراني بعد استقراره معارضة زعماء قبائل الدوائر والزمالة.

وقبل أن نتعرض إلى موقف قبائل الدوائر والزمالة بيعة الأمير عبد القادر، سنحاول التعرف على هذه القبائل.

يقول الدكتور يحي بوعزيز، وكذلك عبد القادر الجزائري في "تحفة الزائر «أهل الدوائر والزمالة سكنا سهل غبال، وهم أخلاط من العرب والأتراك كانوا يلومون بالباي محمد حاكم معسكر وفاتح وهران من يد

أميرا. لمزيد من المعلومات حول سيرة الأمير أنظر= الحاج مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده تحقيق د. بوعزيز ط1، بيروت دار الغرب الإسلامي.

4 – لمزيد من المعلومات حول هذه البيعة فلينظر: عبد القادر الجزائر، تحفة لزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق: د. ممدوح حقي، ط2، بيروت: دار اليقضة العربية، 1964.

دولة اسبانيا، ولما حل الطاعون العام الجارف لبلاد المغرب الأوسط في القرن الثالث عشر الهجري خيم الباي في ظاهر البلاد. وخرج الناس لخروجه، فعين من هؤلاء الخدم جماعة للنزول في دائرة خيامه فسموا (الدوائر) وعين أخرين لحمل أثقاله وأثقال عسكره فسموا (الزمالة)»[5].

ويقول الدكتور سعد الله:" الدوائر والزمالة مجموعتان كبيرتان من القبائل كانتا بالقرب من قبائل المخزن، كانوا في خدمة البايات حيث كانوا يقومون بخدمات في دار الخيام فسموا الدوائر وتحملوا الأثقال فسموا الزمالة". بعد هذه النظرة الخاطفة حول هذه القبائل يتبادر إلى أذهاننا جملة من التساؤلات الآتية:

– ما هو موقف المخزنية وعلى رأسها قبائل "الدوائر والزمالة" من بيعة الأمير عبد القادر؟ لنصل إلى طرح الاشكالية التالية: ماهو سبب أو أسباب معارضة زعماء قبائل الدوائر والزمالة للأمير عبد القادر؟ وهل للأمير يد في عصيانهم؟ أم أن الاستعداد الطبيعي لخدمة الأجنبي لدى هذه القبائل هو السبب الرئيسي في تخليهم عن الأمير عبد القادر وانضمامهم لخدمة الفرنسيين.؟

وهذا مما سنحاول الإجابة عليه من خلال هذه المداخلة – إن شاء الله تعالى– نعود للقول إنه بعد أن تمت البيعة للأمير عبد القادر خاطب

---

5 – عبد القادر الجزائر، تحفة لزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ص217.

مصطفى بن اسماعيل* - وهو شيخ قبائل الدوايـر - بمخزنية بالادعاء له بالطاعة، إذ رفض في البداية ولي فيما بعد لما رأى الناس بايعته جهارا وعرف هو وابن أخيه الحاج بن عودة المزري (صاحب مخطوط طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود) وكذا أخيه الحاج بالحضري أن امتناعهم عن بيعة الأمير ليس في صالحهم، وعلى هذا الأساس نيابة عن المخزن، أعلنوا طاعتهم وعين الأمير الحاج بالحضري آغة على المخزن. وبذلك تكون هذه القبائل قد دخلت تحت حكم الأمير ولبت نداءه، ولكن اعتبارات عديدة وظروف أخرى ستغير مجرى الأحداث وتجعل هذه القبائل تتخذ موقفا صارما ضد الأمير عبد القادر.

بدأت بوادر الفتنة بين الطرفين (قبائل الدوايـر والزمالة والأمير) منذ أن هاجم بنو عامر (وهم حلفاء الحشم الغرابة أقرباء الأمير عبد القادر) قطعان إبل الدوايـر والزمالة وأخذوها بإغراء من الحشم الغرابة، وقد شكاهم مخزن الدوايـر والزمالة إلى الأمير - وكان والده محي الدين في صفهم - فيما بعد في هذه الأثناء يظهر طرف آخر وهو الشيخ بالغماري كبير قبائل أنقاد الذي دخل تحت طاعة الأمير وهو خصم تقليدي لبني عامر، وكان استقراره هو وقومه بجوار قبائل الدوايـر والزمالة. وكان فتيل المعركة القاضية بين بنو عامر وأنقاد قوم بالغماري الذين استنجدوا برجال المخزن فلبوا النداء - معركة طاحنة بين الطرفين قدم بعدها الحشم الغرابة

---

* وهو الشخص الذي أختار محي الدين والد الأمير عبد القادر للإمارة .

صورة مشوهة وألبوه على الدوايرِ والزمالة، إذ كاتب الأمير القبائل الخاضعة له، فوقعت احدى تلك الرسائل في يد مصطفى بن إسماعيل فدفعته للاستسلام إلى لجنرال دبمشال الذي رفض طلبه. بعدها طلب مصطفى بن اسماعيل من أفراد قبيلته اللجوء إلى الناحية الغربية والالتجاء إلى سلطان المغرب- عبد الرحمن بن هشام- إلا أنه أبدى لهم رغبته في إحداث الصلح بينهم وبين الأمير، ولما سدت أمامهم كل السبل فقرروا مواصلة الحرب ضد الأمير فاصطدموا معه عند ملتقى وادي التافنة ووادي الزيتون. وهنا قرر الأمير التفاوض معهم لإبرام الصلح. بعد العودة إلى تلمسان وهنا اقترح نقلهم (مصطفى) إلى تلمسان لضمان عدم اتصالهم بالفرنسيين، لكن الحشم وبني عامر كانوا يقفون دائما كعقبة بين الطرفين حين أقنعوا الأمير سوء نوايا مصطفى بن إسماعيل، وبأنه يطمح ويخطط للاستحواذ على السلطة والنفوذ، وكانت هذه هي البداية لخروج رجال المخزن عن طاعة الأمير. فبعد أن عزل دبمشال وحل محله الضابط TREZEL في فيفري 1834/2/28. استغل مشاكل الدوايرِ والزمالة للوصول إلى غرضه ورحب بميل هذه القبائل إلى السلطة الفرنسية أثناء محاولة عودتهم من ضواحي تلمسان إلى مواطنهم الأولى. فحاول الأمير منهم بالقوة، الأمر الذي دفعهم إلى طلب الحماية من السلطة الفرنسية، وقد لبى رجال السلطة وفي مقدمتهم ترزيل دعوتهم حيث أرسل فرقة من

الجيش الفرنسي لنصرتهم وانتهى هذا التدخل بتوقيع معاهدة ذات اثنتي عشر مادة يوم 16 جوان 1835م* الجيش الفرنسي.

وكان لهذه المعاهدة نتائج كثيرة، يكفي أنها تعد من أكبر العوامل التي دفعت الطرفين الفرنسي والأمير إلى نقض معاهدة دميشال، وكانت سببا في نشوب معركة المقطع الشهير: (واد الهبرة) بين الطرفين أيام 26-30 جوان 1835 التي انتهت بانتصار الأمير. وعين الحاكم العام وهو Clauzel الذي مارس سياسة عسكرية قوية ضد الأمير. وكان موقف الدوابر والزمالة في صالح الفرنسيين وضربة قوية ضد المبايعة.

---

* للمعاهدة كاملة ببنودها مترجمة موجودة في كتاب الدكتور عميرواي: دراسات في تاريخ الجزائر الحديث. منشورات جامعة منتوري قسنطينة 1999

المقومات الجيواستراتيجية لإقليم دولة ا الأمير عبد القادر

الأستاذ سليم زاوية[1]

مقدمة:

إن الدارس لشخصية وتاريخ الأمير عبد القادر يجد نفسه يتساءل وبإلحاح عن سر اعتراف فرنسا بشخصه، وبسلطته السياسية والروحية على بايلك الغرب.

وكذلك يتساءل عن أسباب قدرته في وضع اللبنات الأولى لدولة جزائرية معاصرة، مختلفة عن النماذج السياسية المنتشرة في المشرق العربي.

والأهم من ذلك أنه صمد في مقاومته السياسية والعسكرية أكثر من خمس عشرة سنة، في ظل اختلال موازين القوى السياسية والعسكرية، والحضارية بينهما.

وكانت الإجابة عن هذه الإشكالات والتساؤلات ضمن أبنية واتجاهات مختلفة من الدراسات والأبحاث، إلا أن المسألة التي نريد التطرق إليها في هذه المداخلة، هي شبكة الروابط، والركائز المنظمة لدولة ومقاومة الأمير وفق أبعاد المكان الجغرافي الذي تفاعل وتكامل مع عناصره الحيوية في صنع سيرة الحياة الاجتماعية، الثقافية والاقتصادية، والسياسية.

1- أستاذ ورئيس قسم التاريخ في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة

فالمكان يلعب دورا هاما في كثير من الظواهر الجغرافية والسياسية رغم أنه عنصر ثابت في حقيقته المجردة، إلا أنه متحرك ومتغير بصفة مستمرة في ارتباطاته بالإنسان، لأن الإنسان في جوهره عنصر متحرك.

لهذا يجب أن نكيف المكان بعلاقاته التي تعد أهم ما يجب أن يدور حوله البحث في العلوم الجغرافية عامة، والبشرية السياسية خاصة، لأنها تعبر عن المكان المتحرك والمتغير أبدا.

وقد أكد هالفرود ماكيند "H. MACKINDER" دور التغير بالنسبة للمكان في دراساته الجيوبوليتيكية حينما عدل مرتين نظريته الخاصة بقلب العالم. فقد تكلم عن عنصر الانسان المتحرك ليعبر عن الحركة المستمرة للإنسان والأفكار، والمنتجات. وكذلك تكلم جان قوتمان" J. GOTTMAN " عن عامل الحركة التي تسمح بالمرونة والتغير في الخطط والقرارات.[1]

نحاول في هذه الورقة تحليل المقومات الجيوسياسية لإقليم دولة الأمير عبد القادر، للوقوف على أبعادها الجيواستراتيجية، وخصوصيات الإستراتجية العسكرية في مواجهة حملات الاحتلال الفرنسي.

أولا: العناصر الأساسية التي اعتمد عليها الأمير عبد القادر في بناء الدولة ووضع استراتيجية المقاومة:

---

1 : د. محمد رياض: الجغرافيا السياسية والجيوبولتيكيا. دار النهضة العربية. لبنان ط2.. 1979 ص.ص. 56.57

لقد استطاع الأمير عبد القادر أن يوظف كل العوامل والأوراق الرابحة المتوفرة له، توظيفا ايجابيا وإلى أقصى حد، من منظومة طبيعية للإقليم، وتركيبة اجتماعية وثقافية للسكان، وذلك في وضع ركائز الدولة، واستراتيجية المقاومة، وهي تتمثل في العناصر الآتية:

1- التركيبة القبلية والعصبية:

لقد تعامل الأمير عبد القادر مع الخصوصيات الاجتماعية والثقافية المتمثلة في الفسيفساء القبلية والعصبيات المتعددة والمتصارعة كوحدة أساسية للمشهد السياسي المشكل للإقليم، بحكمة رجل الدولة والسياسي المحنك، بحيث استطاع أن يجندها لولاء السلطة المركزية والجماعة. فالأمير عبد القادر كان اللحمة الضرورية التي جمعت وقادت القبائل في مقاومة الاحتلال وحماية الدين، وهي تعد بذلك نقلة نوعية من الناحية السياسية في بناء دولة معاصرة قائمة على وحدة الأمة على النمط الغربي والتي تعرف بالدولة القومية" NATIONS-ETATS ".

2- الروح الجماعية:

لقد مكنت المبايعة الجماعة من اختيار حاكمها الأمير عبد القادر، وأن تتفاعل معه بالمشاركة في الرأي والبناء كل واحد حسب مكان تواجده، لأن الدولة الديمقراطية يشارك فيها جميع المواطنين، ولا تحتكر السلطة فيها يد شخص واحد كما هو كان سائدا، وأن يلزم الحاكم بما تطالب به الأمة من أهداف وتطلعات، وهي حماية الوطن والدين.

3- الدين الإسلامي:

لقد بنى الأمير عبد القادر دولة وطنية ودينية. دينية باعتبارها متشبعة بروح الدين الإسلامي وقائمة على الأخلاق والتسامح والعدالة، ووطنية باعتبارها دولة موجهة للخارج ومحاربة العدو أكثر من استخدامها في القضاء على المعارضة الداخلية وحماية المصالح والمواقع، فمهام الدولة ليس فقط الدفاع عن الدين وحده بل كانت دفاعا أيضا على الوطن. وبهذه الطريقة المنتظمة استطاع الأمير عبد القادر أن يجند كل الطاقات البشرية والاقتصادية للجهاد (زكاة وعشور) في تقوية الدولة[1].

4- الارتباط بين الانسان والأرض:

إن الارتباط الوثيق بين الانسان الجزائري والأرض يكشف على أن هناك علاقة وجدانية وتفاعل نفساني جمعي قويين جعل التمسك بالأرض تحقيقا للذات، وتوصلا للتراث الريفي والتاريخي منذ آلالاف السنين، مما أعطى قدرة كبيرة وتجنيد قوي لحماية الأرض والوطن من الاحتلال الأجنبي بحكم الانتماء والارتباط بالتاريخ والمكان الجغرافي.

5- تنظيم مكاني مزدوج بين الريف والمدينة:

وضع الأمير عبد القادر تنظيما مكانيا جديدا إدراكا منه بأهمية المكان كأداة لبناء مشروع اجتماعي، ثقافي وسياسي قادر على مواجهة مشروع المحتل القائم على نخبة وقوة المدينة وجيش نظامي متطور. لذلك توجه الأمير

---

1 - إسماعيل زروخي: الدولة الوطنية وأصالتها عند الأمير عبد القادر. مجلة سنوية السنة الثامنة. العدد12 جوان 1999. جامعة منتوري قسنطينة. ص.ص. 141

إلى اعتماد سياسة بناء المدن واعتبارها عمود أساسي في بناء الدولة ومقاومة العدو، لكونها تشكل رصيدا قادرا على الصمود ومحاهمة المشروع المضـــاد، بالاضافة إلى استخدامها كوسيلة حيوية لبسط السيادة والاشراف على كامل إقليم الدولة[1]

6- البيئة الطبيعية:

لقد وظف الأمير عبد القادر بحكم خبرته العسكرية الميدانية، ومعرفته الجيدة ببيئته الجغرافية. كل الخصوصيات الطبيعية، من طبوغرافيـــة صـــعبة، ومناخ عنيف، وأبعاد مجالية واسعة. والأساليب المتعددة في الحـــروب، مـــن استدراج، ومباغتة، وتراجع وهجوم....إلخ في حسن مقاومـــة ومواجهـــة العدُو.

وخلاصة، نجد أن الأمير عبد القادر استطاع أن يستخدم كل العوامل والأسباب المتوفرة بطريقة عقلانية وإيجابية وواجه المحتل بوسائل وامكانـــات مغايرة لا يملكها العدو في ساحة الحرب محققا بذلك من اختلال موازين القوة بينهما.

ثانيا: المقومات الجيوسياسية لإقليم دولة الأمير عبد القادر:

إن تاريخ المجتمعات البشرية سواء ما كان منها بدائيا أو منظما في إطار الدولة، لا يمكنه قط أن يهمل تفحص الشروط الجغرافية.

1- حميدة عميراوي: "الريف والمدينة في استراتيجية الأمير عبد القادر"، مجلة للعلوم الإسلامية، العدد 11 فيفري 2002. ص.ص.ص. 172.171.170

إن الدولة في الصورة التي نعرفها عليها متصلة بأرض تمـارس عليهـا إشرافها حيث يقول مؤسس الجغرافية السياسية راتزل<< أن الإلمام بالدولة لا ينفصل عن الإمام بالأرض>>[1] ومادامت الجغرافية مجالها الدولة أساسا فلا بد من معرفة عناصر الدولة من الناحية الجغرافية، فلا توجـد دولـة في فراغ، ولا توجد أيضا وحدة دون سكان أي بمعنى:

الدولة= أرض ذات حدود+سكان.

ونظرا لأنه توجد حتمية في العلاقة بين البيئة والسكان فلا نتنظـر أن تجد استجابة واحدة من السكان للأرض، ومن هنا كان الاختلاف في النظم من وحدة إلى أخرى على النحو الآتي:

الدولة= أرض ذات حدود+ سكان + علاقة بينهما.

لذلك فالدولة هي ليست مجرد مساحة من الأرض ومجتمعـا يعـيش عليها، بل هي حقيقة اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية تتشـكل مـن العناصر الأساسية الأتية:

- مساحة من الأرض تحدها حدود متعارف أو متنازع عليها.
- شعب مقيم بصفة دائمة.
- نظام حكم اداري لضمان سيادة الدولة.
- بناء اقتصادي أيا كان شكله.

---

1 - جان باتيست.ر، بيير رينوفان: مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية، دار بحر المتوسط باريس ودار العويدات لبنان: ط2. 1982. ص.ص 15-16.

وبعد هذا التوضيح نقوم بتحليل مقومات الرقعة الجغرافية التي كـــان يسيطر عليها الأمير عبد القادر من عام 1833 إلى عام 1847م لنتأكد من أحقية توفر شروط قيام الدولة في إقليم الأمير أم لا (أنظر الخريطة:1)

* الجانب الطبيعي:

1- الموقع الجغرافي:

يقع الإقليم في الشمال الغربي للجزائر، ممتدا من الحدود مع المغرب إلى الحدود مع بايلك الشرق، وبالضبط من وجانة إلى واد خضرة. ومن واحات الزيبان والبيض، إلى جبال قصور وعمور جنوبا، ومن ميناء رشـــكون إلى سهول متيجة على طول السواحل البحرية شمالا.

2- المساحة

يحتل إقليم الدولة الأمير مساحة واسعة تشكل أكثر من 70% مـــن مساحة شمال الجزائر، ممـــا أدى إلى تنـــوع أقاليمـــه الطبيعيـــة، ومواقعـــه الاستراتيجية، وموارده الاقتصادية أهمها:

-السواحل البحرية الطويلة.

-الجبال التلية والصحراوية المنيعة.

-الهضاب والشطوط الواسعة.

-الواحات الصحراوية غير متناهية.

3- العمق الاستراتيجي

يمثل إقليم دولة الأمير عبد القادر من منطلق جغرافي عمقـــا وخلفيـــة استراتيجية هامة أهمها:

-الحماية الطبيعية لإقليم الدولة من الغرب والجنوب.

- تشكل الجبال الصحراوية خلفية استراتيجية في استراتيجية الهجوم والدفاع.
- عمق استراتيجي مميز من الشرق بحكم بعد الحدود الشرقية عن الحدود الغربية، ومن الشمال إلى الجنوب بسبب دور الجبال التلية في حماية المدن.
- تشكل المدن الشمالية التي يحتلها العدو (مستغانم ووهران) ضغطا استراتيجيا في الهجوم على المدن التلية
- تعدد الأخطار الطبيعية للمسالك الجبلية، والأودية وعلى طول الهضاب والشطوط.

4- تشكل تضاريس الهضاب والشطوط عمقا استراتيجيا لإقليم دولة الأمير بحكم المميزات الآتية:

- تضاريس واسعة على المستوى العرضي شرق/ غرب.
- تضاريس مفتوحة وعارية ومحاطة بالجبال شمالا وجنوبا.
- مناخها قاسي شتاءً وصيفًا بحكم التأثير الشديد للقارية، حرارة شديدة صيفا، ومنخفضة دون الصفر شتاءً.

*** الجانب البشري**

1- تركيبة بشرية من القبائل والأعراش كركيزة هامة في قيام واستمرار دولة الأمير.

2- الدّين الإسلامي كمحرك أساسي لحماية الوطن وبناء الدولة.

3- القومية المتمثلة في تنامي روح الانتماء إلى الأمة.

*** الجانب السياسي**

1- تنظيم إقليمي محكم يتركب من عشرة مقاطعات ادارية، لكل مقاطعة عاصمة سياسية وهي:

-مقاطعة معسكر ومركزها الاداري مدينة معسكر.

-مقاطعة تلمسان ومركزها الاداري مدينة تلمسان.

-مقاطعة ملیانة ومركزها الاداري مدينة ملیانة.

-مقاطعة المدية ومركزها الاداري مدينة المدية.

-مقاطعة الشرق سباو ومركزها الاداري مدينة بويرة.

-مقاطعة مجانة ومركزها الاداري مدينة سطيف.

-مقاطعة الحضنة ومركزها الاداري بوسعادة.

-مقاطعة الصحراء الغربية ومركزها الاداري مدينة الأغواط.

-مقاطعة الجلفة ومركزها الاداري مدينة الجلفة[1].

وكل مقاطعة قسمت إلى عدة دوائر، وكل دائرة قسمت إلى عدة قبائل.

2- إقامة نظام مركزي تمثل في اتخاذ مدينة معسكر كعاصمة مركزية للإقليم والتي تشكل الثقل السياسي والاستراتيجي للدولة.

3- تنظيم إداري وسياسي يقوم على بناء مؤسسات الدولة مثل مجالس الشورى، مجالس القضاء....إلخ.

ثالثا: الاستراتيجية العسكرية للأمير عبد القادر من منظور العوامل الطبيعية – (أنظر الخريطة 2)

1. إقامة جبهة دفاعية أولى على طول امتداد الساحل البحري الموازي لخط توطن المدن التلية الاستراتيجية، وذلك عن طريق تجنيد القبائل الطلائعية

---

1 - محمد الأمين بلغيث: تاريخ الجزائر المعاصر. دراسات ووثائق. الطبعة الأولى. دار البلاغ الجزائر، دار ابن كثير لبنان. 2001 .ص.16 .

الساكنة في المنطقة وإقامة حصون وقلاع على مرتفعات الرؤوس البحريـة، بغية تحقيق الأهداف الآتية:

- منع الجيوش الفرنسية من الساحل البحري.
- حماية المدن الاستراتيجيةفي التل والقريبة من الساحل البحري.
- منع تموين المدن الشمالية المحتلة وهي وهران ومستغانم.

2. إيجاد منافذ بحرية للمدن التلية الاستراتيجية عن طريق ربطها بأهم الموانئ الساحلية وهذا تحقيقا لاستمرار جلب المؤونة من الخارج، وتكثيف العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع الدول، وهي تتمثل في على النحو الآتي:

- ربط مدينة معسكر بميناء ارزيو.
- ربط مدينة تلمسان بميناء رشكون.
- ربط مدينة مليانة بميناء شرشال.

3. ربط المدن التلية بمدن الصحراء لجعلها خلفية ترتكز عليـه اسـتراتيجية الدفاع في حالة الهجوم على المدن مثل معسكر وتلمسان.

4. إقامة حصون وقلاع على التلال الجنوبية للمدن التلية، في شكل خـط مطابق معها، وهي تصل بين السهوب والتل، وتتحكم في المسالك الـوعرة للأودية والمنخفضات أهمها:

- تاقدمت وسعيدة وبني راشد لحماية جنوب مدينة معسكر.
- بن سنوس وسبدو لحماية تلمسان من الجنوب.
- حصون بلال وطاز وشرشال لحماية مدينة مليانة.

-حصن بوغار لحماية المدينة من الجنوب[1]

5- احتلال المواقع الطبوغرافية الملائمة استراتيجيا لكل حرب مثل:

-مواقع تصل التل بالسهوب

-مواجهة الوديان والهضاب بالجبال والمرتفعات

-الاستخدام الطولي للمجال الجغرافي

7- إجبار العدد على خوض الحروب في مواقع طبيعية منها المنخفضات والشطوط أهمها معركة المقطع، وعلى سبيل المثال أكثر من عشرين معركة (20) جرت في الأودية والمنعرجات والمنخفضات، وفي ظروف مناخية قاسية إما في حر شديد أو أمطار غزيرة.

8-إجبار العدو على استخدام المجال عرضيا من الشرق إلى الغرب والمنخفضات والهضاب عن طريق التموقع في المناطق الاستراتيجية، وتركه يجري المساحات واسعة لانهاكه واجهاده. وفي هذا الصدد نستحضر قول الماريشال بيجو وهو يتحدث في مجلس النواب الفرنسي "هل تعلمون أين تكمن قوته؟ إنها تكمن في استحالة العثور عليه، إنها في المكان الرحب الواسع وفي حرارة شمس افريقيا، وفي توفر المياه، إنها تكمن في حياة الرحال ... ذلكم هو سر قوته"[2].

---

1 - صالح عوض: معركة الإسلام والصليبية في الجزائر. الجزء الأول. الزيتونة للإعلام والنشر.1979. ص.ص.105.106 .

2 - العماد مصطفى طلاس، فارس الجزائر، الأمير عبد القادر، ط. 2، دار طلاس، 1983، ص. 82

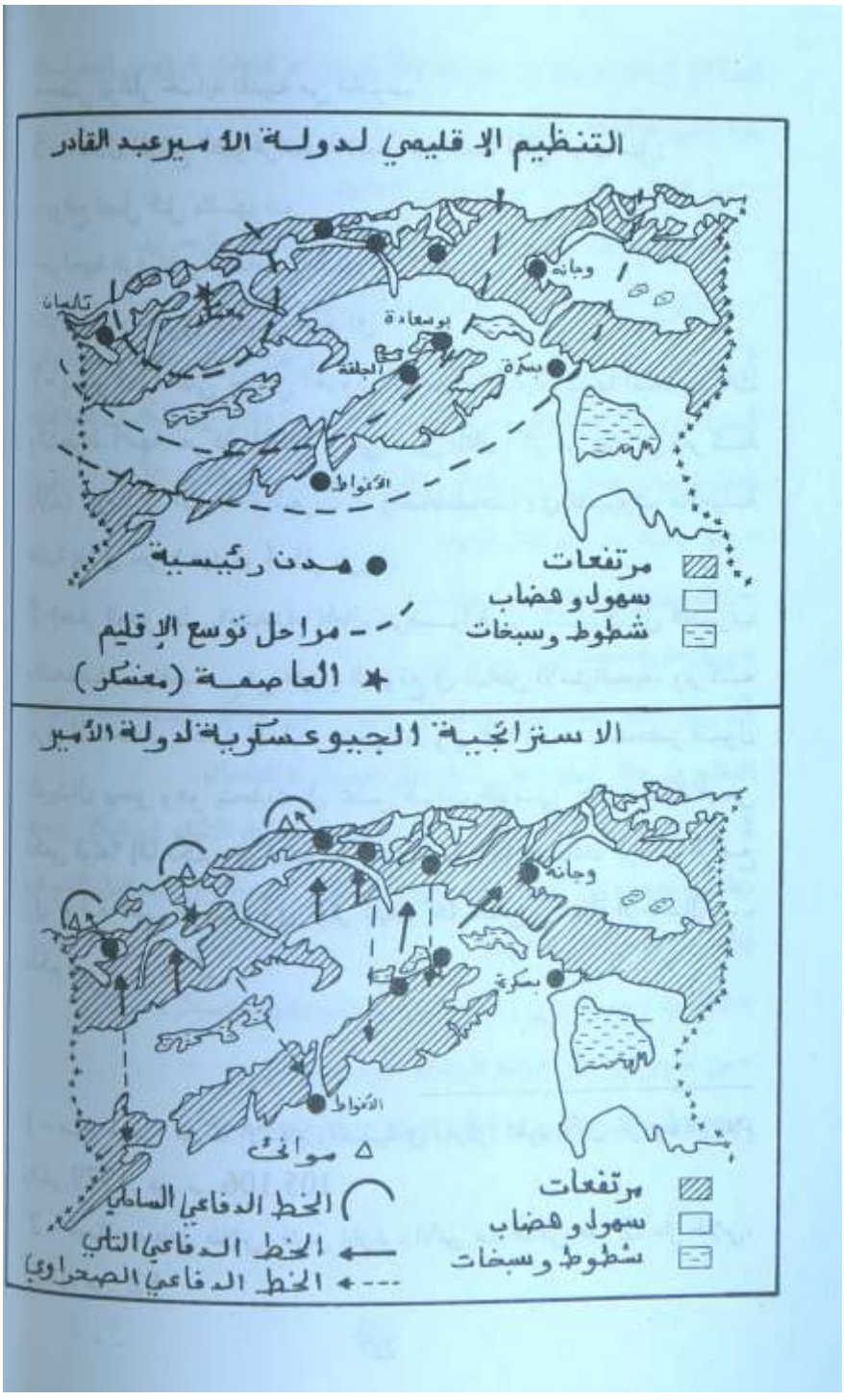
التنظيم الإقليمي لدولة الأمير عبد القادر
وجانة
تلمسان
بوسعادة
الجلفة
بسكرة
الأغواط
مدن رئيسية
مراحل توسع الإقليم
العاصمة (معسكر)
مرتفعات
سهول وهضاب
شطوط وسبخات
الاستراتيجية الجيوعسكرية لدولة الأمير
وجانة
بسكرة
الأغواط
٥ موانئ
الخط الدفاعي الساحلي
الخط الدفاعي التلي
الخط الدفاعي الصحراوي
مرتفعات
سهول وهضاب
شطوط وسبخات

وثائق الأمير عبد القادر المحفوظة في الأرشيف الوطني التونسي

الأستاذ حماش خليفة[1]

يعتبر الأرشيف التونسي واحدا من أغنى الأرشيفات العربية التي تحتفظ بوثائق منظمة وتعالج موضوعات متكاملة تعود إلى ما قبل القرن التاسع عشر. بحكم الموقع الجغرافي لتونس بالنسبة إلى الجزائر، فإن الأحداث التي وقعت في الجزائر كان لها تأثير كبير على تونس ذاتها. ولم يقتصر ذلك التأثير على الأحداث العسكرية فقط، بل شمل حتى الأحداث السياسية والاقتصادية. ولعل ذلك التأثير ليس وليد تلك الفترة فقط، بل يمتد إلى ما قبل ذلك، ويعود إلى العهد الفينيقي، وبعده الروماني، والإسلامي، والعثماني. واستمر إلى اليوم. وما يقال عن الأحداث التي وقعت في الجزائر وكان لها الأثر على تونس. يقال عن الاحداث التي وقعت في تونس أيضا كان لها أثر على الجزائر.

ولحسن حظ تاريخ الجزائر والمؤرخين المهتمين، ،أن الأرشيف التونسي بقي يحتفظ بعدد كبير من الوثائق التي تعود إلى ما قبل نهاية القرن التاسع عشر حول الأحداث التي وقعت في الجزائر آنذاك. وذلك

1- أستاذ اللغة التركية والتاريخ العثماني، وعضو المجلس العلمي. ورئيس اللجنة العلمية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

بحكم أن الأرشيف التونسي لما يتعرض كما تعرض له الأرشيف الجزائري في العهد الفرنسي من سرقة وإهمال وتخريب وأخيرا إلى تهجير من موطنه الأصلي إلى فرنسا. وبقي ذلك الأرشيف محفوظا في قصر باردو الذي كان مقرا لإقامة الباي التونسي. وقبل عام 1881 بمدة قصيرة، نقل ذلك الأرشيف إلى دار الباي، وهو قصر رئاسة مجلس الوزراء (أو الحكومة التونسية). وعين له بعد ذلك مدير يشرف عليه، وأول من تولى ذلك المنصب هو"شكري غانم" وهو من أصل لبناني. وكان اختيار ذلك الشخص يعود كما يبدوا إلى كونه يعرف اللغة الفرنسية، إلى جانب اللغة العربية، (وكذلك التركية) وهي الأدوات التي على رجل الأرشيف أن يملكها بحكم طبيعة العمل الذي يقوم به. وكانت غير متوفرة إلاّ لدى قليل من التونسيين آنذاك.

ولكن تنظيم الأرشيف التونسي وتصنيفه وفهرسته يعود الفضل فيه إلى شخصية تونسية هي محمد قروي الذي تولى إدارة الأرشيف بين عامي 1887-1922م. وهو رجل تلقى تعليمه في المدرسة العسكرية بباردو، ثم صار في رتبة كولونيل. وعمل مترجما، ثم مديرا للمدرسة الصادقية وأخيرا مديرا للأرشيف.

وقد بقي الأرشيف التونسي حتى منتصف القرن العشرين مجهولا في معظمه، ولم يستغل في إعداد أعمال علمية كثيرة، كما لم يقم أي باحث بفرز وثائقه فرزا دقيقا. ولعل روبير مانترون كان أول باحث

يقوم بمثل ذلك العمل عندما يكلف بصفة رسمية بفرز الوثائق التركية التي يتضمنها ذلك الأرشيف، وأصدر عمله

Inventaire des documents d'archives Turcs du dar el bey. P.u.f.1961.

وقد تضمن ذلك الكشاف بعض الوثائق المتعلقة بتاريخ الجزائر في العهد العثماني. وأما فيما يتعلق باكتشاف الأرشيف التونسي على يد الجزائريين، فإن ذلك غير معروف على وجه التحديد، لا من حيث التاريخ، ولا من حيث الأشخاص الذين ساهموا في ذلك الاكتشاف، خصوصا الأوائل منهم. ولكن من خلال تتبع تاريخ المدرسة التاريخية الجزائرية نستطيع أن نقول إن ذلك قد تم على أيد رواد هذه المدرسة وعلى رأسهم بطبيعة الحال الأستاذ الفاضل يحي بوعزيز كما توحي بذلك الأعمال العديدة التي أنجزها حول تاريخ الجزائر بداية من الموجز في تاريخ الجزائر الذي نشره عام 1965 بالجزائر. بجانب كثير من الدراسات التي نشرها في مجلات مختلفة مثل الثقافة والأصالة، والمجلة المغربية والمؤلفات العديدة كما يشير إلى ذلك هو بنفسه، استخدم في إثرائها وثائق من الأرشيف التونسي.

ولا ننسى أيضا الشيخ أحمد توفيق المدني الذي كان اهتمامه بالوثائق التونسية المتعلقة بالجزائر بصورة ربما مختلفة عن الصورة التي أهتم بها يحي بوعزيز بالوثائق نفسها، ذلك أن يحي بوعزيز إذ كان قد اهتم بها باعتباره مؤرخا فإن توفيق المدني اهتم بها باعتباره أرشيفيا، إذا

قام بتصوير عدد كبير من تلك الوثائق، وإيداعها مركز الأرشيف الوطني. وهي موجودة به اليوم. كما فعل في استانبول بخصوص الوثائق التركية أيضا.

ومن المهتمين بتلك الوثائق نذكر عمر حاشي أيضا، وهو مدير أرشيف ولاية الجزائر. فإطلاع عليها وأعد بخصوصها فهرسة موجزة.

وقال في مقدمتها أنه قام بالعمل نفسه في ليبيا ومصر ولكنه لم يعثر على قدر كبير من الوثائق تخص الجزائر بقدر ما عثر على ذلك في الأرشيف التونسي.

ثم أتى بعده الأستاذ أحمد بجاجة مدير الأرشيف بولاية قسنطينة الذي أعد فهرسا موجزا لتلك الوثائق، وصور العشرات منها، وأودعها أرشيف الولاية، هي موجودة به اليوم. وقد أعد السيد أحمد بوزيد أحد الأعوان الأرشيفيين، فهرسته مفصلة لها.

وبعد هؤلاء جميعا أتى بعض الأساتذة الباحثين من مختلف الجامعات الجزائرية (الشرق والغرب والوسط) واهتموا بتلك الوثائق أيضا وأنجزوا من خلالها أعمالا علمية هي في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ الجزائر وأذكر منهم: الدكتور حميدة عميراوي من خلال مؤلفة في علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي.

وفي جامعة الجزائر تذكر إبراهيم مياسي. وعمر بن خروف. كما أهتم بها أساتذة آخرون من خارج الجزائر مثل الدكتور عبد الجليل

التميمي. ومما زاد من أهمية وثائق تاريخ الجزائر المحفوظة بالأرشيف التونسي، هو التسهيلات التي يقدمها للباحث الموظفون التونسيون القائمون على الأرشيف، بحيث يستجيبون لطلباتهم في إحضار الوثائق التي يريدونها، ويصورون ما يرغبون من غير مشقة.

وتوجد تلك الوثائق موزعة على أقسام أرشيفية كثيرة. داخل صناديق وملفات مختلفة، يصعب في الواقع حصرها، منها السلسلة التاريخية، وعلى الرغم من المجهودات التي بذلها الباحثون الجزائريون في اكتشاف وثائق الجزائر في الأرشيف التونسي، فإن تلك الوثائق لم تكتشف كاملة، ولا يزال كثير منها بعيدا عن أيديهم، ينتظر ربما حيلا جديدا من الباحثين. وتخص تلك الوثائق الفترة العثمانية، كما تخص فترة الاحتلال الفرنسي بكاملها أيضا حتى عام 1962.

وبخصوص الوثائق المتعلقة بتاريخ الأمير عبد القادر فهي موجودة في الملف رقم 929 من الصندوق رقم 78. وعنوان الملف: **مكاتب وأوراق السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين الحسيني الجزائري.** وهي تضم 94 وثيقة بعضها وثائق مكررة. وهي وثائق غير مرتبة، لا من حيث التاريخ ولا من حيث الموضوعات ومرقمة من 1 إلى 94. وتعالج الفترة من 1257هـ (1841) إلى 1298 (1880) وهي فترة تقدر بنحو أربعين سنة، يتعلق أغلبها بالمرحلة الثانية من تاريخ الأمير عبد القادر وهي المرحلة التي خرج فيها من الجزائر وعاش في المشرق. ذلك علاوة على وثائق أخرى غير مؤرخة، منها ما يعود إلى

المرحلة الأولى، ومنها ما يعود إلى المرحلة الثانية وتلك الوثائق إن كانت كلها تخص الأمير عبد القادر، فإنها لا تعالج موضوعا واحدا، وإنما موضوعات مختلفة. وهى غير كافية بمفردها لكتابة أي موضوع من تلك الموضوعات، وإنما هي حاجة إلى وثائق أخرى تكملها موجودة في دور أرشيف أخرى. خصوصا أن الرسائل لكي تكمل موضوعاتها فطبيعتها تقتضي جمع الصادرة منها والواردة. وبعبارة أخرى طلب المرسل ورد المرسل إليه أيضا. وهو ما تفتقد إليه تلك الوثائق إلا في بعضها.

والموضوعات التي تعالجها هي مختلفة أهمها:

- شراء السلاح من جبل طارق ودور وكيل تونس في ذلك
- تدخل فرنسا لدى الباي لمنع المساعدة التي يقدمها وكيل الأمير.
- علاقة الأمير عبد القادر بالدولة العثمانية في المشرق
- توسط الأمير عبد القادر لدى السلطة التونسية للسماح لبعض الجزائريين بالمرور عبر الأراضي التونسية المتوجهين إلى المشرق.
- العلميات العسكرية ضد الجيش الفرنسي في الصحراء الجزائرية.
- مراقبة تنقل الجزائريين بين تونس والجزائر سواء من قبل السلطات التونسية أو من قبل السلطات الفرنسية.
- انضمام بعض القبائل الأمير عبد القادر لمقاومة الاحتلال.

خطاب السلطة

في مبايعة الأمير عبد القادر[1]

الدكتور عميراوي احميده*

مقدمة:

موضوع المبايعة مركزي في التاريخ الإسلامي. إذ من أجلها اختلف المسلمون، مما أدى هذا إلى كثرة الإفتاء وغلق باب الاجتهاد. وظلت المبايعة تُطلَبُ وتفتك، على خلاف ما حدث للأمير عبد القادر الذي بايعه العلماء مبايعة فقهية سنية، عملا بكتاب الله وسنة رسوله. حيث اعتمد على خيرة العلماء في تأسيس دولته، وسنحاول عرض الموضوع من خلال النقاط الآتية:

1. مفهوم المبايعة لغة
2. مفهوم المبايعة اصطلاحا
3. مفهوم المبايعة تاريخيا
4. مفهوم السلطة
5. وضع الغرب الجزائري
6. مبايعة الأمير عبد القادر
7. الاستنتاجات

1- مداخلة أعدت للندوة الخاصة بمبايعة الأمير عبد القادر في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة يوم 29 نوفمبر 2003

*- أستاذ محاضر ونائب رئيس جامعة الأمير عبد القادر

1- مفهوم المبايعة لغة

جاء في لسان العرب لابن منظور أن المبايعة هي صفة على إيجاد البيْع وعلى المبايعة والطاعة، فيقال تبايعوا على الأمر، أي تعاهدوا. وجاء في قول نبينا الكريم: ألا تُبايعونَني على الإسلام؟ هو عبارة عن المعاقدة والمعاهدة، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعتَه ودخيلةَ أمره[1]. إذن، فالمبايعة تعني العهد.

2 - مفهوم المبايعة اصطلاحا

هل البيعة في الأساس دينية أم غير ذلك؟

قد يحدث الخلط بين ما هو مدني سياسي. وما هو ديني إلهي. وما هو فقهي شرعي. فالأمر المدني السياسي هو ما تقوم به الجماعات أو الأفراد لإدارة نظام الحكم، ويبقى حكم هؤلاء مدنيا حتى ولو طبقت هذه الجماعات شريعة دينية، فيبقى خاليا من القداسة ، وقابلا للنقد والتغيير. ومن ثمة يكون هذا الحكم غير معصوم.

أما الديني الإلهي فهو ما يكسب الحاكمَ صفات دينية، بحيث لا يعمل بإرادته كفرد وإنما يعمل بأمر الله، فيصبح ذا قداسة، وليس على أي أحد أن يعارضه، أو يجادله؛ لأن ذلك يعني معارضة ومجادلة الله. لأن الحكم الديني معصوم.

أما الحكم الفقهي الشرعي فهو حكم الفقهاء، حكم الاجتهاد القائم على الإفتاء، وعلى سنن الشرفاء.

---

1 - المجلد الثامن، دار الكتب العلمية، ط. 1، بيروت 2002، ص-ص. 30-31

بناء على هذا إننا نميل إلى اعتبار البيعة إنما هي دينية في الأساس خلال عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، بحكم أن الرسول كان معصوما.وبوركت بقوله سبحانه تعالى:"إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يدُ الله فوق أيديهم فمن نكثَ فإنما ينكُثُ على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيُؤتيه أجرا عظيما[1]".

بينما في عهد الأمير عبد القادر رحمه الله تعالى كان أساس البيعة شرعيا ففهيا، ومن ثم فهي تعد ضمن الإطار الشرعي الإسلامي. أما ما حدث من مباعة بين بيعة كل من الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من جهة، وبين بيعة الأمير عبد القادر فتعد بيعة سياسية أكثر مما هي شيء آخر. ولهذا فهي تدخل في إطار التاريخ الإسلامي بالأساس، لا ضمن الإطار الشرعي الإسلامي.

3- مفهوم المبايعة تاريخيا

مثلما ذكرنا فموضوع المبايعة مركزي في التاريخ الإسلامي، إذ كانت سببا في انقسام المسلمين إلى أكثر من صف، فبعد الفتنة الكبرى لم يبايعوا على أمر واحد، فخضعت المبايعة إلى تجاذب الأطماع الشخصية، والمصالح الاستراتيجية، والتيارات السياسية، والفرق المذهبية. واختلف المسلمون سنة وشيعة وخوارج حول لمن تجوز المبايعة شرعا؟ ونتيجة لهذا المسار تشكل التاريخ الإسلامي، وتحدد مصير المسلمين، وانحصر في كثرة الحروب الطاحنة التي ورثت الحقد في الأجيال اللاحقة، وألهتهم عن مسايرة ركب التطور بالبناء والابتكارات الحضارية. فحدثت قطيعة

1- سورة الفتح آية 10.

واستمرت بين العلماء الفقهاء والحكام "السفهاء"[1]. وصار التاريخ الإسلامي في غالبه تاريخ الحكام وتاريخ السياسة؛ ولم يكن، إلاّ في قليله تاريخ الأمة وتاريخ العلوم والابتكارات، وتاريخ الفقه والتشريع والاقتصاد، لهذا كان خطاب السلطة حكمَ الأقلية المذهبية والعرقية، واستعمالَ القوة الحربية وجمعَ الثروة المادية. فأدى هذا إلى كثرة الإفتاء حينا. وإلى غلق باب الاجتهاد أحيانا، وإلى انكسار نظام القضاء دائما.

وهو الأمر الذي لا نراه خلال عهد الأمير عبد القادر الذي اعتمد على خيرة العلماء في تأسيس دولته، بدءا بتأسيس المجلس الشورى العالي الأميري، وببناء المدن والحصون والمصانع الحربية، وبتوسيع دائرة العلاقات الدبلوماسية، وبنشر التعليم الإسلامي.

ونتيجة للقطيعة التي حدثت بين العلماء والحكام بعد الخلفاء الراشدين ظلت المبايعة تُطلَبُ وتفتك، على خلاف ما حدث للأمير عبد القادر الذي بايعه العلماء مبايعة فقهية سنية، وتمت هذه المبايعة برضاء الطرفين عملا بكتاب الله وسنة رسوله. لهذا باركها الخاصة من الجزائريين وعامتهم. وكانت هذه المبايعة غير محددة الصلاحيات ولا المدة الزمنية، ولهذا لم تتحدد طيلة حكم الأمير عبد القادر.

ويؤرخ للبيعة في الإسلام ببيعة النساء (بيعة العقبة الأولى) التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم واثني عشر رجلا من أهل يثرب في السن

1- ففي عهد "خلفاء" بني أمية أهدرت حرمة مكة وأهلها. وضربت الكعبة بالمنجنيق. وامتطأت خيولهم مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم. وأثيرت فتنة خلق القرآن. مثلما اضطهد العلماء كما حدث مع أبي حنيفة النعمان. ونفس الشيء حدث لأحمد بن حنبل.

الثانية عشرة من البعثة، حين التقوا بالنبي في العقبة وبايعوه على السمع والطاعة. وقد قال ممن حضر وبايع: "فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض علينا الحرب (الجهاد) على ألاّ نشرك بالله شيئا. ولا نسرق ولا نزني، وألاّ نقتل أولادنا، ونأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في مكروه، فإن وافيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك فأمركم إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء غفر وإن شاء عذب"[1].

ثم كانت بيعة العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة من البعثة من مسلمي يثرب؛ حيث تمت المبايعة بأخذ العهد على الصيغة الآتية: قال رسول الله صلى عليه وسلم يخاطب أعيان يثرب: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساؤكم وأبناءكم. فبايع أولئك الأعيان على لسان أحدهم قائلا: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا (نساءنا) فبايعناك يا رسول الله[2]. وبعد هذه المبايعة شرع الرسول صلى الله عليه وسلم في تنظيم الحكم بالانتقال إلى يثرب.

ثم كانت بيعة الخلفاء الراشدين بدءا ببيعة السقيفة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه. (وكانت بيعة خاصة من عمر ومن معه بقول عمر: ونحن

1- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج. 1، ط. 14، دار الجيل-بيروت، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، 1996، ص. 80. وذهب حسن إبراهيم حسن إلى القول: ولعل هذه البيعة سميت ببيعة النساء لوجود عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها، وهي أول امرأة بايعت الرسول عليه الصلاة والسلام. المرجع نفسه. ص-ص. 80-81

2- لمزيد من المعومات يراجع: حسن إبراهيم حسن،ج. 1، ص-ص. 82-83

نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا، ثم صارت بيعة عامة من على المنبر في المسجد). والتي كانت موضوع أبحاث كثيرة. وبعدها انزلقت البيعة وتأرجحت بين راغب وراهب من دون أن تُرسى بالشورى الدينية الشرعية، إلى أن كانت هذه البيعة عهد الأمير عبد القادر في الجزائر.

4 - مفهوم السلطة

سبق وأن عرضنا مفهوم السلطة في كتابنا من الملتقيات التاريخية[1]، حيث بينا "أن السلطة مفهوم أخلاقي يشير إلى النفوذ المعترف به كليا أو جزئيا لفرد أو لنسق أو لتنظيم مستمد من خصائص وخدمات معينة. وقد تكون السلطة سياسية أو أخلاقية أو علمية"[2]. فهي "إحدى الخصائص الأساسية للدولة كتنظيم يتميز عن التنظيم القبلي" [3]. فتكون السلطة فنّ الحكم. وهي تعتمد على القوة وتأخذ وسائل متعددة كالدين والجيش والحاكم، لهذا اعتبرها كثير من المفكرين العامل المحرك لتطور الإنسان. ومفهوم القوة مقترن بمفهوم العدل وبالخضوع والولاء لأن من مصلحة الدولة ومن مميزاتها تطبيق العدالة والقوة في نفس الوقت.

5 - وضع الغرب الجزائري

من المتعارف عليه أنه بتسليم الباي حسن مدينة وهران تصارعت خمسة أطراف على تولي السلطة للسيطرة على هذا الإقليم، وتمثلت في

1- طباعة دار البعث-قسنطينة 2001، ص-ص. 94-126

2 - روز، نتال (م)، بودين (ب)، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ط. 5، دار الطليعة بيروت 1985، ص- ص. 248-249.

3 -روز، المرجع نفسه، ص. 249.

النفوذ المغربي الذي احتل تلمسان. والنفوذ الفرنسي الذي بدأ يوجه حملات عسكرية ويتوسع في البلاد. وفي ما تبقى من النفوذ العثماني المتمثل في قبائل الدوائر والزمالة[1]. والنفوذ التونسي حين جاء ممثل باي تونس إلى هذه المنطقة ليحكمها بواسطة "المعاهدة التي تمت بينه وبين السلطة الفرنسية. أمام هذه المستجدات حصل إجماع جزائري على ضرورة تأسيس سلطة جزائرية مسلمة، الأمر الذي أدّى إلى تأسيس دولة بمبايعة الأمير عبد القادر.

6 - مبايعة الأمير عبد القادر

جدول رقم 1 لكلمات مفتاحية في نص البيعة الأولى

الكلمات المذكورة في نص البيعة الأولى وما يقاربها	عدد المرات	نسبة % (من 471 كلمة)	نسبة % (من 59 كلمة)
الله	13	2,76	22,03
البيعة	6	1,27	10,17
الرسول (ص)	5	1,06	8,47
الدين	5	1,06	8,47
توفر صفات الإمارة	5	1,06	8,47
الطاعة	3	0,64	5,08
الكافرون الفسدون الظالمون	3	0,64	5,08
نصرة المضطهد	3	0,64	5,08
الأولياء الصالحين/الصلاح	3	0,64	5,08
أهل الحل والعقد	2	0,42	3,39
المسلمون	2	0,42	3,39
الإمام	2	0,42	3,39
الإمارة	1	0,21	1,69

1- لمزيد من التعرف على هاتين القبيلتين يراجع ما كتبناه حول: "معاهدة الدوائر والزمالة، حوان 1835"، الثقافة، العدد 88، وزارة الثقافة، سبتمبر 1985. ص ــ ص. 123 ــ 136.

العلماء	1	0,21	1,69
الصحابة	1	0,21	1,69
السلطان	1	0,21	1,69
الجهاد	1	0,21	1,69
الباطن	1	0,21	1,69
الظاهر	1	0,21	1,69

جدول رقم 2 لكلمات مفتاحية في نص البيعة الثانية *

الكلمات المذكورة في نص البيعة الأولى وما يقاربها	عدد المرات	بنسبة % (من556كلمة)	بنسبة % (من 60كلمة)
الله	12	2,16	20
البيعة	11	1,98	18,33
الدين الإسلامي والمسلمون	7	1,26	11,67
الرسول (ص)	5	0,90	8,33
الكافرون/ المفسدون. الظالمون	5	0,90	8,33
الإمام/عبد القادر	4	0,72	6,67
الملة/ الشريعة/ الأمة	4	0,72	6,67
الطاعة	4	0,72	6,67
الجهاد/ الشهداء	2	0,36	3,33
الإجماع	1	0,18	1,67
الحكومة الجزائرية	1	0,18	1,67
الكتاب والسنة	1	0,18	1,67
الدولة السنية	1	0,18	1,67
الصحابة	1	0,18	1,67
القبائل	1	0,18	1,67

7 - الاستنتاجات

مما سبق يمكن القول إن للمبايعة أكثر من مفهوم، لغوي، وإصطلاحي، وتاريخي. مثلما يمكن القول إنه بمبايعة الأمير عبد القادر يكون المجتمع السياسي الجزائري قد افتك السلطة من رؤساء القبائل

والأسر المحلية. وسدّ الطريق في وجه المنتهزين الذين وضعوا أنفسهم في خدمة سلطة الاحتلال الغربي. مثلما منع ملك المغرب من السيطرة على مناطق في الغرب الجزائري.

ومن جهة أخرى تكون هذه البيعة تكريسا لسلطة تقليدية جزائرية (Traditionnelle)آخذة شرعيتها من قدسية الشريعة الإسلامية ومن العرف السائد. ولهذا حظي الأمير عبد القادر بقداسة مبايعيه مثله مثل الشريعة الإسلامية والتقاليد الجزائرية؛ التي كان هو نفسه محكوما لها وحاكما بها. ويتطابق هذا مع ما ذهب إليه ماكس فيبر حين قال: ترتكز السلطة التقليدية على الخاصية المقدسة للقوانين التي توارثت مع مرور الأزمان، لأن الحاكم يتم تعيينه بموجب قانون موروث وتكون له الطاعة بموجب المنصب الذي تمنحه له التقاليد، وأن الشخص المالك للسلطة ليس رئيسا وإنما هو سيد[1]. يعني هذا أن الأمير عبد القادر لم يكن رئيس دولة فقط، وإنما كان سيد قومه.

وبناء على ما سبق تكون هذه السلطة التقليدية السلفية الأميرية قد واجهت وبقوة نوعين من السلطة، الأولى تمثلت في ما يعرف بالسلطة الكاريزمية[2] (Charismatique) المشخصة في سلطة القائد. والنوع الثاني

---

1 - Max Weber, Economie et société, t. 1, traduit par Julien Freud, Plon, Paris 1971, P. 232.

2- تقوم الكاريزمية على المواهب والقدرات التي يتحلى بها القائد أو الشيخ أو الملك خاصة حين يضفي على شخصه قيما دينية وروحية. وهو لا يتم تعيينه بالانتخابات وإنما على أساس المميزات التي يتفرّد بها، مثلما هو الحال لدى قائد القبائل المخزنية في الغرب الجزائري، خاصة حين يضفي على شخصه قيما دينية وروحية.

من السلطة هو المعروف بالعقلانية (Rationnelle) التي جاءت بها القوة الاستعمارية والقائمة على قوة القانون الوضعي العقلي[1].

وبذلك علت إرادة الدّولة شرعا فوق إرادة الفرد والقبيلة والغزاة، واتخذت من الدين الإسلامي "إيديولوجية". تطبيقا للدين الإسلامي الذي يقر بأن تكون الدّولة مستمدة العقيدة الدينية. ومن ثم فالرابطة بين أفراد أمّة أو جماعة ليست رابطة المكان والدّم فقط ولكن رابطة الدّين والوشائج، وفي ما يفرضه الواقع من مصير أخوي واحد في الدنيا والآخرة[2]. إذ يقول ابن تيمية: "إنّ بني آدم لا تتم مصلحتهم إلاّ باجتماع حاجة بعضهم إلى بعض ولا بّد لهم عند الاجتماع من رأس، لأنّ اللّه تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ولا يتّم ذلك إلاّ بقوة وإمارة[3]".

---

1 - Max Weber, Le Savant et la politique, traduit par Julien Freud, Plon, Paris 1959, p. 114.

2- النّحار عبد الحميد، "الدّولة والسّياسة في فكر المهدي بن تومرت"، الثقافة، العدد 81، وزارة الثقافة، الجزائر 1984، ص. 125 .

3- تقي الدين أحمد ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الرّاعي والرّعية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي (د. ط)، دار الجيل، بيروت 1988، ص. 138

نص البيعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم وصلي على سيدنا محمد، الذي لا النبي بعده.

الحمد لله، الذي جعل نصب الإمام، من مهمات الدين، لتصان به النفوس والأموال، وتجتمع كلمة المسلمين. والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله وأصحابه أجمعين.

وبعد: فقال (صلى الله عيه وسلم) إن الله يحمي بالسلطان، مالا يحمي بالقرآن. هذا، في الزمان الذي فاض فيه العدل. ونضب فيه الجهل. فما بالك بزماننا!! الذي كثر فيه الباطل، وانتشر وخفي فيه الحق، ولم يظهر له أثر ؟! حتى إن أعداء الله الكافرين، ملكوا كثيرا من بلاد الإسلام. وتشتت الكلمة. واختل النظام.

ولم يجد الناس لقتالهم سبيلا. ولا من يكون للجهاد دليلا. فلجئوا إلى الله تعالى. وسألوه أن ييسر لهم من يقوم بأمر دينهم، فما وجدوا من تتفق عليه كلمة أهل الحل والعقد، سوى السيد محي الدين بن مصطفى بن المختار لكماله، وكثرة ما عنده من الأعوان والأنصار. فطلبوا منه: أن يبايعوه على السمع والطاعة، فاعتذر إليهم بكبر سنه. وبعد زمان طويل، تكرر فيه طلبهم مرات. ووقع إلحاحهم تارات. ورأى أن النظر في هذا الأمر، قد تعين عليه. وأتاه بعض علماء "غريس" وهو من الصالحين، فقال له إن أولياء الله تعالى، قد اتفقوا على نصب ولدك عبد القادر لنصر دين الله. ورأى أن ولده مستعد لهذا الأمر، فحينئذ وافقهم على نصبه ونصرته، لكونه: ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم وذات سليمة، صالحا لتنفيذ الأحكام. فاجتمع أهل الحل والعقد، وبايعوه من غير طلب منه للإمارة. ولا متابعة للنفس الأمارة. بل بايعوه رغما عليه. وطلبوا والده بالله تعالى. وتوسلوا إليه برسول الله (صلى الله عليه وسلم) مدة تزيد على سنتين، لموافقهم على بيعة ولده، تطييبا لخواطرهم، ورعاية لرفع الظلم عن الضعيف، ودفعا للفساد والتعنيف. فحضر للبيعة: جميع أهل غريس الحشم شرقي وغربي وعباسي وخالدي وإبراهيمي وحساني وعوفي وجعفري وبرجي وشقراني وغيرهم....كبني السيد دحو وبني السيد احمد بن علي والزلامطة ومغراوة وخلوية والمشارف وكافة أهل وادي الحمام وأعلنوا جميعا: بطاعته ونصرته والرعاية له. بحيث أنهم يحمونه، بما يحمون به

أنفسهم وأموالهم. وان ينصروه نصرا مؤزرا.واتفق علماء الإقليم على بيعته وطاعته. ولم يخالف منهم أحد وهم في حال طوعهم واختيارهم.

وفرحوا به أشد الفرح، نظرا لما كانوا عليه من الضيق والترح. وكل من سمع به، من أهل الآفاق يزداد فيه رغبة، وذلك لعلمهم بقوة عقله، وشدة تحدته، وصلاح رأيه. فعلى من بايع أن يبذل جهده في نصرته، وعضده، لقول الصادق الأمين: الدين النصيحة، لله ولرسوله ولأئمة المسلمين. ومن نكث فإنما ينكث على نفسه .

حضر ما ذكر من العلماء والأشراف، السيد الأعرج، والسيد محمد بن حوا بن يخلف وإخوته والسيد محمد بن الثعالبي، والسيد عبد الرحمن بن حسن الدحاوي وإخوته، والسيد محمد بن عبد الله بن الشيخ المشرفي وقرابته، وكافة أولاد السيد أحمد بن علي. حاصله: جميع علماء غريس وأشرافه حضروا لهذه البيعة الميمونة، ورضوا بها.

وحضرها كاتبه محمد بن عبد القادر، عامله الله بلطفه في الباطن والظاهر. في الثالث من رجب الفرد، سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف (1248) هجرية، الموافق للسابع والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية (1832).

نص البيعة الثانية

لما شاع أمر البيعة الأولى، وذاع، أقبلت الوفود تترى من القاصية إلى الحضرة العلية رغبة في الطاعة وامتثالا للأوامر السامية المطاعة. فاجتمع الطم والرم، من جميع الآفاق. ثم انعقد مجلس عام، حضره الجمهور من الأعراف والعلماء والرؤساء من كل قبيلة وفريق. وجرى فيه عقد البيعة الثانية العامة محل العموم من قصر الإمارة. وهذا نص ما حرره العلامة الحجة الفهامة السيد محمود بن حوا الجاهري في ذلك اليوم. وقرأه على رؤوس الأشهاد:

بسم الله الرحمن الرحيم. وصلى الله على سيدنا ومولانا، محمد النبي الطيب الكريم، وعلى آله وأصحابه، ذوي الفضل العظيم.

حمدا لمن فضل أمة محمد (عليه السلام). وخصها بمزايا، لم يعطها أحدا من الأنام. وجعلها خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكرات والأرجاس. هداهم به إلى مهيع الرشاد وطهرهم من عبادة الأوثان والأنداد والأضداد. وجعلهم الشهداء على من سواهم من الأنام فشرف بذلك أمرهم، ورفع قدرهم، وجعل إجماعهم حجة، وسبيلهم أقوم محجة. وأوجب عليهم نصب إمام عدل. وفرض عليهم اتباعه في القول و الفعل ليكف الظالم، وينصر المظلوم، ويجمع شملهم، بالخصوص والعموم. ويكافح بهم عدو الدين. لتكون العليا كلمة المسلمين وصلاة وسلاما، على من صدع بالحق، ودعا الخلق إلى القول بالصدق، وجاهد في الله حق جهاده حتى استقام المعوج، وآب عن فساده. سيدنا ومولانا، محمد أشرف رسول، وأكرم شافع مقبول صاحب المقام المحمود، والحوض المورود. وعلى آله وأصحابه، أهل وداده وسيوف جلاده، الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم، في طاعته ونصرته وأوحوا شريعته، وبينوا طريقته. فحازوا بذلك أسنى المراتب، ونالوا الدرجات العلى، والمناصب.

فهم نجوم الاهتداء، ومصابيح الإقتداء. هذا، ولما انقرضت الحكومة الجزائرية، من سائر المغرب الأوسط. واستولى العدو على مدينتي الجزائر ووهران، أعادهما الله دار إيمان وإسلام، بجاه النبي (عليه السلام).

وطمحت نفسه العالية، إلى استيلاء على السهول والجبال، والفدافد والتلال. وصار الناس في هرج ومرج وحيص وبيص. لا ناهي عن المنكر، ولا من يعظ ويزجر، قام من وفقهم الله للهداية.

وظهرت عليهم العناية، من: رؤساء القبائل وكبراتها وصناديدها وزعمائها، فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على الكتاب والسنة، يسمعون لأمره ونهيه، ويتابعونه في جميع أحواله. وجالوا في ميدان أفكارهم، فيمن هو بذلك أهل، من ذوي الكمال والفضل. فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل، إلا ذا المنسب الطاهر، والكمال الباهر، رأس الملة والدين، قامع أعداء الله الكافرين، أبا المكارم السيد عبد القادر، ابن مولانا السيد محي الدين، أيد الله به الإسلام والمسلمين. وأحيا به ما اندرس من معالم الدين. فبايعوه على كتاب الله الكريم"إن الذين يبايعونك، إنما يبايعون الله. يد الله فوق أيديهم" .

ثم قدمت على حضرته الوفود من سائر الجهات والحدود، فبايعه: أولهم وآخرهم، شريفهم ومشروفهم، كبيرهم وصغيرهم؛ بيعة تامة كاملة عامة، بيعة سمع وطاعة، أفرادا وجماعة، بيعة عز وتعظيم وتبجيل وتكريم، بيعة يعز الله بها الإسلام، ويخذل بها الفجار اللئام. يمنعون عنه السوء بما يمنعون به: أنفسهم وأولادهم وأموالهم. ويبذلون في مرضاته: أرواحهم وأكبادهم. إن أمرهم، سمعوا. وإن نهاهم؛ خشعوا وخضعوا. يطيعونه، ما ساسهم بالشريعة الغراء وينصرونه، في السراء والضراء. فمن وفى ببيعته، نال مسرته، واتقى مضرته، ولاقى مبرته. ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وخسر في يومه وأمسه. والله المسؤول، في هداية الخلق، إلى طريق الحق، والرأفة والرفق. ولما ازدهرت هذه البيعة بكمالها وطرزت بجلالها وجمالها، كمل سرورها. وتمت بدورها بوزارة أبي المحاسن السيد محمد بن السيد العربي، أقام الله به أمر هذه الدولة السنية، والإمامة البهية. وممن حضر هذه البيعة، وبايع. وسمع لها وتابع. من القبائل الشرقية، والأحياء الغربية: الوزير المذكور وبنو عمه، وسائر العلماء والأعيان، من: معسكر، قلعة هوارة، وأحوازهما: كبني شقران، وبني غدوا وسجرارة، وقبائل غريس، واحياته وغمارته وعشائره، واعيان القبائل الشرقية، كالعطاف، وسنجاس وبني القصير، ومرابطي مجاجة، وصبيح، وبني خويدم، وبني العباس، وعكرمة، والحال وفليته، والمكاحلية، وأحلافهم، وأعيان: مجاهر، والبرجية،

والدوائر، والزمالة، والغرابة، وكافة القبائل اليعقوبية، من: الجعافرة، والحساسنة، وبني خالد، وبني إبراهيم. ثم القبائل القبلية: كأولاد شريف وأولاد أكرد، وصدامة، وخلافة، وغيرهم، ممن يطول ذكرهم، من قبائل المغرب الأوسط وعمائره: سهله ووعره. ثم الكل بموه : عن أنفسهم وعن قبائلهم، بالإذن العام، من الخواص والعوام.

وقعت هذه البيعة العامة، في ثلاثة عشر رمضان، سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف الموافق للرابع فبراير عام 1833

أخذت هذه الصور من مجلة مسالك عدد 6، مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر 2003

مناقـــشة

الدكتور كمال لدرع

تعقيب على مداخلة الأستاذة أمقران :

قالت الأستاذة آمقران إن مجال السيادة متداخل بين عدة سلطات: لا بد أن نفرق بين السلطة السياسية التي لها علاقة بالدولة وسلطات أخرى قد تكون دينية أو اقتصادية أو على أساس النسب.

فالسيادة لها علاقة بأركان الدولة وهي الإقليم والشعب والسلطة السياسية، والسيادة تكون كاملة عند عدم التدخل في الشؤون الداخلية.

فقد حاول الأمير استعادة السيادة ببناء أركان الدولة الجزائرية.

تعقيب على د/ عميراوي:

يمكن تأكيد ما قاله الأستاذ المحاضر وهو، إن الحاكم المسلم مسؤول أمام الله ديانة، أي يوم القيامة، ومسؤول أمام الرعية قضاء، أي في الدنيا، ومن حق الرعية الاعتراض الحاكم.

تعقيب الأستاذ ناصر لوحيشي

أشكر المتدخلين والمساهمين والمنظمين. لدي سؤالان:

أولهما : عن مداخلة الأستاذة فريدة قاسي.

والآخر : عن مداخلة الأستاذ سليم زاوية.

1- ذكرت الأستاذة الكريمة أن الفراغ الذي تركه عدم اختيار سلطان المغرب نائبا له –أو هكذا فهمت– أدى إلى بيعة الأمير وذلك ليختار أهل الغرب الجزائري من بينهم ابنا يبايعونه؟ نريد توضيحا ... فما هي الصيغة ... فالمسوغ ربما لا يقنع بعضنا.

2- الأستاذ سليم زاوية: هل كان الأمير على علم بهذه الإمكانات الإستراتيجية أي على دراية ودراسة وعمق أم هل هي التجربة والسليقة والفراسة؟

سؤال الدكتور إسماعيل سامعي :

ما هي الأسباب التي حولت حكم المهدي من حكم بالمبايعة الشعبية إلى حكم وراثي من بعده.

سؤال من طالب بالدراسات العليا:

أشكركم على هذه المبادرة، أريد تفسيرا من الدكتور إسماعيل سامعي عن قوله البيعة في عهد الأمويين كانت شكلية و لم تكن حقيقية.

يسأل سامعي

فهرس المحتوى

* إشكالية الندوة..... 09
* سير الندوة..... 12
* د. يحي بوعزيز: مقارنة بين مبايعة الأمير عبد القادر في الغرب وولاية الحاج محمد أحمد باي في الشرق..... 19
* أ. عزيز حداد : البيعة في التاريخ الإسلامي (الرستميون نموذجا) 27
* د. إسماعيل سامعي: بيعة الأمير عبد القادر في مسار تاريخ المغرب الإسلامي (قراءة ومقاربة) 45
* مناقشة 59
* د. بوبكر كافي: مبايعة الأمير عبد القادر قـــراءة فقهية 71
* د. كمال لدرع : مبايعة الأمير عبد القادر قراءة شرعية تأصيلية..... 81
* أ. دوادي فرادي: التأصيل الشرعي لبيعة الأمير عبد القادر..... 103
* أ. ناصر لوحيشي: الحركة اللغوية في نصي مبايعتي الأمير عبد القادر الأولى والثانية..... 113
* د. اسعيد عليوان: الجزائر تسلم القادرية راية الجهاد بمبايعة الأمير 125
* مناقشة 142
* أ. قاصري محمد السعيد: العلاقات بين الأمير عبد القادر والسلطان عبد الرحمان 1833-1847. 151

* أ. قاسي فريدة: بيعة أهل الغرب الجزائري لسلطان المغرب وأثرها في بيعة الأمير عبد القادر 199
* أ. حليمة أمقران: موقف المخزنية من مبايعة الأمير عبد القادر (قبائل الدوائر والزمالة أنموذجا) 205
* أ. سليم زاوية: المقومات الجيواستراتيجية لإقليم دولة ا الأمير عبد القادر..... 217
* أ حماش خليفة: وثائق الأمير عبد القادر المحفوظة في الأرشيف الوطني التونسي.. 229
* د. عميراوي احميده: خطاب السلطة في مبايعة الأمير عبد القادر..... 235
* مناقشة..... 250